تحت المصباح

مطالعات وتجارب بين الكتب والناس

رجاء النقاش





مطالعات وتجارب بين الكتب والناس

رجاء النقاش

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي
أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م.

رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
١٦٠٧٤ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى
٩٧٧-٣٩٩-٠٣٨-٩

الطبعة الأولى

الجمع والإخراج الفنى
مكتبة ابن سينا

مطابع العبور الحديثة
ت: ٦١٠١٠١٣ ف: ٦١٠١٥٩٩

الكتاب: تحت المصباح
المؤلف: رجاء النقاش
الغلاف: الفنان: إلهامى عزت
الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون: ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠
فاكس: ٣٠٢٨٣٢٨

* * * *

هـذا الكـتاب

هذه مجموعة من الفصول المتفرقة تمت كتابتها فى فترة تمتد من سنة ١٩٩٥ وحتى سنة ٢٠٠٢، وهذا ما اعتمد عليه الكتاب فى طبعته الأولى، أما فى هذه الطبعة الجديدة، وهى الطبعة الثانية، ففيها إضافة لفصول أخرى تمت كتابتها بين سنة ٢٠٠٢ وسنة ٢٠٠٥ وترتبط هذه الفصول بخيط واحد هو أنها تجمع بين المطالعات والتأملات، وموضوعها جميعا هو بعض الأعمال الأدبية أو الأحداث التاريخية أو الشخصيات التى تجذبنا إليها وتدفعنا إلى التفكير فيها والتأمل فى معانيها المختلفة، وبذلك تكون فصول الكتاب هى رحلة فى عالم المعرفة وعالم التجارب الإنسانية، وهى رحلة تنتقل بين الأغصان الكثيرة لشجرة الحياة بما فيها من تنوع واختلافات، وفى هذه الرحلة لحظات شرقية وأخرى غربية، وفيها مواقف للتفاؤل ومواقف للأحزان، وفيها بسمات ودموع وعقل وجنون، فتلك كلها هى وجوه متعددة للحياة وتجارب الإنسان.

وإذا حاولنا أن نحدد هدفا له الأفضلية تدور حوله معظم فصول هذا الكتاب فسوف نضع أيدينا على معنى عام هو الدعوة إلى الإيمان بقيمة الحياة وجدوى الكفاح فيها حتى لو كانت النتائج متواضعة، فليس من الإنصاف أو العدل أن نجعل النتائج الأخيرة وحدها هى التى تحكم على مدى نجاح الإنسان فى حياته، والذى يعطى للحياة قيمتها ومعناها هو كفاحنا فيها وقدرتنا على مواصلة هذا الكفاح فى صبر، دون أن نستسلم لليأس بسبب المصاعب التى نلقاها والعقبات التى تقف فى طريقنا. والواجب الأول والأكبر للإنسان فى هذه الدنيا هو أن يبذل جهده بإخلاص وانتظام وأمانة، وبعيدا عن الخمول والتهاون وخداع النفس، وهذا الجهد فى حد ذاته وما ينتج عنه من راحة نفسية هو الجائزة الكبرى التى يحصل عليها كل الذين يجتهدون، فنحن نتحكم فى جهدنا ولا نتحكم فى النتائج المترتبة عليه، لأن نتائج الأعمال ليست ثمرة الاجتهاد وحده وإنما هى ثمرة لعوامل أخرى مثل الظروف والحظوظ والأقدار، والذى نستطيع أن نسيطر عليه ونتحكم فيه هو الجهد الذى نبذله أما الباقى فلا سيطرة لنا عليه.

تلك هى النغمة التى يحاول هذا الكتاب أن يعزفها بأعلى درجة ممكنة من اليسر والبساطة والسهولة. إنها نغمة الدعوة إلى الاجتهاد والرضا بما يكون بعد ذلك ما دمنا قد أدينا واجبنا بقدر ما نستطيع. ولكى نصل إلى هذه الدرجة من الاجتهاد الراضى عن نفسنا فعلينا استخدام إرادتنا على أحسن وجه. والحقيقة كما تبدو لى هى أن السعادة فى هذه الحياة ممكنة، وهى فى أيدينا لو أننا عرفنا معنى الرضا بعد أن نؤدى كل ما نحن قادرون على أدائه. وقد يكون بين فصول الكتاب ما يكشف عن شخصيات تخاذلت أو تصرفت بصورة تصدم الإحساس الكريم. والتفكير فى مثل هذه الشخصيات والمواقف مفيد لنا ونافع، لأنها تعطينا نموذجا لما نستطيع أن نرفضه ونتعرف عليه ونتجنب تقليده وتكراره. أما إخواننا اليائسون الذين تظهر صورتهم فى بعض فصول الكتاب فهم يمثلون نوعا من (الإضراب عن الحياة) وهو للأسف إضراب يسئ إلى أصحابه قبل أن يسئ إلى غيرهم، فاليائسون لن يغيروا عن طريق يأسهم شيئا من أحوالهم أو أحوال الدنيا التى يعيشون فيها ويخوضون معاركها كل يوم، والذى يعرف الصبر والابتسام حتى فى المواقف الصعبة هو وحده القادر على تجديد إرادة الحياة فى داخله حتى يستطيع مواصلة رحلته إلى النهاية.

على أننى أحب أن أقول قبل الانتهاء من سطور هذه المقدمة السريعة إن الرحلة التى تقدمها فصول هذا الكتاب فيها باب مفتوح للقارئ العزيز حتى يخرج من هذه الرحلة بما يشاء من أفكار ومشاعر أخرى متعددة، ففى الكتاب صور ونماذج لا تتقيد بالمعانى السابقة، بل ربما ابتعدت عنها كثيرا. وعلى أى حال فالرحلة فى هذا الكتاب هى فى نهاية الأمر رحلة حرة، والقارئ العزيز فى هذه الرحلة حر هو الآخر.

وأخيرا فأنا أحب أن أهدى هذا الكتاب إلى الذين يؤمنون بقيمة الجهد الإنسانى وجدواه حتى لو كانت نتائجه قليلة، وإلى الذين يزرعون الورد لا إلى الذين يقطفونه، فلعل هؤلاء بالتحديد يجدون فى هذا الكتاب شمعة تضئ الطريق وتبعث الدفء فى النفوس.

رجاء النقاش

القاهرة : أول يونيو ٢٠٠٢

البهلوان والعذراء

من النادر أن نجد إنسانا فى هذه الدنيا راضيا كل الرضا عن نفسه وحياته وعمله. وقد قيل عن خليفة عربى أندلسى حكم إمارته خمسين عاما وكان فى قمة السلطة والنجاح والسيطرة على الأمور، أنه جلس يوما بين عدد من أقرب الناس إليه، وأراد أن - يذكر - فى لحظة هدوء مجموع أيام السعادة فى حياته كلها فوجد أن هذه الأيام لا تزيد على أربعة عشر يوما. وذكر الأمير هذه الأيام، وحدد المناسبات التى كانت سببا لسعادته. وقد تعجب الجالسون من ذلك، وتعجب هو نفسه، فرغم أنه كان جالسا على "القمة" لمدة خمسين سنة، إلا أنه كان فى هذه القمة يعانى القلق والهموم والتفكير فى مشاكل معقدة وصعبة، وكان ذلك يحرمه من النوم الهادئ فى فراشه الناعم الوثير، ولم يجد فى حياته الطويلة، وسنوات سلطانه الكثيرة، أكثر من أربعة عشر يوما من السعادة.

هذا الخليفة هو عبد الرحمن الثالث "٨٩١-٩٦١" وقد حكم الأندلس من سنة ٩١٢ إلى سنة ٩٦١، أى لمدة خمسين سنة تقريبا ويقال إنه ترك وراءه ورقة بخط يده سجل فيها ملاحظته عن أيام السعادة المحدودة التى عاشها فى فترة حكمه الطويلة، وجاء فى هذه الورقة على لسان الخليفة قوله:

"مضيت خمسون سنة منذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شىء من الثراء والنعم، فاحترمنى الملوك وخافونى وحسدونى وحبانى الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان، فأحصيت أيام السرور التى صنعت لى دون تكدير فى هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوما. فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها ونجلها بكمال الأحوال لأوليائها".

وفى تاريخنا العربى قصة أخرى من هذا النوع الغريب، هى قصة "صقر قريش" أو "عبد الرحمن الداخل".

وهو أمير شاب من أمراء الدولة الأموية، شهد سقوط دولته، ورأى بنفسه "العباسيين" وهم يذبحون أهله وأخوته، واستطاع عبد الرحمن وحده أن يهرب إلى الأندلس وهناك تمكن بصبره وشجاعته وقوة عقله وحسن تدبيره من أن يصل إلى الحكم والسلطة، ويصبح حاكما للدولة العربية الأندلسية ويوحدها تحت سلطانه، ويجعل منها دولة بالغة العظمة والقوة. ولكن عبد الرحمن الداخل الذى حقق ذلك كله، كان دائما يشعر بالحزن ويحس بآلام نفسية كبيرة وقد وصفه محمد عبد الله عنان، اكبر مؤرخى الأندلس فى العصر الحديث بقوله : أنه رغم نجاحه الباهر، وجهوده الخارقة التى حققت له الانتصار والمجد كانت تغشاه دائما آلام نفس معذبة، ذلك أن المحنة الأولى التى عاشها عبد الرحمن وهو فى العشرين من عمره طبعت نفسه وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن وهو لم ينس قط أنه سليل الأسرة الأموية التى تعرضت أصولها الراسخة للاقتلاع، بعد أن كانت يانعة زهراء، وأن ذلك قد حدث فى مناظر دموية مروعة، كان هو من شهودها، وكاد يصبح هو نفسه من ضحاياها، ومن هنا نراه حتى آخر حياته، رغم ما حققه من سلطان ونجاح ومجد محزون النفس، يتلهف على ماضيه، ويبكى مجد أسرته، ذلك ما كتبه المؤرخ محمد عبد الله عنان عن "صقر قريش" أو عبد الرحمن الداخل. ويتحسر على فراق وطنه فى الشام، وعلى نفيه وغربته فى الأندلس".

عجيب أمر عبد الرحمن الداخل هذا! أيفلت من الذبح على يد "العباسيين" ويكون آخر منظر يراه بعينيه هو ذبح أخيه الأصغر، ويهرب فى رحلة مليئة بالمشقات والصعوبات والمخاطر، ويصل إلى الأندلس، ويتولى السلطة هناك، ويخوض المعارك وينتصر فيها، ويصبح من أعظم حكام عصره، حيث عاش بين سنة ٧٣٠ وسنة ٧٨٨، ومع ذلك كله يعانى دائما من الحزن والشعور بالأسى والشجن، وقد بلغ به حنينه إلى وطنه الأول أنه أنشأ" حيا شاميا عربيا "فى عاصمة حكمه "قرطبة" وزرع فى هذا الحى" نخلة "ولم يكن النخيل معروفا فى

الأندلس. وكان عبد الرحمن الداخل يناجى النخلة الوحيدة التى زرعها فى "قرطبة" ويعتبرها "غريبة" مثله، وله فى مناجاة هذه النخلة شعر ينسب إليه يقول فيه مخاطبا هذه النخلة:

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

فالنجاح فى الحياة إذن ليس معناه الوصول إلى السعادة. وقد يصل الإنسان إلى القوة والسلطة والثروة والنفوذ، ثم يلتفت حوله باحثا عن سعادة روحه، وهدوء باله، وإحساسه بالرضا عن نفسه، فلا يجد من ذلك شيئا، بل يحس بأن قلبه مهموم، وعقله ملئ بالمشاكل وقدرته على النوم الهادئ الخالى من الأرق معدومة.

ولا شك أن البحث عن السعادة هو من أكبر المشاكل التى يواجهها كل إنسان مهما كان موقعه فى الحياة، ولا فرق فى البحث عن السعادة بين كبير وصغير، فالكل يفكرون ويجتهدون ويحاولون دائما أن يصلوا إلى لحظة يشعرون فيها بأنهم سعداء راضون عن أنفسهم. والذين يربطون السعادة بالثروة أو السلطة أو الجاه والنفوذ يخطئون. فقد يصل الإنسان إلى هذا كله، ثم يحس عندما ينفرد بنفسه أنه غير سعيد، وأن هناك شيئا ينقصه، وينغص عليه حياته، ويملأ عقله بالشكوك والهموم، وقد يكون هناك إنسان يقوم بعمل بسيط جدا، ثم يكتشف أن هذا العمل يمنحه السعادة التى يجرى وراءها ويبحث عنها.

ومن بين كل ما قرأته فى مشكلة البحث عن السعادة لم أقرأ أجمل من تلك القصة القصيرة البديعة التى كتبها الكاتب الفرنسى الكبير أناتول فرانس "١٨٤٤ - ١٩٢٤" وهى قصة "البهلوان والمادونا" وكلمة "المادونا" هى لقب يطلقه الأوربيون على مريم العذراء أم "المسيح" عليه السلام وبذلك يمكن أن نقول إن اسم القصة هو "البهلوان والعذراء".

وأنا تول فرانس، معروف فى الثقافة العربية، فقد ترجم لـه الكـاتب الكبير الراحل احمد الصاوى محمد روايتـين مـهمتين همـا "تـاييس" التـى نسج علـى منوالها كاتبنا الكبير توفيق الحكيم، روايته المشهورة "الرباط المقدس" أما الرواية الثانية التى ترجمها الصاوى لاناتول فرانس فهى "الآلهة عطشـى" وهـى روايـة عن الثورة الفرنسية "١٧٨٩" وهى الثورة التى سالت فيـها دمـاء كثـيرة بريئـة. ورواية أنا تول فرانس عن الثورة الفرنسية تحدثنا عن هـذه الدمـاء التـى سـالت فى دوامة الثورة. وكان مـن الممكـن تجنـب الدمـاء لـو تحلـت الثـورة الفرنسـية العظيمة فى سنواتها الأولى بشىء من الصبر والرحمة وتحرى العدالة.

ونعود إلى قصة أنا تول فرانس القصيرة وهى "البهلوان والمادونا" وقد ترجمها إلى العربية الأديب الكبير الأستاذ درينى خشبة. ماذا تقول هذه القصـة الطريفـة التى كتبها أنا تول فرانس؟ .

إنها تقول ببساطة إن السعادة فى الحياة وحتى فى الدين لا تتحقق إلا بـأن يقوم الإنسان بعمله فى إخلاص وصدق والتزام. ومهما كـان هـذا العمـل صغـيراً وبسيطا، وربما كان بلا قيمة عند الآخرين، فإنه إذا أخلص الإنسان فيه وأعطاه جهده الكامل يكون مقبولا عند الله ويكـون مصـدرا للرضـا والسـعادة فـى نفس الإنسان.

المهم أن يكون للإنسان عمل يتقنه.

والمهم أيضا أن يكون الإنسان مخلصا فى أداء عمله، مـهما كـان هـذا العمـل صغيراً، وحتى لو كان هذا العمل تافها ولا قيمة له فى نظر الذين يتسرعون فى الحكم على الناس والأشياء. فالحقيقـة الكـبرى التـى يجـب أن نحنـى رؤوسـنا أمامها أنه لا يوجد فى الدنيا عمل تافـه لا قيمـة لـه. فكـل عمـل يسـتحق منـا الاحترام والتقدير، حتى لو كان هذا العمل هو عمل "كناس" يبذل جهدا، لكـى تكون الأرض من حولنا نظيفة، وهذا هـو المعنـى الكبير الجليـل الـذى يكشـفه

أمامنا أنا تول فرانس في قصته البديعة "البهلوان والمادونا" أو "البهلوان والسيدة العذراء".

بطل القصة بهلوان يجوب الشوارع، ويكسب قوته بما يقدمه من ألعاب بهلوانية يكافئه الناس بقروش زهيدة يلقونها إليه. وقد حرص هذا البهلوان على أن يتقن عمله أشد الإتقان حتى يستطيع أن يحصل من الناس على ما يمكنه من شراء طعامه ولقمة خبزه، وقد أدرك هذا البهلوان أن حياته شاقة، وأنه يتحمل مسئولية نفسه بصعوبة، ويحصل على لقمة خبزه بالعرق والجهد فلم يحاول أن يرتبط بامرأة وأسرة، إذ أنه لا يكاد يقيم أمر نفسه فكيف به إذا تزوج وأصبح مسئولا عن عائلة وأطفال، لقد قرر بينه وبين نفسه أن يضحي - راضيا - بهذا الجانب في حياته، ويكفيه ما يعانيه من مشقة في احتمال مسئولية نفسه.

ومع كل هذا فالحياة تعاند هذا "البهلوان" الطيب، وتضن عليه في بعض الأحيان بما يساعده في الحصول على لقمة خبز ومأوى ينام فيه. وذلك يحدث عادة في الشتاء القارس، حيث يصبح من الصعب أن يجد جمهورا يتجمع حوله في الشوارع ليشاهد ألعابه المختلفة ويمنحه بعض القروش التي يحتاج إليها ليعيش.

وفي ليلة من ليالي الشتاء يلتقي البهلوان براهب من الرهبان ليسأله الراهب - من باب الشفقة والإحسان - عن حاله، فيشكو البهلوان للراهب همه وضيقه بالحياة وعدم رواج ألعابه في الشتاء إذ يتجاهله الناس، وينصرفون بسرعة إلى بيوتهم طلبا للدفء وهروبا من البرد القارس، ويشفق الراهب على البهلوان ويعرض عليه أن يذهب إلى "الدير" وينضم إلى الرهبان إن كان قادرا على احتمال حياة الرهبنة. ويرحب البهلوان بذلك ترحيبا كبيرا، فما دامت الرهبنة تضمن له طعامه ومأواه فهذا أفضل كثيرا مما يعانيه حيث تمر عليه أيام بلا طعام ولا مأوى رغم اجتهاده و"شطارته" في "ألعابه البهلوانية".

ويذهب البهلوان إلى الدير وهناك يجد مجموعة من الرهبان الذين يقضون وقتهم فى تمجيد "المسيح" وأمه العذراء "مريم".

بعضهم يكتب فى ذلك أشعارا جميلة، وبعضهم بيرسم صورا مؤثرة على شكل حمامات للفضائل الكبرى وهى الخوف والتقوى والمعرفة والقوة والعدالة والذكاء والحكمة، والبعض يرسم حمامات تمثل فضائل أخرى هى الوداعة والكبرياء والاعتزاز والاحترام والطاعة.

ورأى البهلوان هذه الحماسة من رفاقه فى الدير فأخذ يلوم نفسه أشد اللوم ويقول".. إننى غبى جاهل لا قدرة لى على فن جميل ولا عمل من ورائه نفع وطائل، أين أنا مما ينحت النحاتون للعذراء مريم، وما يصوره المصورون، وما يبدعه أولئك الشعراء من أغنيات جميلة وا أسفاه أنى لا أملك من كل ذلك قليلا ولا كثيراً".

وجلس البهلوان مرة يصغى إلى رفاقه فى الدير يتلهون بالحديث فيما بينهم فسمع أحدهم يقص حكاية الراهب الذى عاش عمره لا يستطيع أن يعبد الله إلا بهذه العبارة القصيرة: سلام على مريم. سلام على مريم. يرددها فى صباحه ومسائه، ولا يتوقف لسانه عن ترديدها، وكان إخوانه فى الدير يحتقرونه لجهله وقلة معرفته وثقافته، فلما مات، وأقبلوا عليه، رأوا، وياما اغرب ما رأوه، أربع وردات ناضرات قد خرجت من فمه، فعرفوا أن هذه الوردات الأربع، هى وردة لكل حرف من حروف اسم "مريم العذراء" وهكذا أصبح الراهب قديسا بعد موته وبعد ما لقى من ازدراء رفاقه فى الحياة الدنيا.

وعندما سمع "البهلوان" هذه القصة، أتجه تفكيره إلى القيام بعمل محدد. فكان يذهب كل يوم إلى "كنيسة" الدير الذى يعيش فيه مع الرهبان، ويقضى هناك فترة طويلة، فى غير الأوقات المحددة للذهاب إلى الكنيسة.

وأثار هذا السلوك دهشة رئيس الدير، الذى كان واجبه يفرض عليه معرفة كل ما يعمله رهبان الدير، حتى فى سرهم ونجواهم، فصمم على أن يعلم من أمر "البهلوان" ما أراد البهلوان أن يجعله سرا مكتوما.

وفى إحدى خلوات البهلوان ذهب رئيس الدير فى صحبة زميلين من اكبر رهبانه سنا، ليروا ماذا يصنع أخوهم داخل الكنيسة، ووقفوا يلاحظونه من ثقوب الباب.

"ما شاء الله"!!

لقد شاهدوا البهلوان الذى أصبح راهبا وقد "تشقلب" أمام صورة العذراء المقدسة، بحيث وضع رأسه ويديه على الأرض ثم راح يرسل "كرة" فى الهواء، ويتلقفها برجليه، ثم يرسل "سكاكينه"، المرهفة ويتناولها فى خفة ورشاقة بكلتا يديه، تماماً كما كان يصنع وهو "بهلوان" يجوب الشوارع. ولم لا يصنع هذا؟ أليس هو بهذا إنما يضع خبرته الفنية ومواهبه وطول تدريبه خدمة للسيدة العذراء كما يصنع رفاقه الرهبان؟ وما الذى يصنعه رفاقه غير هذا"؟!

"لكن رئيس الدير لم يفهم شيئا من ذلك، ولم يفطن إلى غرض البهلوان النبيل بل ماج وصاح ومعه زميلاه، ولعنوا البهلوان أشد اللعن. لأنه دنس هذا المكان المقدس واستباح حرمته. لقد كان رئيس الدير يعرف أن البهلوان رجل ساذج مغفل ولكنه ظن هذه المرة أن البهلوان قد أصابه الجنون وفقد صوابه، فأندفع داخل الكنيسة، واندفع وراءه زميلاه ليقذفوا بالبهلوان خارج الكنيسة،ولكن يا للمعجزة، لقد رأوا الصورة المقدسة "للعذراء مريم" تتحرك، وتتحرك، ثم تتقدم نحو البهلوان، وقد مدت ذراعها الجميلة النقية وراحت تمسح قطرات العرق التى كان تتصبب فوق جبين البهلوان بمنديلها الأزرق الحريرى وسجد رئيس الدير حتى مست جبهته رخام الأرض، وسجد وراءه زميلاه، وتلا الجميع آيه من آيات الإنجيل تقول "مباركون الذين تطهرت قلوبهم وخلت من الخبث، لأنهم سوف يرون الله".

تلك هى خلاصة قصة أنا تول فرانس الجميلة، وهى قصة تدور فى إطار من عقيدة الكاتب المسيحية، ولكنها تكشف عن كثير من المعانى الإنسانية الأصيلة. وفى مقدمة هذه المعانى جميعا أن كل عمل يقوم به الإنسان مهما كان صغيراً وبسيطا، فهو مصدر للسعادة الحقيقية والرضا عن النفس، مادام الإنسان يقوم به فى إتقان ودقة، وما دام يؤديه بنية حسنة، وما دام العرق يسيل على جبينه وهو يؤدى هذا العمل. وكل نقطة عرق تسيل على الجبين هى شهادة كبرى للإنسان بأنه يستحق السعادة، ويستحق أن يكون راضيا عن نفسه، بل إن ذلك هو الذى يجعل الله سبحانه وتعالى راضيا عن الإنسان، مقدرا لعمله، متقبلا له مجازيا عليه خير الجزاء.

إن هذا "البهلوان" كان ضائعا وحزينا، لأنه لم يجد ما يخدم به "العذراء مريم" حسب عقيدته الدينية، سوى أن يقف أمام صورتها ويقدم ألعابه البهلوانية، فهو لا يعرف سوى هذه الألعاب فلا هو شاعر، ولا كاتب، ولا رسام، لا نحات، ولا موسيقار. ولم يكن قادرا على أن يجارى زملاءه فى الدير فى هذه الأمور الصعبة، فقد جاء إليهم من الشارع، ولم يجئ من معهد ولا جامعة، وجاء إليهم من عالم الفقر والكدح و "البهدلة" بين الناس، فلم يتعلم سوى مهنة "البهلوان" ولم يقرأ كتبا، ولم يوهب موهبة الشعراء والموسيقيين والرسامين، فماذا يفعل لكى يكون سعيدا وراضيا. وماذا يفعل قبل ذلك كله لكى يحصل على نعمة الله برضائه عنه، هل يعيش ملوما محسورًا غاضبا على نفسه يائسا من رحمة الله؟ لقد فكرا كثيرا واهتدى إلى الصواب، فيكفى أن تقدم فى هذه الحياة ما تعرفه وتتقنه ويتصبب جبينك عرقا وأنت تؤديه، يكفى أن تكون مخلصا وصادق النية، يكفى أن تشعر بأن ما تقوم به هو أفضل ما تستطيعه، وأنك لا تدخر فى سبيل ذلك أى جهد. وأنك لا تخدع نفسك، أو تخدع الناس فهذا وحده هو الذى يحقق لك سعادتك، ويرتفع بإنسانيتك، وهو أيضا ما يحقق لك رضا الله عنك وجزاءه لك.

الأمير العربى الذى أشرنا إليه فى البداية لم يجد فى حياتـه بعد أن قضى ثلاثين عاما فى السلطة، سوى أربعة عشر يوما من السعادة، وعبد الرحمن الداخل الذى نجا من الذبح، وغامر وخاطر وسافر آلاف الأميال حتى وصل إلى الأندلس فخاض المعارك والحروب وانتصر وأصبح حاكما من أعظم حكام الدنيا فى عصره.. هذان النموذجان لم يجدا السعادة أبدا، وعاشا فى حزن دائم لأنهما أخطأ فى الحساب، وأقاما للسعادة ميزانا غير عادل، أما البهلوان فى قصة أنا تول فرانس، فقد توصل إلى سعادة نفسه ورضاء ربه لأنه اخلص فى عمله المتواضع ورضى به وسال العرق على جبينه وهو يؤديه. هذه هى السعادة الحقيقية فى حياة الإنسان: أن يؤدى عمله وأن يخلص فيه، وألا يشعر بعد ذلك بأنه أخطأ، أو أنه أدى عمله بإهمال واستهتار وضمير غير مستقيم.

ولذلك وصل البهلوان للسعادة المكنة فى حياة الإنسان. أن ترضى بما تقوم به ما دمت مخلصا فيه، وما دام العرق يسيل من جبينك وأنت تؤديه، وليكن عملك متواضعا وبسيطا، بل وليكن عملك ـ فى نظر غيرك ـ قليل الأهمية وعديم القيمة ـ لا يهم. فأنت على صواب وهم مخطئون.

سعادتك فى عملك. وسعادتك فى عرق الجبين. والمنديل الحرير الأزرق الذى يمسح جبينك بحنان ينتظرك، فأنطلق ولا تتوقف، حتى لو كنت بهلوانا مثل بهلوان أنا تول فرانس.

الاعـــتذار

إذا ألقينا نظرة على التاريخ الإنسانى فسوف نجد فيه ظاهرة واضحـــة، هــى أن الإنسان بطبيعته قابل للوقوع فى الخطأ، وقد يكـون هـذا الخطـأ فادحـا إلى حد كبير، ولكن الإنسان بعد أن يقع فى الخطـأ، فـإن الضمـير الإنسـانى يظـل يتحرك ويشعر بالقلق نتيجة للخطأ الذى وقع فيــه فــى يــوم مـن الأيـام، حتـى تأتى لحظة من لحظات النور القوى، يصرخ فيها الإنسان قائلاً: لقد وقعنا فــى الخطأ فى يوم قديم من أيام الزمان ولابد من الاعتذار عنه.

كل خطأ تقع الإنسانية فيه لابد من الاعتذار عنه، حتى لو امتد زمان طويل على هذا الخطأ، وحاول البعض من أنصار الخطأ ومؤيديه والمسـتفيدين منـه أن يسدلوا عليه ستارا كثيفا من النسيان.

فكل خطأ تقع فيه الإنسانية يجرح الضمير.

والضمير ليس عضوا فى الجسد وإنما هو عضــو مـن أعضـاء الـروح، بـل هـو "قلب" الروح.

وعندمـا يتعـرض الضمـير الإنسـانى لأى جـرح، فإنـه لا يمكـن أن يعـود إلى وظيفته إلا إذا عالج الجرح القديم وتم شفاؤه منه.

والاعتذار هو أعظم العلاج للأخطاء الإنسانية، وهــو الشـفاء مـن آلام الضمـير عندما يحس أن هناك خطأ وقع، ولابد من علاجه.

فهناك إذن "توازن" فى تاريخ الإنسان، بين وقوعه فى الخطأ، واعتذاره عن هـذا الخطـأ، وبـدون هـذا التـوازن العجيـب، فـإن الحيـاة تتحـول إلى غابـــة، والإنسان يتحول إلى وحش، والدنيا كلها لا تستطيع أن تفكر فى مستقبل جميل تحلم به وتتمناه.

والاعتذار وحده هو الذى يجعل الإنسان يحس بإنسانيته، ويعطيه القوة على مواصلة رسالته، ويمنحه أملا فى أن تكون حياته مصدرا للشر والظلام.

فى سنة ١٤٣١ وقفت فتاة فى سن الشباب، حيث كان عمرها تسعة عشر عاما، وكان اسمها "جان دارك"... وقفت هذه الفتاة الرائعة أمام محكمة من محاكم "التفتيش" كان يرأسها "كوشون" وهو قاض فرنسى استطاعت إنجلترا أن تشتريه وترشوه ليحكم على "جان دارك" بالإعدام حرقا حتى الموت.

كانت "جان دارك" قد قادت الجيوش الفرنسية فى حملات متواصلة، وبثت فى جنودها قوة الإيمان بالله والوطن، واستطاعت أن تنتصر على جيوش الإنجليز التى كانت قد هاجمت فرنسا وقامت باحتلالها.

تحررت فرنسا على يد جان دارك، وجن جنون الإنجليز الذين هزمتهم فتاة لبست ملابس الرجال، وأوقعت بهم هزيمة ساحقة، ولجأ الإنجليز إلى الحيلة، واستطاعوا أن يشتروا بعض السياسيين الفرنسيين، وبعض رجال الدين الذين كان فى قلوبهم مرض، وكانوا يستغلون الدين لأغراض دنيوية منها: المال والسلطة والجاه. وعقد الإنجليز مع الفرنسيين معاهدة ينسحبون بمقتضاها من فرنسا، ولكنهم كانوا مصممين على الانتقام من تلك الفتاة الرائعة التى قادت الفرنسيين إلى الانتصار وهى جان دارك.

وتمت محاكمة جان دارك.

وصدر الحكم بالإعدام حرقا، وكانت قائمة اتهاماتها كبيرة منها الإلحاد، والإدعاء بأنها تسمع أصواتا للقديسين تتحدث إليها، أما تهمتها الأخيرة فهى أنها كانت تلبس ملابس الرجال.

ودافعت "جان دارك" عن نفسها بشجاعة وبسالة، وقالت عن التهمة الأخيرة، وهى لبسها لملابس الرجال: أنها فعلت ذلك لأنهم سجنوها فى سجن ليس فيه إلا الرجال ولو سجنوها فى سجن النساء لكان لها موقف آخر، وهذه حجة قوية وكافية لتبرئتها من هذه التهمة.

ولكن القضاة كانوا مرتشين ومغرضين وذوى نية سيئة، أى أنهم ببساطة كانوا مصرين على إعدام "جان دارك" وإحراقها، فقد كانوا أصحاب نفوس

صغيرة ومصالح مالية وشخصية أصغر، وكانت "جان دارك" مزعجة لهم بطموحها وعفتها ونبل روحها وشجاعتها ورفضها للصغائر وإيمانها الخالص بالله والوطن.

واصدر القضاة غير العاديين الحكم عليها ونفذوا الحكم وأحرقوها وكان ذلك سنة ١٤٣١ .

كان الحكم خطأ فلهذا لم يتقبلها الضمير الإنسانى على الإطلاق. وفى سنة ١٤٤٩ أى بعد مرور ثمانية عشر عاما على إحراق "جان دارك" تقدمت أمها "ايزابيل" وكانت فى السادسة والسبعين من عمرها إلى المحكمة تطالب بإعادة النظر فى قضيتها، والحكم لها بإعادة الاعتبار إليها، فهى ليست مجرمة وإنما شهيدة.

وكانت عوامل الضغط على المحكمة من جانب الإنجليز قد زالت وأصبحت فرنسا حرة وقوية، وكانت "جان دارك" نفسها بما أثارته فى حياتها من حسد وحقد وغيرة من انتصاراتها العظيمة قد اختفت من الوجود.

وأصدرت المحكمة الجديدة قرارها بالاعتذار عن الحكم القديم، واعتبار هذا الحكم خطأ وباطلا، واعتبار جان دارك شهيدة، وليست مجرمة، كما حكمت عليها المحكمة الأولى، وكان الحكم الجديد الذى يتضمن الاعتذار ورد الاعتبار إلى جان دارك سنة ١٤٥٦، أى بعد إعدامها حرقا بخمسة وعشرين عاما، على أن هذا الاعتذار لم يكن كافيا لأن الجريمة التى وقعت فى حق "جان دارك" كانت اكبر من هذا الاعتذار المحدود.

وفى سنة ١٩٢٠ أى بعد ما يقرب من خمسمائة سنة على إحراق "جان دارك" قدمت الإنسانية اعتذارها الأخير والكبير، فاجتمعت الكنيسة الفرنسية، وأعلنت أن محاكمة "جان دارك" الأولى باطلة، وأن "جان دارك" ليست مجرمة وإنما "قديسة" من قديسات المسيحية، وأن أسمها فى تاريخ القديسات هو

"عذراء أورليان" نسبة إلى معركة "أورليـان" التـى انتصـرت فيـها "جـان دارك" على الإنجليز.

وبعد إحراق جـان دارك بحـوالى مـائتى سـنة، وبـالتحديد فـى سـنة ١٦٣٣ تعرض نابغة من نوابغ الإنسانية هـو العـالم العظيـم "جـاليليو" لمحاكمـة ظالمـة أخـرى، فقـد اتهمتـه بعـض ذوى المصـالح المحـدودة والنظـر القصـير، والعقـل الضيق، والفهم السيئ للدين بأن آراءه هى إلحاد، وأن فيـها خروجـا علـى مـا جاء فى الكتاب المقدس من أفكار وآراء، وكان "جـاليليو" قـد أعلـن عـن بعـض الأفكار التى توصل إليها بالتجربة والعلم والمتابعة والرصد الدقيـق لأحـوال هـذا الكون، ومن بين هذه الآراء أن الأرض ليسـت ثابتـة وإنمـا هـى متحركـة تـدور حول نفسها وتدور حول الشـمس، وأن الشـمس هـى المركـز الـذى تـدور حولـه الأرض وليس العكس. وانتفض الذين لا يريدون أن يعـترفوا بـأن أكـبر نعمـة لله على الإنسان هى العقل، وقدموا "جاليليو" إلى المحاكمة بتهمة الكفر والإلحاد.. وأرغموه بعد تعذيبه معنويا وجسديا على أن يقول فى المحكمة: "بقلب مخلص وإيمان صادق ألعـن وأكـره وأعلـن التخلـى عـن كـل الأخطـاء والأفكـار الملحـدة المنسوبة لى، وأقف نفس الموقف ضد أى أخطاء أو أفكار إلحادية أخرى أخالف فيها الكنيسة المقدسة.. وأقسم أننى لن اذكر بعـد اليـوم أى شـئ أخـالف فيـها الكنيسة المقدسة.. وأقسم أننى لن أذكر بعد اليـوم أى شـئ قـد يثـير مثـل هـذه الشكوك حولى، وأنى إذا عرفت أى ملحد أو أى شخص مشتبه فـى أنـه ملحـد فلابد أن أبلغ عنه هـذه المحكمـة، وأدعـو الله أن يمنحنـى العـون، وأرجـو أن تساعدنى الكتب المقدسة التـى أضـع يـدى الآن عليـها وأنـا أؤدى قسـمى أمـام المحكمة على تنفيذ كل ما أتعهد به الآن".

كان قضاة المحكمة يقولون أن الأرض ثابتة وهـى مركـز الكـون وأن الشـمس تدور حولها، وأن هذا هو ما تقوله لنا الكتب المقدسة.

وكان جاليليو يقول: أن الأرض ليست مركز الكون وأنها تدور حول نفسها وتدور حول الشمس وأن الكتب المقدسة لا يجوز أن نفهمها على ظاهرها ولكن ينبغى أن نفسر كلماتها بما تدل عليه من معان أعمق من الظاهر التى تدل عليه الكلمات.

وكانت المحكمة على خطأ خطير.

وكان جاليليو على صواب.

وقبل المحكمة كان "جاليليو" قد سجل أفكاره الصحيحة فى كتب انتشرت فى أنحاء العالم فى عصره، فلم يعد هناك خوف عليها من الضياع، وكان هذا العبقرى أثناء المحاكمة التى وقع فى مصيدتها قد أصبح شيخا مريضا غير قادر على تحمل الأذى والمتاعب، فقدم الاعتراف المطلوب منه بخطأ أفكاره الصحيحة.

وتمر السنوات وتشعر الإنسانية بأنها أخطأت، بل أجرمت فى حق هذا العقل الكبير الذى خدم الإنسانية، ربما كما لم يخدمها أحد قبله.

ويظل الضمير الإنسانى موجوعا ومتألما من الخطأ الذى ارتكبه فى حق "جاليليو" الذى مات فى السابعة والثمانين سنة ١٦٤٢ وكان العارفون بقدره قد قالوا عنه أنه أعظم عقل إنسانى فى كل العصور، وبعد وفاة جاليليو بحوالى مائتى سنة، وبالتحديد فى سنة ١٨٣٥ تنعقد فى الكنيسة الإيطالية محكمة أخرى تقرر ما يلى:

"حذف مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب الممنوعة،وتبرئته من كل الاتهامات التى وجهت إليه، واحترام كل أفكاره العظيمة الرائدة، واعتبارها ثروة كبرى أضيفت للعقل الإنسانى وغيرته وساعدته على التقدم مع الاعتذار عن كل ما قيل عنه من إنه ملحد ومخالف للدين".

وهكذا اعتذرت الإنسانية عن خطئها فى حق "جاليليو" وأدانت قضاته، ووضعته فى موضعه الصحيح من الأهمية والقيمة والكرامة الحقيقية.

وفى تاريخنا الفكرى أحداث مشابهة.

ففى سنة ١٩٢٥ أصدر الكاتب المفكر الشيخ على عبد الرازق كتابه الشهير "الإسلام وأصول الحكم" وفى هذا الكتاب قال: إن "الخلافة" لم يرد بها نص دينى، وأن على المسلمين أن يختاروا لأنفسهم نظام الحكم الذى يناسبهم ويحقق مصالحهم ويرعاها، والفكرة فى الكتاب بسيطة وصريحة وواضحة وهى تشجيع المسلمين على الاجتهاد فى تنظيم حياتهم "الدنيوية" تنظيما مناسبا يسمح لهم بالنهوض والتقدم. ولكن الكتاب صدر فى وقت كان فيه الملك فؤاد يطمع فى أن يكون خليفة لكل المسلمين بعد أن سقطت الخلافة فى تركيا سنة ١٩٢٤ وحرض الملك فؤاد بعض العلماء على الشيخ "على عبد الرازق" فعقدوا "محكمة" من أربعة وعشرين عضوا. ويقول الأستاذ "محمد سيد كيلانى" فى كتابه "فصول ممتعة" عن هذه المحكمة: "إن الشيخ على عبد الرازق دخل على هيئة المحكمة وحياها بقوله " السلام عليكم" فلم يرد عليه أحد وبعد مناقشة طويلة أصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم وإخراجه من زمرة العلماء ويتضمن هذا الحكم مصادرة كتاب الشيخ على عبد الرازق ومنعه من تولى وظائف عامة".

وكان هذا الحكم خطأ، فالشيخ على عبد الرازق رأى فى كتابه "الإسلام وأصول الحكم" رأيا يحتمل الحوار والمناقشة ولا يحتمل المحاكمة والإدانة والتجريم، ولكن إرادة "الملك فؤاد" كانت فوق إرادة الذين حاكموا الشيخ وأدانوه وجردوه من وظيفته وشهادته العلمية، ولولا أن مكانة أسرة الشيخ على عبد الرازق كانت كبيرة، لأوقعوا به عقوبات أقسى وأشد.

وتمر الأيام ويمضى على هذا الخطأ واحد وعشرون عاما ويكون الملك فؤاد قد رحل وحل محله الملك فاروق. ويرى الملك فاروق أنه بحاجة إلى شخصية محترمة لتشغل منصب وزير الأوقاف ولا يجد من يصلح لهذا المنصب إلا الشيخ على عبد الرازق. ولكن كيف يمكن أن يكون على عبد الرازق وزيرا للأوقاف

وهو منصب "شبه دينى" رغم أنه محكوم عليه من محكمة دينية قديمة بالكفر والإلحاد والتجريد من الشهادة العلمية.

وكان الحل هو "الاعتذار" عن الحكم أو الخطأ القديم، ونعود إلى مرجعنا فى هذه القضية وهو كتاب الأستاذ محمد سيد كيلانى الذى ينقل ما نشرته جريدة الأهرام فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٧ وهذا نصه:

"عندما أصابت الأزهر تلك الصدمة التى نزلت فجأة فى شيخه الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق اتجهت نية كبار العلماء إلى تكريم ذكراه فى شخص شقيقه الأستاذ على عبد الرازق بك وذلك بأن يلوذوا بجلالة الملك فاروق ملتمسين عفوا ملكيا عن أثر هذا القرار الذى اتخذته هيئة كبار العلماء من قبل، فما اختمرت هذه الفكرة، حتى أخذت سبيلها إلى التنفيذ، وتم إعداد صيغة الالتماس فى هذا الشأن وحمله إلى القصر العامر جماعة من كبار العلماء، وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر ومما هو جدير بالذكر أنه روعى فى رفع الالتماس أن تتقدم به الهيئات العلمية والتنفيذية فى الأزهر، تمثل الأولى جماعة كبار العلماء، وتمثل الثانية المجلس الأعلى للأزهر، وأن يكون الملاذ فى ذلك هو جلالة صاحب العرش".

وتقدم العلماء بالالتماس إلى الملك وقالوا فيه:

"إن المجتمعين من أعضاء جماعة كبار العلماء وأعضاء مجلس الأزهر الأعلى وشيوخ الكليات، يلتمسون من جلالة الملك أن يتفضل فيضيف مكرمة إلى مكارمه الحميدة التى من بها جلالته على بيت عبد الرازق الطيب، فيعفو عن الأثر الذى أصدرته جماعة كبار العلماء منذ أكثر من عشرين عاما ضد الشيخ على عبد الرازق بك".

وقالت "الأهرام" تعليقا على الالتماس الذى تقدم به العلماء" إن العلماء ختموا الالتماس بالدعاء لجلالة الملك، وقد وقعه أعضاء هيئة كبار العلماء وأعضاء مجلس الأزهر الأعلى وبعض العلماء، وكان المفتى الشيخ حسنين

مخلوف متغيبا عن هذا الاجتماع، ولما علم به بادر فرفع إلى جلالة الملك التماسا مؤيدا به ذلك المسعى الحميد".

وبعد هذا الالتماس بحوالى خمسة أيام صدر المرسوم الملكى بتعيين الشيخ على عبد الرازق بك وزيرا للأوقاف وبعدها بفترة قليلة نال الشيخ لقب "باشا".

وهكذا كان الشيخ على عبد الرازق متهما ومدانا ومحكوما عليه فى ١٢ أغسطس ١٩٢٥.

وفى ٣ مارس سنة ١٩٤٧ أصبح وزيراً للأوقاف بعد أن التمس العلماء الذين أدانوه من قبل العفو عنه والعدول عن أى اثر للحكم القديم ضده.

وهذا أيضا نوع من الاعتذار وهو اعتذار تاريخى، لأن الذين أدانوا كان من بقى منهم حيا هم أنفسهم الذين طالبوا بالعفو والصفح وإلغاء الإدانة.

لن تستطيع الإنسانية أن تتخلص من الأخطاء وبعضها فادح، لأن الخطأ جزء من طبيعة الإنسان وتاريخه.

ولكن الإنسانية أيضا لن تستطيع أن تتخلص من الاعتذار عندما تدرك أنها أخطأت وأساءت التقدير والتصرف.

الخطأ ـ للأسف ـ جزء من طبيعة الإنسان.

والاعتذار لابد منه حتى لو تأخر، لأن الضمير الإنسانى لا يستطيع أن يصبر على الخطأ إلى الأبد .

الحمار الموسيقار

ما الذى يريده الإنسان الطبيعى فى هذه الدنيا؟.. وما الذى يريده بـالتحديد صاحب النفس الخالية مـن أمـراض الطمـع والغـرور والرغبـة فـى إيـذاء النـاس والتحكم فيهم وتعقيد حياتهم؟.. إن أى إنسان تخلو شخصيته من هذه الأمراض وما يشبهها لا يريد من الدنيا أكثر من أن يعيش فى سلام مع نفسه، وفى سلام مع الناس الذين يتعامل معهم فى عائلته وبين أصدقائه أو فى عمله ومجتمعـه، فالسلام مع النفس ومع الآخرين هـو أنشـودة داخليـة عذبـة تـتردد فـى قلـوب الناس جميعا، ولا يسمعها أحد سوى صاحبها، ومهما ارتفع مركز الإنسان فـى هذه الدنيا، عن طريق السلطة أو النفوذ، أو عن طريق المال والجمـال والشـهرة، فإنه لابد أن يسمع أنشودة السلام هذه فى داخلـه فـى يـوم مـن الأيـام. فـالقوة وحدها لا تحقق السعادة، والنجاح فى المال والأعمال والنفوذ والمجد، لا يحقـق السعادة وحده، فإذا لم يكن هذا السلام الداخلى فى نفس الإنسان فإن السـعادة تظل بعيدة وعسيرة المنال. جلست مرة مع فنانة مشـهورة كـانت تتمتـع بالمـال والجمال والشهرة العريضة، ولكن حياتها كانت مليئـة بالفضـائح لأنـها كـانت تندفع إلى مغامرات متواصلة، تنتـهى دائمـا إلى الفشـل. والمغـامرون فـى العـادة ينجحـون فـى البدايـة، وذلـك لأنـهم يفـاجئون النـاس بتصـرف غريـــب فـــى البدايات، ولكن عندما تهدأ آثار المفاجـآت، ويبـدأ العقـل فـى مراجعـة الأمـور تظهر الأخطاء والسلبيات، وتنتهى المغامرة نهايتها المنطقية وهى الفشل. وذات يوم اتخذت هذه الفنانة قرارا عجيبا بالزواج من رجل محـترم جـدا، ليـس مـن الوسط الفنى، ولم يكن صاحب تاريخ فى اللهو والعبث بقلوب النساء. وكان كل شئ فيه ينطق بأنه متناقض مـع حيـاة هـذه الفنانـة وشـخصيتها القائمـة علـى المغامرات السريعة المضطربة.

سألت هذه الفنانة فى حياء شديد، كيـف تـتزوجين رجـلا مـن هـذا الطـراز الذى يختلف كل الاختلاف عنك؟.. فكانت إجابتها أنها التقت بـهذا الرجـل

لأول مرة فخاطبها بقوله "يا هانم" أى أنه احترمها، وأعطاها إحساسها بالأمان والرقى والسلام. وفكرت الفنانة فى ذلك كله، وأدركت بعد تدقيق شديد أن هذا الرجل يمثل حلمها الضائع منها، رغم امتلاء حياتها بكل شئ سواه، واختارته زوجا وعاشت معه فترة طويلة من الاستقرار والسعادة المشتركة.

كانت هذه الفنانة تبحث لنفسها عن السلام والاحترام، وعندما وجدت ذلك فى عينى هذا الرجل الذى لا يشبهها فى شئ استقرت سفينة حياتها عن العواصف والأعاصير، وفوق شاطئ من الأمان، وكانت هذه الفنانة تشعر خلال مغامرات حياتها بالخطر الشديد الذى يهدد مستقبلها كله، وقد ساعدها هذا الشعور بالخطر على أن تكون مفتوحة العينين، فتخلصت عند أول فرصة مما هى فيه، لتستمر مع رجل يقدم الرعاية والاحترام.

وقرأت مرة لمليونير أمريكى هو - فيما أذكر - "جون روكفلر" الابن، والذى كانوا يسمونه "ملك البترول" لسيطرته على معظم مصانع تكرير البترول فى أمريكا.. قرأت له عبارة قالها لأحد أصدقائه وهما يحتسيان الشاى معا فى حديقة قصر المليونير الكبير، وفى هذه العبارة قال المليونير الأمريكى لصديقه ما معناه: هل تظن أننى أجد سعادتى فى إدارة أموالى الهائلة وشركاتى ومصانعى وإنتاجى الذى يملأ الأرض؟.. إن هذا كله عمل فيه من الهم والقلق والتوتر والشعور بالخطر ما يجعلنى متنبها ومفتوح العينين طول الوقت. سعادتى الحقيقية لا أشعر بها إلا فى لحظات مثل هذه اللحظة التى أجلس فيها مع صديق مثلك، أحبه وأثق به، وليست بيننا مطامع، وأستطيع أن أكون معه ونحن نحتسى الشاى على حقيقتى كما خلقنى الله، وأستطيع أن أنسى الخوف، والشعور بالخطر الذى لا يفارقنى، وأحس بالسلام فى داخلى يعزف ألحانه الجميلة. وهذه ليست كلمات المليونير الأمريكى بنصها بل بمعناها، فأنا أكتب من الذاكرة بعد أن غاب عنى المصدر الذى قرأت فيه نص الكلمات.

وفى سنة ١٩٩٥ ظهر فيلم أمريكى مدته حوالى ثلاث ساعات عن الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون "١٩١٣-١٩٩٤" وهو فيلم مهم وصعب من إخراج أوليفر ستون، وتمثيل الفنان الإنجليزى العبقرى أنطونى هوبكنز، وقد شاهدت الفيلم مرتين، وركزت فى المرة الأولى كل انتباهى على الأحداث السياسية، أما فى المرة الثانية فقد كان تركيزى كله على المواقف الإنسانية التى تعرض لها واحد من أقوى الرؤساء الأمريكيين فى العصر الحديث وهو نيكسون. وهنا لابد من الإشارة إلى أن أى رئيس أمريكى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ وإلى الآن، هو أقوى حاكم فى الدنيا، حتى لو كان رئيسا ضعيفا، فهو يمثل أكبر مركز للقوة فى العالم الحديث، فما بالك إذا كان هذا الرئيس فى قوة نيكسون الذى وصفه البعض بأنه "حيوان سياسى" أى أن السياسة كانت فيه غريزة وطبعا من طباعه الفطرية، فلم يكن نيكسون مهتما بجمع المال، ولم يكن لديه غرام بالنساء، وقد تعرض مع النساء لاغراءات كثيرة ولكنه رفضها جميعا منذ اللحظة الأولى، فقد كانت السياسة هواه، وكانت عبادته، وكانت الصلاة التى يبث فيها لله سره ونجواه.

كان نيكسون قويا جدا.. نشأ فقيراً، فهو ابن "بقال" وظل يعمل ويصعد - بعد هزائم متعددة - حتى أصبح رئيسا لأمريكا سنة ١٩٦٨، ثم نجح للمرة الثانية فى انتخابات سنة ١٩٧٢، وحقق للأمريكان إنجازين هائلين: أولهما إنهاء حرب فيتنام، وثانيهما زيارته للصين واعترافه بها بعد حوالى ربع قرن من الخصومة العنيفة بين الصين وأمريكا. ثم جاءت فترة رئاسة نيكسون الثانية فإذا بفضيحة "ووترجيت" تحاصره وتهز عرشه وسمعته، فقد تم ضبط بعض أنصاره وهم "يتجسسون" بأجهزة تنصت على الحزب الديمقراطى المنافس لحزب نيكسون، وهو "الحزب الجمهورى" ومثل هذه الجريمة لا يقبلها الرأى العام الأمريكى، وقد قيل أيام هذه الفضيحة أن "نيكسون" قد أصبح فى نظر الشعب الأمريكى "أحقر رجل فى أمريكا" لأن الأمريكان ينظرون إلى جريمة

"التجسس السياسى" التى وقع فيها نيكسون وأنصاره على أنها أثم كبير لا يقبل الغفران. وبالطبع فإن أمريكا ليست بريئة أبدا من الارتكاب المتكرر لجرائم التجسس، ولكن جريمة نيكسون لم تكن فى ارتكاب الجريمة نفسها، وإنما كانت فى اكتشاف الجريمة وظهورها بوضوح كامل أمام الرأى العام. وهكذا عاش نيكسون فى أزمة عنيفة، زلزلت حياته كلها منذ انتخابه للمرة الثانية سنة ١٩٧٢ حتى اضطراره للاستقالة قبل انتهاء مدة رئاسته، وقد جاءت الاستقالة فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٧٤، حيث تولى الرئاسة بدلا منه نائبه "فورد".

وفى فترة الأزمة العنيفة التى وقع فيها أقوى رجل فى العالم فى عصره وهو نيكسون، تعرض لمواقف إنسانية كثيرة، يقدمها لنا فيلم "نيكسون" بالتفصيل، ومن بين هذه المواقف موقف أثار انتباهى كثيرا، ففى إحدى الليالى كان نيكسون يتناول العشاء مع زوجته فقط، وأخذت الزوجة تناقشه بلطف شديد فى بعض أخطائه، وتنتقد هذه الأخطاء، فإذا بالرئيس نيكسون يثور عليها ويقول لها ما معناه: "...... ألا أستطيع أن احصل على نصف ساعة أتناول فيها طعامى بسلام؟" .. ثم طرد زوجته من حجرة الطعام، لكى ينفرد بنفسه، ويتناول طعامه، كما كان يتمنى فى سلام.

كان القلق يطارده، والتوتر يسيطر عليه، ولم يكن يحتمل كلمة واحدة من أقرب الناس إليه. كان مهددا بالفضيحة التى تحاصره، وكان غارقا فى مستنقع الخطأ الذى ارتكبه وظن أنه يستطيع أن يتستر عليه، فانكشف للناس، وأصبح يهدد نيكسون بضياع جهوده الكبرى المتواصلة فى العمل السياسى، من أجل أن يكون واحدا من العظماء السياسيين التاريخيين فى أمريكا.

حصل نيكسون على كل شئ ولكنه لم يحصل على السلام نفسه.

تلك هى المشكلة، فالإنسان يستطيع أن يحصل على الكثير، ولكن السلام مع النفس عسير إلى أبعد الحدود. فالسلام مع النفس يحتاج إلى جهد كبير،

وعناء مستمر، وملاحظة دائمة للأخطاء والأخطار قبل أن تتحول إلى جرائم فادحة وتصبح مصائب لا راد لها. وهنا يسعفنا الفن الجميل بالتفسير، ويضئ لنا الطريق، فكل الذين فقدوا السلام مع أنفسهم كان ينقصهم شيئان مهمان هما: أولا الشعور بالخطر قبل وقوعه، وثانيا الصدق مع النفس، وعدم خداعها عندما تظهر الإشارات الأولى للخطر. والشعور بالخطر فى الوقت المناسب هو طوق النجاة للإنسان الذى يريد أن يقضى حياته فى سلام مع نفسه، ومع العالم من حوله، ويريد ألا يفقد فرصته فى النجاح، ويسعى إلى تحرير حياته من الندم والمرارة والبكاء على ما ضاع منه. وهذا الشعور المبكر بالخطر هو موضوع القصة البديعة التى كتبها فنان تركى عالمى رائع هو "عزيز نيسين"، وعنوان هذه القصة "آه منا .. نحن معشر الحمير" وقد ترجمها إلى العربية عن اللغة التركية، فى سلاسة ورقة وجمال، الكاتب السورى "جمال دورميس" وفى بداية القصة يقول الكاتب التركى المبدع الساخر عزيز نيسين: "كنا نحن معشر الحمير سابقا، نتحدث بلغة خاصة بنا، أسوة بكم معشر البشر، هذه اللغة كانت جميلة وغنية، وكان لها وقع موسيقى جذاب، كنا نتكلم.. ونغنى، لم نكن ننهق مثلما عليه الحال الآن، لأن النهيق بدأ عندنا فيما بعد، وأنتم تعلمون أن جميع حاجاتنا ورغباتنا، وحتى عواطفنا، نفصح عنها الآن بالنهيق. ولكن ما هو النهيق؟.. أنه عبارة عن مقطعين من مقاطع الأصوات: "هاق .. هاق" أحدهما غليظ والآخر رفيع، وهما يصدران منا الواحد بعد الآخر، هذا هو النهيق الذى بقى فى لغتنا.. اللغة الحمارية، لكن كيف تحولت هذه اللغة من لغة موسيقية، حتى أصبحت بهذا الشكل الذى يعتمد على النهيق؟.. ألا يهمك معرفة هذه الحكاية وكيف حدثت؟.. حسنا سوف أرويها لكم باختصار، فقد سيطر الخوف على ألسنتنا، وذهب بعقولنا، وبسبب الخوف.. أصبحت لغتنا هى لغة الحمير.. أى النهيق". فماذا يقول "الحمار" فى تفسير تحوله من موسيقار كما كان فى الأصل.. إلى حمار فقط كما هو الآن؟.

يقول الكاتب المبدع عزيز نيسين فى قصته: "فى غابر الأزمان كان هناك حمار عجوز يلهو وحده فى الغابة، يغنى بعض الأغانى بلغة الحمير، ويأكل بعض الأعشاب الغضة الطرية، وبعد فترة من اللهو استطاع أنفه أن يشم رائحة ذئب قادم من بعيد.. رفع الحمار رأسه وأخذ يعب الهواء، وقال لنفسه: "لا توجد رائحة ذئب.. لا.. لا.. ليست هذه رائحة ذئب".. وتابع الحمار لهوه، وأخذ يقفز من مكان إلى آخر، ولكن رائحة الذئب أخذت تزداد قوة كلما اقترب الذئب أكثر".

وأخذ الحمار يقول لنفسه: " قد لا يكون ذئبا قد لا يكون.. ولذلك حاول الحمار العجوز أن يطمئن نفسه، إلا أن رائحة الذئب كانت تزداد باستمرار، ولما أزداد اقتراب الذئب من الحمار كانت فرائص الحمار ترتعد رعبا، ومع ذلك كان يحاول إقناع نفسه بأن القادم ليس ذئبا، وكان يقول لنفسه: إنه ليس ذئبا، إن شاء الله كذلك.. ولماذا يكون ذئبا؟.. ومن أين سوف يأتى؟ وماذا سوف يفعل"؟! وهكذا ظل الحمار العجوز يخدع نفسه، حتى أصبح يسمع صوتا مزعجا هو صوت أقدام الذئب القادم ومع ذلك اخذ يقول لنفسه: "أتمنى ألا يكون ما أراه ذئبا.. إن شاء الله لن يكون كذلك".

ألم يجد هذا اللعين مكانا آخر غير هذا المكان؟ لقد أصاب الضعف عيونى، لذلك أخذت أرى هذا الشئ ذئبا قادما.. تقلصت المسافة بين الحمار العجوز وبين الذئب حتى أصبحت خمسين مترا ومع ذلك حاول الحمار أن يطمئن نفسه قائلا: إن شاء الله لن يكون ما أراه ليس ذئبا، قد يكون حملا أو فيلا أو أى شئ آخر، ولكن لماذا أرى كل شئ بهيئة الذئب؟.. أعرف تماما أن ما أراه ليس ذئبا، ولكن لماذا لا ابتعد قليلا؟.

أخذ الحمار العجوز يبتعد قليلا، ناظرا على الوراء، أما الذئب فقد اقترب منه فاغرا فمه، ومع ذلك أخذ الحمار يقول لنفسه: "حتى لو كان القادم ذئبا..

ولكن لماذا ترتعد فرائصى، وأخذ الحمار يركض بأقصى سرعة أمام الذئب المندفع".

وبهذه الطريقة السهلة الساخرة يصور لنا الأديب الفنان عزيز نيسين صورة للحمار العجوز الذى كان يقتل "الشعور بالخطر" فى داخله تحت ستار كثيف من الخداع المستمر لنفسه فيقول: "آه ، كم أنا أحمق، فقد ظننت القط ذئبا، وأركض هكذا كالمعتوه، لا .. ليس ذئبا" أو يقول: "... لا، لا يمكن أن يكون ذئبا" فهو ليس كذلك. إن شاء الله لن يكون كذلك". وظل يقول: ""... لا، لا يمكن أن يكون ذئبا. وظل الحمار يخدع نفسه حتى شعر بأنف الذئب يلامس ظهره المبلل، فوجده فاغرا فمه فوق ظهره. حاول الحمار الركض إلا أنه لا يستطع ذلك لأن قواه خانته، فقد عجز عن الحركة تحت ثقل الذئب، ولكى لا يرى الذئب اغمض عينيه وقال: أعرف تماما أنك لست ذئبا.. لا تدغدغ مؤخرتى فإنى لا أحب هذا النوع من "الهزار". وتوالت أحداث هذه القصة البسيطة، الساخرة البديعة حتى وصلت إلى نهايتها التى يحددها "عزيز نيسين" بهذه الصورة:

"... غرز الذئب الجائع أسنانه فى ظهر الحمار العجوز، ونهش منه قطعة كبيرة، ومن "حلاوة الروح" كما يقولون "أرتبط"لسان الحمار ونسى لغته..آه آه.. تابع الذئب النهش من لحم الحمار العجوز صاحب اللسان "المربوط" حيث لم يعد يصدر منه سوى: آه .. هو هاق، هاق.. منذ ذلك اليوم نسينا نحن الحمير أيها السادة، صوتنا الموسيقى القديم، ولم نستطع التعبير عن رغباتنا وأفكارنا إلا بالنهيق... ولو أن هذا الحمار لم يخدع نفسه، لكنا نجيد الحديث بلغتنا الآن، ولكن ماذا أقول؟.. آه منا نحن معشر الحمير .. هاق .. هاق.."!

تلك هى القصة البسيطة الفاتنة التى كتبها ذلك الكاتب التركى الساخر عزيز نيسين وترجمها الكاتب السورى جمال دورميس ترجمة جميلة عن اللغة التركية.

والقصة على بساطتها تكشف عن معنى إنسانى كبير، فكل إنسان بل كـائن حى فوق هذه الأرض، يملك ـ بالفطرة ـ قدرة على "الشعور بـالخطر" والأخطـار فى هذه الدنيا كثيرة بالنسبة للأفراد والشعوب، فالحياة من بدايتها إلى نهايتها هى معركة متصلة، ولا تتحقق النجاة لأحد إلا إذا قام بتنمية الشعور بـالخطر بداخله، وهو الشئ الذى لم يفعله نيكسون بعـد أن أستقر فـى البيـت الأبيـض الأمريكى، وحقق حلمه فى الرئاسة والسلطة، فكانت العواطف تهب عليه وهـو يظن أنه آمن، ولكن هذه العواطف اقتلعته وأفسدت عليه نجاحه وسعادته.

ولا تتحقق النجاة فى هذه الدنيا لأحد إلا إذا قام بتنمية الشعور بالخطر فـى داخله، وليس معنى ذلك أن يعيـش الإنسـان مذعـورا طـوال الوقـت، فالشعور بالخطر ـ على العكس ـ يحقق السلام للنفس، لأنه يغلق أبـواب العواطـف قبـل أن تهب علينا.. والذين لا يستفيدون مـن شعورهم بـالخطر فـى وقـت مناسـب ومبكر يتعرضون للازمات والمصائب فتجاهل الخطر منذ إشارته الأولى يـؤدى إلى اقتراب الخطر منا حتى ينشب اظفاره ومخالبه فينا، ويقضى على السلام الـذى نحلم به لأنفسنا ويقودنا إلى المحنة والعذاب.

إن الشعور بالخطر فى وقت مبكر، والتجاوب مع هـذا الشـعور فـى اللحظـة المناسبة، وعدم خداع النفـس، كـل ذلـك يجعـل مـن الحمـار، موسـيقارا، أمـا تجاهل هذا الشعور وتكرار هذا التجاهل فإنه يجعل من الحمار... حمارا فقط! !

هل تأملت فى حياتك نهرا؟!

شاعت فى الحياة الفنية والأدبية فى العصر الحديث مدارس عجيبة، تعود أصحابها على أن يقدموا للناس أعمالا شديدة الغموض والتعقيد، فيها الكثير من الشذوذ والخروج على المألوف، وقليل من هؤلاء أصحاب فن صادق، وهذه النسبة القليلة تحمل فى داخلها هموما حقيقية، وقد أحست بما فى العالم الحديث من اضطرابات قاسية، وحروب لا تعرف الرحمة، وتطورات غير عادية فى أساليب القتل والدمار.

ويكفى أن نذكر فى هذا المجال ما فعلته القنبلة الذرية التى ألقيت على مدينة "هيروشيما" اليابانية فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ فقتلت ما يقرب من مائة ألف إنسان ودمرت المدينة تدميرا كاملا، وبعد ذلك بثلاثة أيام، أى فى ٩ أغسطس ١٩٤٥ ألقيت قنبلة ذرية أخرى على مدينة يابانية ثانية هى مدينة نجازاكى.. فقتلت أربعين ألفا آخرين..

هذا العنف الشديد الذى أصبح الإنسان الحديث ضحية له، خلق فى بعض النفوس الصادقة الحساسة من أهل الفن شعورا بأن الإنسان فى هذا العصر قد فقد عقله وحكمته، وفقد فى نفس الوقت عاطفة الرحمة التى لا تستغنى عنها الحضارة الإنسانية السليمة. ومن هنا عبر هؤلاء الفنانون عما يشعرون به من اضطراب واكتئاب وعدم فهم لما يفعله الإنسان بنفسه وبإخوانه فى الإنسانية. ولكن المشكلة أن أمثال هؤلاء الفنانين الصادقين كانوا أقلية، ويمكننا أن نحس بأصالتهم عندما ننظر إلى فنهم إذا كان رسما أو نقرأه إذا كان كتابة، لأننا لابد أن نجد فى أعمالهم، مهما كانت غريبة وخارجة على المألوف شيئا يهز نفوسنا ويحرك فينا مشاعر الحزن والأسى على ما يتعرض له الإنسان الحديث من المخاطر الكثيرة التى تهدد أمنه وحياته وسعادته.

ولكن عالم الفن لم يكن خالصا لأصحاب العبقريات الصادقة فى تعبيرها عن محنة البشر، بل لقد امتلأ هذا العالم الفنى بالكثير من النصابين الذين يسعون إلى النجاح بأى ثمن، وقد تعود هؤلاء أن يستغلوا الظروف المختلفة، ويركبوا الموجات العالية، ويجروا وراء "الموضة" الفنية، وهدفهم الوحيد هو أن يلفتوا الأنظار ويجنوا الأرباح، ويتظاهروا بما ليس فيهم من عمق وأصالة، وهم فى الحقيقة مزيفون فى مشاعرهم وفيما يقدمونه للناس من أعمال.

ولكن الظاهرة المؤسفة أن مثل هذا الفن المزيف يجد له فى كثير من الأحيان جمهورا يتحمس له ويجرى وراء أصحابه ويلتف حولهم ويتهافت عليهم. وإذا كان هؤلاء الفنانون النصابون يتظاهرون بأنهم يعبرون بعمق عن مشاكل الإنسان، فإن بعض أفراد الجمهور يتظاهرون هم أيضا بأنهم يفهمون المعانى البعيدة لهذا الفن الذى لا معنى له ولا قيمة.

سوف نجد نماذج متعددة لهذه الفوضى الفنية فى كتاب "لعبة الفن الحديث" للدكتورة زينب عبد العزيز، حيث تقول إن بعض الفنانين قد أدخل على لوحاته مواد مثل القطران والرمل والزلط والتراب والجبس والأسمنت والرماد ونشارة الخشب أو بعض المواد السائلة أيا كانت أو الخشب المحروق والصفيح والحديد وما على شاكلة ذلك من مواد، وذلك تحت زعم خلق لوحات "عقلانية" اعتمادا على عناصر شائعة تعكس الواقع. ولم يكن للمزايدة على استخدام السخف أى حدود، حتى أن بعض الفنانين قد لجأ إلى أحط المواد شأنا لمجرد التعبير عما أطلقوا عليه مذهب "فن التصوير المضاد"، ومن هنا نشأ فن القمامة واستخدام النفايات والمواد المتعفنة والماكولات الصناعية، وقد تم تتويج هذا الابتذال المهين بتمثال مصنوع من البراز الآدمى المجفف تحت عنوان: "تكوين".

ثم تقول الدكتورة زينب عبد العزيز فى كتابها القيم: "إن قائمة المسميات تمتد بشكل مؤسف للمجالات المتعددة، فمن محاولة للرسم "بالمسطرين" إلى

تغطية الفنان لجسده العارى بالألوان، إلى أن يتدحرج الفنان على اللوحة الموضوعة على الأرض. كل ذلك تحت شعار "البحث عن الجديد" وما اكثر الأمثلة والنماذج التى لا حصر لها التى تستحق تعبيرا أكثر دقة لوصفها هو: "التهريج".

ويذكرنا ما كتبته الدكتورة زينب عبد العزيز بما رواه الفنان الكبير محمود مختار "١٨٩١ – ١٩٣٤" مبدع تمثال "نهضة مصر، وغيره من التماثيل الرائعة، وذلك عندما سافر إلى باريس ـ كما يقول: ـ " فى أواخر ١٩١١ مبعوثا من سمو الأمير يوسف كمال لدراسة الفنون الجميلة بعد إتمام دراستى بالقاهرة"، ثم يروى هذا الفنان الكبير قصته العجيبة عندما دخل "مدرسة الفنون الجميلة" فى باريس لأول مرة. ومن المؤسف أن باريس التى تكاد تكون أعظم عاصمة عالمية للفن الرفيع والثقافة العالية، هى نفسها العاصمة التى تمتلئ بالتقاليع والموضات، وتقوم بتصديرها إلى بقية أنحاء العالم فيجرى وراءها أصحاب المواهب الضعيفة والأذواق السطحية، ويسقط فى حبائلها هؤلاء الذين يتظاهرون بأنهم يعرفون آخر موضات الفن ويفهمونها ويتذوقونها وإنما يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس. ومن حسن الحظ أن الفنان "محمود مختار" رغم ما عاناه وجربه من هذه "التقاليع" الباريسية، فإنه حافظ على أصالته فاستفاد من الجانب النافع المضيء فى باريس وابتعد تماما عن كل الجوانب السطحية التى تقوم على "التهريج" و"الألاعيب" ولو كان محمود مختار فنانا محدود الموهبة لجذبته الأضواء الزائفة وأفسدت قدرته على الإبداع الفنى إفسادا كاملا، ولكن مصر كانت حسنة الحظ مع ابنها العبقرى مختار الذى جرب الألاعيب الفنية فى باريس وضحك منها وتسلى بها. ولكنه أبقى على شعلة الفن الأصيل فى نفسه دون أن يمسها. فوهب بلاده أعماله العظيمة وتماثيله الخالدة.

يحكى لنا مختار فى ذكرياته عن باريس بعض الغرائب التى تعرض لها فى "مدرسة الفنون الجميلة" فيقول" "كان من تقاليد المدرسة التى لا تستطيع

الإدارة معها حولا ولا قوة، أن الطلبة الجدد يعاملون بطريقة الجندية، أى أن طالب السنة الأولى يظل فيها خادما لطلبة السنة الثانية، وهكذا "يقع" الحكم على الطالب الجديد بأن يكنس "الورشة الفنية" ويعد المواد التى يشتغل بها زملاؤه القدماء. والطلبة الجدد يخدمون القدماء فى الداخل والخارج حتى أنهم ينقلون "عفشهم" إذا انتقلوا من بيت إلى بيت، فهم كالعريف فى الكتاب إذا أراد شيئا أرسل التلميذ يشتريه له، ونحو ذلك. وقد حدثت فى هذا الصدد حوادث غريبة بوهيمية حقا، ومن ذلك أن أحد الطلبة القدماء صعد إلى مسكنه بالطابق الثالث وأخذ يدخن غليونه، وأمر التلميذ الجديد بأن يفسح الطريق "لبصاقه"، فوقف هذا التلميذ الجديد فى الشارع وبيده عصا طويلة يصد بها الناس عن المرور فى دائرة "بصاق" الطالب القديم، والناس ينظرون ويعجبون، ويزدحمون ويضحكون، لأنهم يعرفون شذوذ طلبة الفنون".

ثم يقول مختار: "عندما وصلت إلى مدرسة الفنون لأول مرة نبهنى أستاذى إلى هذه الدعابات التى تقسوا أحيانا حتى يموت منها بعض الطلبة لإسرافهم فى المزاح، فقد وضعوا مرة تلميذا جديدا فى المجارى حتى اختنق. ووضعوا آخر فى برميل وتركوه يصرخ فيه على رصيف نهر "السين" حتى ساقته الشرطة إلى القسم، أما إذا غضب التلميذ الجديد فالويل له، وقد يؤدى الأمر إلى خروجه من المدرسة نهائيا".

هذه الصورة التى يرسمها مختار فى ذكرياته عن "مدرسة الفنون فى باريس" هى صورة طريفة، كان فيها بعض القسوة والمخاطرة بالأرواح. ولكن الصورة الطريفة هنا لها جانبها الآخر، وهو جانب غارق فى "التقاليع" التى يمكن أن تنتهى بإحداث "هزة" ضارة فى عقل الفنان ورؤيته للأشياء. ولا يمكن أن يفلت من هذه النتيجة إلا من كان فى قوة مختار وأصالته. فلننظر إلى ما تعرض له مختار من الشذوذ الذى يصيب بعض الأجواء الفنية فى باريس.

يقول مختار: "كان نصيبى كطالب جديد أن الطلبة القدماء فى مدرسة الفنون حكموا على بالتجرد من جميع ثيابى والبقاء عاريا تماما. ولم تكن تنفع مقاومة أو شفاعة، فرضخت من فورى كما رضخ زملاء لى من قبل، فشدوا وثاقى إلى كرسى وأنا عريان كما ولدتنى أمى.. ووضعوا على رأسى تاجا من الورق على شكل فرعونى وكتبوا عليه "رمسيس الثانى"، وحملونى على نقالة رفعوها على أكتافهم وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدمنا من يفسح لنا الطريق. وسرنا كذلك من المدرسة إلى عرض الطريق حتى وصلنا إلى آخر شارع بونابرت. وكان المطر يتساقط رذاذا فوصلنا إلى قهوة "بونابرت" والناس من حولنا ينظرون ويبتسمون وهم جميعا يعرفون عادات طلاب مدرسة الفنون الجميلة وتقاليدهم. وهناك وضعونى كما أنا على خوان "ترابيزة" وطلبوا طعاما وشرابا، وجعلوا يرموننى بالفضلات وقشر المحار، وكأنهم يقدمون على - طريقتهم - الزلفى والقرابين وتولى اثنان منهم اطعامى لأننى كما أسلفت القول كنت مقيدا وكان بيننا أيضا طالبات مشتركات فى هذا الاحتفال".

مثل هذه التجربة التى خاضها مختار كان من الممكن أن تؤدى إلى اضطرابه النفسى، وكان من الممكن أن تقوده إلى تصور خاطئ للفن، فيظن أن الفن هو أن "يصدم" الناس ويقدم إليهم من الأعمال ما هو شاذ وغريب وخارج عن المألوف، ولا شك أن البعض قد وقعوا فى هذا الفخ، فأصبحوا شخصيات شاذة وأصبح فنهم أكثر شذوذا من شخصياتهم، وابتعدوا تماما عن ذلك الفن الذى يثير فى النفس الإحساس بالجمال. ويحرك العواطف الصادقة فى القلب، ويضيف إلى العقل كل ما هو أعمق واكثر حكمة وأصالة، وبذلك يصبح الفن متعة وثروة إنسانية لا تقدر بأى ثمن.

كان من الممكن أن يضيع مختار فى هذه الدوامة العابثة، ولكنه كان شخصية قوية، وكان يؤمن بأن الفن قيمة إنسانية أصيلة، وكان بالإضافة إلى ذلك كله شديد الانتماء إلى وطنه مصر، عميق الشعور بأن هذا الوطن بحاجة إلى فن قوى

جميل يساعده على النهوض والتقدم والسعادة، وكانت مصر فى عصر مختار تئن من الاستعمار، وتشكو من الفقر الساحق والأمية التى تسيطر بظلامها على العقول والنفوس. وكان هذا كله يعيش فى قلب مختار، مما جعله أقوى من العبث الذى أرادت باريس أن تدفعه إليه، فنجا من الأفكار المشوشة والموضات والتقاليع، وأخذ من باريس أجمل ما فيها وأكثره عمقا ونورا. ومن هنا نجد أن مختار يعلق على تجربته التى تعرض لها وهو طالب جديد فى مدرسة الفنون بحكمة شديدة فيقول: "... هذا وغيره مما يشابهه ومما اشتركت فيه، قد خلق فى داخلى انطلاقا من قيود المحافظة وحبا فى الحرية وتكسير أغلال التكلف، فهو يعد من الانقلابات التى طرأت على نفسى وكان لها أثر فيها طول حياتى".

فالفنان مختار نظر إلى تجربته بمنظار جدى وإيجابى واستفاد منها معانى جميلة وكريمة، ولم يسمح لهذه التجربة بأن تجره إلى تيار من تيارات العبث واللهو والفن الشاذ.

فباريس إذن هى المسئولة عن الفن الجميل والفن الخالى من الجمال فى وقت واحد . هى التى تقوم بتصدير المدارس الفنية الأصيلة والمدارس الفنية العابثة معا. وهذا هو نفسه ما يقوله عنها أهلها من كبار الفنانين والمثقفين. فليس اتهام باريس "واردا" إليها من الخارج. والنموذج الحى على صدق اتهام باريس بمسئوليتها عن مدارس العبث والشذوذ الفنى الخالى من أى قيمة روحية أو إنسانية... هذا النموذج يتمثل فى قصة بديعة للكاتب الفرنسى الكبير "اندريه موروا "١٨٨٥-١٩٦٧"، وعنوان هذه القصة هو "الفن الجديد" وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ محمود عزت موسى. وهذه القصة بالإضافة إلى ما فيها من جمال فنى، هى كشف وفضح لمدارس العبث المختلفة والقصة لا تكتفى بفضح هذه المدارس بين الفنانين فقط ، بل تمتد بنقدها وسخريتها إلى أذواق النقاد والجمهور، ممن يسارعون إلى الالتفاف حول هذا الفن العبثى المعقد الغامض،

جريا وراء "الموضة" والألاعيب الفنية التى تقنع أصحاب العقول المحدودة بأنهم يفهمون مالا يفهمه غيرهم، ويعرفون من أسرار الفن مالا يعرفه الآخرون، والحقيقة المرة أنهم واهمون ومخدوعون.

وقصة "موروا" تدور حول حياة رسام سماه كاتب القصة باسم "دوش" وقد عاش هذا الرسام يرسم دون أن يلتفت إليه أحد ودون أن يحقق أى نجاح بين النقاد والجماهير حتى أصابه اليأس الشديد، وأخذ يتحدث مع شخصية أخرى فى القصة، هى شخصية صديقة الأديب الروائى "كليز" حيث يقول الرسام للاديب الصديق: "سأكون مفتشا فى شركة تأمين. أو كاتبا فى أحد المصارف، أو موظفا فى الشرطة ولن اتخذ الرسم مهنة لى إلا إذا ضاقت فى وجهى السبل. إن النجاح متوقف على رأى البلهاء، وهم يغدقون "الإعجاب والمال" على المتصنعين لا على الموهوبين، وبدلا من أن يحترمهم النقاد من الأساتذة، نراهم يشجعون الدخلاء والبرابرة. كفانى.. كفانى ما حدث لابد ان أتراجع عن العمل بالفن".

وأخذ "كليز" صديق الرسام - وكان ماكرا وصاحب حيلة وتجربة - يحاول تهدئة غضب صديقه اليائس، ويحاول أن يفتح له طريقا يحقق به النجاح، وينتصر من خلاله على إهمال الجمهور والنقاد، فقال للرسام: "كن ثابتا يا صديقى. إن الوسيلة التى تجتذب إليك الأنظار هى أن تصنع شيئا عظيما، كأن تذيع وتعلن عن عزمك السفر إلى القطب الشمالى، أو تطوف الشوارع بثياب ملك، أو تؤسس مدرسة فنية جديدة. أسس مدرسة.. وابتكر أشياء غريبة. أنكر وجود الحركة أو السكون، والأبيض أو الأسود، الدائرة او المربع.. اخترع نوعا جديدا من الرسم، لا يدخله من الألوان غير الأحمر والأصفر، أو فإبتدع الرسم الأسطوانى، أو الرسم المضلع، أو الرسم ذا الأبعاد الأربعة".

وكان الأديب بهذا الحديث يحرض صديقه الرسام على القيام "بخدعة فنية" تلفت الأنظار إليه، فقد كان الصديق الأديب يدرك أن جو باريس قد

تسمم بالأفكار الغريبة ، وأن الجمهور والنقاد لن يلتفتوا جميعا إلى الرسام طالما انه لا يصدمهم بشئ وطالما أن فنه يتسم بالجمال الواضح ، الذى يمكن للإنسان أن يتوصل إلى فهمه وتذوقه بسهولة ويسر. وهنا اقترح الأديب على الرسام اقتراحا محددا قال فيه : "هل تريد أن تلقن محبى الظهور والمدعين والفنانين الكاذبين دروسا قاسية يستحقونها؟.. أذن فأعلن أنك تعمل منذ عشرة أعوام لابتداع طريقة فنية جديدة. أنصت إلى ... سأنشر أنا مقالين بارعين أعلن فيهما عن تأسيسك للمدرسة المثالية التحليلية ، وسأذكر أن الرسامين الذين سبقوك كانوا من الجهل بحيث لم يدرسوا إلا الوجه الإنسانى ، أما أنت فقد أدركت ان حقيقة الإنسان لا تبدو إلا بالصور والخطوط التى تثيرها فى نفوسنا ، فصورة الضابط مثلا يجب أن تكون خليطا من الأزرق والذهبى ، تسطع فيه أشرطة خمسة كبيرة وينتصب فى إحدى الزوايا جواد أصيل ، كما تتراءى فى زاوية أخرى صلبان كثيرة ، أما صورة الرأسمالى فهى مدخنة مصنع وقبضة يد على منضدة فخمة.. هل تفهم أى مفاجأة تعدها للدنيا بهذه الطريقة؟ وهل تستطيع أن ترسم فى شهر واحد عشرين لوحة تكون نواة مدرسة جديدة هى المدرسة المثالية التحليلية؟".

واستمع الرسام إلى صديقه الاديب وهو يعلم أنه لا توجد فى الفن مدرسة أسمها "المثالية التحليلية" ثم أجاب عن سؤاله الأخير ، عن المدة التى يحتاجها لرسم عشرين لوحة من هذا النوع ، فقال: "أستطيع رسمها فى ساعة واحدة ، ويؤسفنى أن اعترف بأن رسوما من هذا النوع قد تحدث دويا عظيما وتصيب "النجاح المنشود". ولكن الرسام بعد أن قال ذلك تذكر شيئا مهما فقال لصديقه الأديب : "ولكن... تنقصنى البديهة الحاضرة وطلاقة اللسان حتى أستطيع بعد عرض مثل هذه اللوحات أن أجيب عن عشرات الأسئلة التى سوف يلاحقنى بها الهواة والمعجبون". فقال له صديقه الأديب : "ليس أسهل من ذلك ، كلما ألقى عليك أحد سؤالا أو طلب منك تفسيرا لإحدى الصور.. فتريث قبل أن

تجيب، وأنفخ فى وجه محدثك سحابة من دخان "غليونك" ثم فاجأه بهذه الكلمات البسيطة: هل تأملت فى حياتك نهرا؟

وقال الرسام:

"ما معنى هذا السؤال"

فأجابه الأديب:

"ليس له معنى، ولكنهم سيجدونه مع ذلك شائقا مثيرا، وسنروى قصة هذه المغامرة حتى يتحقق لك النصر، فنقهر النقاد، ونهزأ بالهواة والمدعين".

ثم يقول "موروا" كاتب القصة:

"كان لافتتاح معرض الرسام بعد شهر من هذه الحادثة ضجة كبيرة فى الأوساط الفنية، وكانت حسناء من بولندا تطوف بأنحاء المعرض مختالة، ولا تكاد تفارق الرجل العظيم الذى انبثق مجده على حين فجأة ثم وقفت تردد بلهجتها الموسيقية: يا للحساسية والروعة التى تتجلى فى هذه اللوحات البارعة. إنها نموذج مبتكر من الفن جدير بأن يقتدى به سائر الفنانين.

فتريث الرسام برهة، ونفخ سحابة من الدخان، ثم فاجأها بقوله:

ـ هل تأملت فى حياتك نهرا؟

فبدت الدهشة على وجه الحسناء ومضت تتمتم بكلمات الغبطة والإعجاب. ووقف ناقد كبير يناقش جماعة من المتفرجين ثم قال فى إيمان وحماس:

ـ هذا إنتاج رائع.. هذا إنتاج رائع..

كنت أردد دائما أن الرسم المنقول على أساس نموذج معين لا قيمة له ولا يدل إلا على ضعف صاحبه ولكن بربك يا صديقى الفنان... من أين استوحيت هذه الطريقة؟".

سكت الرسام طويلا، ونفخ فى وجه محدثه سحابة من الدخان ثم قال:

هل تأملت فى حياتك نهرا؟

فصرخ الناقد الكبير معجبا:

رائع.. رائع.

وكان أحد تجار اللوحات الفنية يطوف فى جنبات المعرض فاقترب من الرسام وابتدره بقوله:

"إنك لعظيم يا صديقى، فلا تبدل طريقتك. فى وسعك أن تسير فى هذا السبيل مطمئنا على أن تخصنى بإنتاجك كله، وأنا أعدك بشراء خمسين لوحة فى كل عام" وأمام حديث هذا التاجر لم ينطق الرسام بكلمة واحدة، وتابع تنقله بين الزائرين المعجبين، معتصما بغموضه، متسلحا بدخانه".

وينهى "موروا" قصته بموقف طريف، فبعد ان خلا المرسم من الزائرين والمعجبين والمعجبات وتجار اللوحات، انفرد الاديب بصديقه الرسام وقال له:

"أرأيت يا عزيزى؟ ألا تعتقد بأننا حققنا النصر الذى كنا نريده؟ هل سمعت الناقد الكبير، والحسناء البولندية، والفتيات الثلاث اللاتى لم ينقطعن عن إبداء إعجابهن، وأخذن يرددن: يا للطرافة.. يا للروعة"... آه يا صديقى .. كنت دائما اؤمن بحماقة البشر، ولكن حادث اليوم ضاعف إيمانى بذلك.

واستغرق الأديب فى الضحك ولكن صديقه الرسام قطب جبينه وصاح فى وجه صديقه:

يا لك من سخيف ساذج..

فقال الأديب:

أتصفنى بالسخف وقد وفقت فى عملك بالحيلة البارعة التى أقترحها عليك وهزأت بكبار النقاد والفنانين؟!

وألقى الرسام على اللوحات العشرين "نواة المدرسة المثالية التحليلية" نظرة مليئة بالزهو، وقال بصوت واثق:

اجل يا صديقى إنك سخيف وأبله لأنك لا تنتبه إلى جمال هذه اللوحات، ولا تقدر طريقتى الفنية الرائعة" فحملق الأديب فى وجه صاحبه، وأخذ يصيح فى إنكار وغضب ودهشة:

أتسمى هذا الهذيان جمالا؟ وهل تجرؤ على أن تدعوه طريقة فنية جديدة؟... ومن أين استوحيت هذه الطريقة الجديدة؟" صمت الرسام بضع لحظات... ونفخ فى وجه صديقه الأديب سحابة من الدخان، وقال كالحالم:

هل تأملت فى حياتك نهرا؟!

وبهذا الموقف الساخر تنتهى قصة موروا الجميلة، وقد اعتمدت فى تلخيصها وفى النصوص المستمدة منها على الترجمة العربية للأستاذ محمود عزت موسى.

ونخرج من هذه القصة بأن موروا، وهو أديب فرنسى كبير، إنما يسخر سخرية حادة من أجواء العبث والفوضى الفنية، وهى الأجواء التى غرق فيها كثير من الفنانين والنقاد وتجار الفن، وهى نفسها الأجواء التى غرق فيها الجمهور أيضا خاصة النساء، فقد كانت الحسناء البولندية صديقة للرسام وكان معجبا بها، وقد شاهدت أعماله الأولى التى رسمها باقتناع وإحساس فنى صادق فلم تقتنع بها ولم تتحمس لها، وعندما استجاب الرسام للحيلة الماكرة التى أقترحها عليه صديقه الأديب، ورسم عددا من اللوحات العبثية فى أيام قليلة، دون أن يتكلف فيها أى جهد حقيقى، تحولت الحسناء البولندية إلى معجبة ومفتونة بهذه اللوحات الجديدة، وشاركها فى هذا الإعجاب كثير من أفراد الجمهور الذين احتشدوا فى معرض الرسام، وكان الكل يندهشون أشد الدهشة عندما يلتفون حول الرسام ويسألونه عن تفسير لوحة من لوحاته، فيلقى عليهم بهذا السؤال الذى لا معنى له وهو: هل تأملت فى حياتك نهرا؟.. فالسؤال الذى لا معنى له وهو: هل تأملت فى حياتك نهرا؟.. فالسؤال فى حقيقته لا يهدف إلى شئ، ولا يعبر عن شئ ولكن الجمهور المفتون بلوحات الرسام العبثية

كان يتصور أن وراء السؤال عمقا كبيرا وأن هذا السؤال التافه نفسه لا يقل اهمية وقيمة عن سائر اللوحات الأخرى التى خلقت نوعا من لوثة الإعجاب عند جمهور المشاهدين.

على أن أطرف المواقف فى قصة موروا هو ذلك الموقف الأخير، والذى يدل على أن الرسام الذى خدع الآخرين بلوحاته العبثية، استجابة لنصيحة صديقه الاديب.. هذا الرسام الذى خدع الناس قد انخدع هو نفسه بما فعل، وتسرب إليه إحساس بأن لوحاته السخيفة إنما هى لوحات رائعة الجمال، والدليل على ذلك أن الآخرين قد أعجبوا بهذه اللوحات وتحمسوا لها. وهكذا فإن الذين يخدعون الناس سرعان ما يتحولون إلى خداع أنفسهم.

إن الفن الحقيقى الأصيل لا يحتاج إلى الكذب والخداع، ولا يمكن للفنان الصادق أن يحتال من أجل إرضاء الناس. وقد انتشر هذا اللون من الاحتيال عند فنانين كثيرين لا يملكون الموهبة الحقيقية ولا يطيقون صبرا عليها، والموهبة تحتاج إلى الصبر الجميل، وقد يتأخر نجاح الفنان أو يتعطل، ولكن يراه صوابا. والذين يزيفون الفن قد يحققون نجاحا مؤقتا، وقد يكسبون مالا، وقد يخدعون الناس ويخدعون أنفسهم، ولكنهم فى آخر الأمر لا يمكن أن يحققوا شيئا له أهمية أو قيمة، بل لابد أن يخسروا فى الجولة الأخيرة وأن تذهب أعمالهم إلى عالم النسيان والإهمال واكتشاف ما فيها من خداع وكذب.

الحائر النبيل

هل أذهب إلى البلاد التى فيها مال وليس فيــها حريــة أم أذهــب إلى البـلاد التى فيها حرية وليس فيها مال؟.

هذا هو السؤال الكبير الذى يدور فى ذهن كل بـاحث ومفكـر وعـالم وأديـب وفنان، فالمعادلة الصحيحة المنتجة فى مجال الفكر والعلـم والفـن، هـى معادلـة تقوم على وجود عنصرين لا غنى عنهما وهما: الحرية والمال.. الحريـة وحدهـا لا تحقق شيئا، لأن الحرية تفقد أثرها وثمارها إذا كانت هناك أزمـة اقتصاديـة تحيط بالمفكرين وتستهلك جهودهم فى مقاومة الجوع، وتقضى عليهم باستخدام وقتهم المتاح لهم فى أعمال ثانوية بحثا عن الرزق، إلا أن المال وحده لا يجـدى ولا يفيد، إذا كان العقل محروما من التفكير الحر الجرىء، وإذا كـان كـل رأى جديد هو جريمة تستحق العقاب.

الحرية والمال معا!

تلـك هـى المعادلـة الصحيحـة للإبـداع والاخـتراع والتقدم والنهضـة، وهـى المعادلة التى تتيح للإنسانية أن تستفيد من النابغين والعبـاقرة، فيسـتطيعون أن يضيفـوا إلى الحيـاة شـيئا جميـلا وجديـدا، يجعـل المجتمـع أفضـل، ويجعـل الإنسان أقوى وأقدر، ويحقق له النصر فى معاركه الدائمة.

وهذا السؤال الحائر عن الاختيار الصعب بين البلاد التى فيها حريـة وليـس فيها مال، والبلاد التى فيها مال وليس فيها حرية، هو السؤال الذى أقلق أحد كبار عباقرة العالم فى كل العصور، وأحد العقول الجبارة التى قلبت الدنيا رأسا على عقب، وهو العالم الإيطالى العظيم جاليليو "١٥٦٣ – ١٦٤٢" الذى استطاع ان يثبت للناس حقائق كانت "مفزعة" فى عصره وأصبحت الآن ـ بعد ما يقرب من أربعمائة سنة ـ من البديهيات التى يعرفها تلاميذ المدارس الابتدائية، ومـن هذه الحقائق أن الأرض ليســت مركـز العـالم، وأن الأرض تـدور حـول الشـمس

وليس العكس، وأن القمر مثل الشمس لا يستمد النور من نفسه، وإنما يستمده من الشمس. وقد فتحت هذه الحقائق الكبرى التى اكتشفها "جاليليو" وبرهن عليها أبوابا غير محدودة لاكتشافات أخرى، نهضت بالحضارة الإنسانية، وفتحت أمامها آفاقا غير محدودة للتقدم.

كان "جاليليو" فى عصره بحاجة إلى الحرية ليفكر وينطلق دون قيود، وكان بحاجة إلى المال للبحث والاكتشاف وتقديم البراهين الدقيقة على ما يقول، وقد وجد الحرية فى إمارة "البندقية" ولكنه لم يجد المال، ووجد المال فى إمارة "فلورنسا" ولكنه لم يجد الحرية، ويسبب هذا التناقض والصراع بين "جمهورية الحرية" و "جمهورية المال" عانى جاليليو الكثير وتعذب وتعرض للعقاب والاهانات، واضطر لتنازلات كثيرة لم يكن يرضاها لنفسه لو كان حرا ومستقلا اقتصاديا فى وقت واحد.

وقد أتيح لشخصية جاليليو الجبارة، فنان عبقرى آخر ليكتب عنها ويقدم إلينا حولها مسرحية بديعة ورفيعة المستوى، هى من اجمل وأرقى ما عرفه أدب العالم فى القرن العشرين.

هذه المسرحية هى مسرحية "جاليليو"، أما الكاتب فهو الفنان الألمانى العالمى "برتولت بريخت" "١٨٩٨ – ١٩٥٦" والمسرحية هزت الدنيا وأطربته، ولكن أحداً لم يفكر فى تقديمها فوق خشبة مسرحنا العربى، وهذا تقصير شديد.

ويكفى أن أقول ان هذه المسرحية الفاتنة قد قدمتها لندن على مسارحها، وهى تقدمها بين الحين والآخر. ولعل هذه المسرحية هى المسرحية الوحيدة التى أغرت أحد النقاد الإنجليز وهو "جيم هيلى" بإصدار كتاب عن "القصة الكاملة لتقديم المسرح القومى البريطانى لهذه المسرحية"، وفى هذا الكتاب دراسة تفصيلية عن إخراج المسرحية، وعن الممثلين، وعدد ليالى العرض الأولى،

والديكور، والجمهور، والتكاليف التى أنفقت على العرض، والعائد المادى لهذا العرض.

وكان هذا الكتاب تسجيلا بديعا للآثار التى تركها عرض مسرحية "جاليليو" على الجمهور الإنجليزى، وما تركته المسرحية فى النفوس من المعانى الإنسانية الرائعة.

وللمسرحية أكثر من ترجمة عربية، ومنها ترجمة بديعة عن الألمانية قام بها الأستاذ مصطفى برانية، وراجعها أحد كبار المترجمين المعاصرين وهو الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى.

ولنتوقف بعد هذا كله أمام جاليليو أو الحائر النبيل كما صوره لنا بريخت فى مسرحيته الرائعة.

كان جاليليو يعيش فى جمهورية "البندقية" وهى إحدى الولايات الإيطالية، عندما كانت إيطاليا ممزقة إلى أقطار صغيرة مثلما هو الحال الآن فى العالم العربى ـ وكان جاليليو يعمل مدرسا لعلوم الرياضة، وكان يضيق بهذا العمل أشد الضيق، لأنه يريد أن ينتزع لأبحاثه واكتشافاته، وهذا العمل المحدود يبتلع وقته وجهده ولا يتيح له الفرصة الكافية للتفرغ لأفكاره وعلمه، وليس لهذا العمل عائد مادى يساعد على سد تكاليف الحياة الواقعية.

كان جاليليو يعيش فى البندقية فى ظروف مادية صعبة، ويجرى بينه وبين "امين الجامعة" التى يعمل بها حوار بالغ القوة والطرافة حول هذه القضية".

يقول أمين الجامعة لجاليليو:

"جئت إليك بخصوص الالتماس الذى قدمته لزيادة راتبك إلى الضعف، يؤسفنى أننى لا أستطيع أن أزكى هذا المطلب. أنت تعرف أن محاضرات الرياضة لا تجذب إلى الجامعة جمهورا. ذلك لأن الرياضة ـ إذا سمحت لى ـ هى علم لا يوفر لصاحبه القوت الضرورى. أنها ليست مهمة مثل الفلسفة

وليست نافعة مثل علوم الدين واللاهوت، ولكن الذى لا شك فيه أن الرياضة علم يحقق للعارفين به متعة لا نهائية".

ويرد جاليليو على أمين الجامعة قائلا:

ولكننى يا سيدى لا أستطيع أن أعيش بالمرتب الضعيف الذى أحصل عليه من الجامعة. إن مهمتى هى أن أجعل الناس تفهم الحقائق الجديدة، ومن أجل هذا فأنا أعمل باستمرار وأشترى الكتب الغالية، ولا يبقى عندى ما يمكننى ان أدفع لبائع اللبن حسابه".

فيرد عليه أمين الجامعة:

"ولكنك يا سيد جاليليو تلقى محاضرتين فى الأسبوع، وسمعتك الممتازة تجلب إليك بكل تأكيد العدد الذى تريده من التلاميذ الذين يستطيعون أن يدفعوا لك أجر الدروس الخصوصية.. أليس عندك تلاميذ خصوصيون؟"

وهنا يرد عليه جاليليو فى ألم شديد:

"أن عندى الكثيرين من هؤلاء التلاميذ الخصوصين.. أننى أعلمهم وأعلمهم، فمتى أستطيع أنا أن أتعلم؟.. أننى غبى لا أفهم الأشياء بصورة دقيقة، لذلك فأنا محتاج إلى أن أسد النقص فى ثقافتى ومعرفتى، فمتى أفعل ذلك؟ ومتى أقوم بأبحاثى وأنا مضطر ان أقضى وقتى فى الدروس الخصوصية لكى أصب فى "مخ" كل من يستطيع أن يدفع لى معلومات مثل: أن المتوازيين لا يلتقيان أبدا.. متى أتعلم أنا؟ متى أقرأ؟ متى أبحث؟!".

ويرد أمين الجامعة على جاليليو قائلا:

"لا تنس أنه ربما لا تدفع لك جمهورية البندقية كثيرا مثل بعض الأمراء فى الجمهوريات الأخرى، ولكن جمهوريتنا مع ذلك تضمن حرية البحث. نحن هنا لم نمتنع فقط عن تسليم السيد "كريمونينى" لمحكمة التفتيش عندما أثبتوا لنا انه يتفوه بأشياء ضد الدين، بل منحناه أكثر من ذلك علاوة... فالناس فى

كل مكان يعلمون أن البندقية هى الجمهورية التى ليس لمحكمة التفتيش سلطان عليها. وتلك ميزة بالنسبة لك، لأنك تشتغل بعلوم لا ترضى عنها الكنيسة، ولا يمكنها أن تقبل شيئا من أفكارك ونتائج أبحاثك، وهو ما نقبله نحن هنا ولا نعارضك فيه".

وهنا يرد جاليليو فى سخط:

"أن حمايتكم لحرية الفكر صفقة طيبة جدا، فأنتم تشيرون دائما إلى سيطرة رجال الدين فى البلاد الأخرى وحرقهم لكل من يعارضهم، لذلك أصبح لديكم هيئة تدريس ممتازة بأجر بخس. أنتم تدفعون أسوأ المرتبات. وبذلك فانتم تربحون كثيرا من حمايتكم للعلماء والمفكرين".

ويرد أمين الجامعة:

"لا .. لا .. هذا ظلم .. ماذا يفيدك أن يكون لديك بسبب المرتبات العالية ما تحتاج إليه من وقت للبحث والتفكير، إذا كان فى استطاعة أى راهب جاهل من محكمة التفتيش متى شاء أن يعلن ببساطة تحريم آرائك.. يا سيدى، لا يوجد ورد بدون شوك، ولا أمراء أثرياء دون.. رهبان جهلاء"!

وفى سرعة شديدة يرد الحائر النبيل جاليليو:

"وما الذى تفيده حرية البحث إذا لم يكن عندى وقت للبحث؟!"

وهنا يقول أمين الجامعة فى أسف:

"إن العلم الذى أنت مشغول به يا سيدى، وهو الفلك والرياضيات، هو سبب سوء حظك. فالناس قد يصفقون للنتائج التى نتوصل إليها فى باريس وغيرها من المدن. ولكن هؤلاء الذين يصفقون لك هناك لا يدفعون على الإطلاق شيئا للجامعة التى تعمل بها أو لك شخصيا من أجل العلوم التى أنت مشغول بها".

هذه محنة جاليليو، ذلك الحائر النبيل، وهو العبقرى الذى غير الدنيا بأفكاره وأبحاثه.

أنه فى البلاد التى فيها حرية، لا يجد المال، أى لا يجد الوقت الذى يسمح له بالتفرغ للبحث والدراسة، لأنه مشغول بالدروس الخصوصية التى توفر له الحد الادنى الذى يحتاج إليه لكى يأكل، ولكى يشترى الكتب الغالية، أما إذا ذهب إلى البلاد التى ليس فيها حرية وفيها مال، فهو مهدد برفض آرائه وأفكاره ووضعه موضع الاتهام والحكم عليه بأشد العقوبات قسوة فى عصره وهى: الإعدام حرقا حتى الموت.

ويواصل الحائر النبيل شكواه إلى صديق له فيقول:

" إن ابنتى الوحيدة ليست ذكية، وهى تعتمد على معونتى المستمرة. وهى بحاجة الآن إلى جهاز العرس، ثم أنى أحب شراء الكتب، فى كل فروع المعرفة، وليس فى الفروع التى تخصنى وحدى، وأنا أحب الطعام الجيد، وأغلب الأفكار لا تأتينى إلا مع الأكل الجيد.. أنه عصر فاسد.. وهم لا يعطوننى من الأجر مثلما يعطون "حوذيا" ينقل لهم براميل النبيذ، وأنا أعانى من الديون، وبعضها متراكم منذ عشرين سنة. لو استطعت فقط أن أتفرغ خمس سنين متواصلة دون منغصات مادية، لاستطعت أن أبرهن على صحة كل شئ اكتشفته أو آمنت به".

على أن هذا "المأزق" الذى عاش فيه جاليليو بسبب الصراع بين حاجته إلى المال وحاجته إلى الحرية، لم يمنع هذا الحائر النبيل أبدا من أن يقول لصديقه "ساجريدو": "أنى أؤمن بالإنسان، وهذا يعنى أننى أؤمن بعقله، وبدون هذا الإيمان ما كنت أستطيع أن اجد القوة لكى انهض من فراشى فى الصباح". ويرد عليه صديقه قائلا: "أنا على العكس منك.. لا أؤمن بالإنسان.. أربعون عاما بين الناس علمتنى أنه لم تتوافر لهم أى حكمة، وأنه كلما تعاملت معهم بالصرامة والشدة كلما خافوا وهرعوا من منازلهم حتى تنكسر سيقانهم. لكن قل

لهم جملة معقولة، وقدم لهم سبعة براهين عليها، فأنهم يضحكون منك.. فى بساطة".

ويرد جاليليو العظيم أو الحائر النبيل قائلا:

"أنا لا أتحدث عن مكر الناس، فأنا أعرف انهم يسمون الحمار فرسا إذا أرادوا بيعه ويسمون الفرس حمارا إذا أرادوا شراءه.. هذا هو مكرهم. لكن آمالى تتجه وجهة أخرى، إلى المرأة العجوز التى تضع أمام "البغل" ليلة السفر حزمة إضافية من "الدريس" لأنها تعلم انه سوف يكون بحاجة إلى مزيد من القوة ليواصل السفر، وإلى الملاح الذى يتذكر عند شراء المؤن أن سفينته يمكن ان تتعرض للزوابع والرياح، فيحتاط لذلك، وإلى الطفل الذى يضع غطاء على رأسه إذا برهنت له أن السماء قد تمطر، هؤلاء جميعا هم أملى. وهم جميعا يقبلون الحجج والبراهين، نعم.. أنا أؤمن بسلطة العقل الرقيقة على الناس.، أنهم لا يستطيعون معارضتها دائما. الإغراء الذى يصدر عن البرهان القوى هو أعظم من أن يتعرض للمقاومة؛ فمعظم الناس يخضعون لمثل هذا البرهان، والجميع يسلمون مع الأيام، أن التفكير من أعظم تسليات الجنس البشرى".

لقد كان جاليليو مؤمنا بالعقل الإنسانى.. وكانت مشكلته الرئيسية فى السؤال الحائر حول الحياة فى بلاد الحرية، أو الحياة فى بلاد المال.. وهو سؤال بالغ الصعوبة، لأن الإنسانية لا تريد أن تجمع - فى معظم الأحوال - فى مكان واحد بين الحرية والمال. وقد عاش جاليليو فى هذه المحنة النبيلة ودفع ثمنا غاليا لذلك، وقد تحدثنا عن ذلك فى الفصل الثانى من هذا الكاتب تحت عنوان "الاعتذار".

عمامة لها تاريخ

هذا شيخ من شيوخ الأزهر فى القرن العشرين ولكن من يقرأ قصة حياته لا يملك ألا أن يقول: سبحان الله.. هذا ملاك فى صورة إنسان. فقد كان واحدا من العلماء وأصحاب العمائم الذين تحولوا إلى مثل أعلى فى النبل والكرامة وسماحة النفس، وقد جعل حب مصر وأهلها "فنا" من أندر الفنون وأكثرها جمالا وفتنة، فقد كان هذا "الشيخ المعمم" يشعر بالطرب والنشوة إذا قدم خدمة إلى مواطن من أهل بلده، خاصة إذا كان هذا المواطن ضعيفا وقليل الحيلة،ولم يكن "يمن" على أحد بخدمته له، بل كان على العكس من ذلك يحس أن الذين يخدمهم ويقضى حوائجهم هم أصحاب الفضل عليه، لأنهم يقدمون إليه فرصة نادرة للتعبير عن حبه لوطنه، وحبه لأهله وحرصه عليهم.

قال عنه "راغب باشا" الذى كان يشغل منصب الوالى التركى على مصر":

"إن هذا الشيخ.. سقف على أرض مصر".

ولم أقرأ فى حياتى عبارة دقيقة وجميلة مثل هذه العبارة، ففيها وصف صادق لما يجب أن يكون عليه كل "مسئول" عن الناس، والأجمل من ذلك أن "الشيخ" الذى قيل عنه هذا الوصف كان بالفعل كذلك، فقد كان "سقفا على أهل مصر" يحميهم - بقدر ما يستطيع - من الهموم والمشاكل، ولا يدخر أى جهد فى سبيل رفع الظلم عنهم، والوقوف فى وجه الظالمين لهم، والمعتدين عليهم، والذين يأكلون حقوقهم، والناظرين إليهم نظرة تخلو من أى معنى من معانى الإنسانية الصحيحة.

وقصة هذه "العمامة" أو هذا الشيخ من شيوخ الأزهر يرويها لنا "الجبرتى" فى كتابه العظيم "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار".

وكلمة "التراجم" فى هذا العنوان هى جمع "ترجمة" والترجمة لها معنى شائع ومعروف هو نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى. ولكن هذه الكلمة لها معنى آخر فى الثقافة العربية. "فترجمة" حياة شخص من الأشخاص هى كتابة

قصة حياته وسيرة هذه الحياة، وكلمة "الترجمة" يتم استخدامها بهذا المعنى كثيرا فى كتب التاريخ العربى ومنها كتاب "الجبرتى" العظيم.

فمن هو هذا الشيخ صاحب العمامة، والذى حدثنا "الجبرتى" انه كان يقال عنه انه "سقف على أهل مصر"؟!

إنه الشيخ "محمد الحفنى" او "الحفناوى" وهو من مواليد بلدة "حفنا" فى الشرقية. ومن هنا جاء اسمه كما كان اسم "الطهطاوى" مستمدا من اسم "طهطا" واسم "المنفلوطى" مستمدا من اسم "منفلوط". وقد ولد هذا الشيخ سنة ١٦٨٨ وعاش حوالى ثمانين سنة، حيث توفى سنة ١٧٦٧. ويقال إنه مات مسموما، لأن امراء المماليك الذين كانوا يحكمون مصر فى ذلك الوقت، وانتظروا موته، ولما طالت حياته بسبب استقامته وقوة جسمه، وسلامة نفسه، لم يجدوا أمامهم إلا أن يحتالوا لتقديم السم إليه، ولم يجدوا كما يقول "الجبرتى" فى ذلك "مانعا ولا رادعا".

ثم يقول "الجبرتى" إنه "بعد وفاة الشيخ الحفنى، ابتدأ نزول البلاء، واختلال أحوال مصر، لأنه لم يوجد بعده من يصدع بالحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويقيم الهدى".

ونعود إلى تفاصيل حياة "الشيخ الحفنى"، فنجد أنه حفظ القرآن الكريم فى بلدته بالشرقية، ثم جاء إلى القاهرة، فأخذ العلم على يد كبار العلماء فى عصره، ثم جلس للتدريس فى الأزهر، ولأنه كان عالما مجتهدا، وكان صاحب شخصية قوية مؤثرة، فقد اجتمع حوله طلاب كثيرون، أحبوه وتعلقوا به، ولكن الشيخ كان فقيرا، فعمل بنسخ الكتب، وذلك كما يقول الأستاذ محمود الشرقاوى فى كتابه المهم "دراسات فى تاريخ الجبرتى": "فقد اشترى الشيخ الحفنى دواة وأقلاما وأوراقا، واشتغل بنسخ الكتب، فشق عليه ذلك، لأنه صرفه عن العلم والإفادة، وكان ذلك قبل ظهور الطباعة فى مصر، حيث كان نسخ الكتب مهنة يرتزق منها الناس".

وهنا تظهر قوة التشجيع للفكر فتعمل عملها، وتؤدى رسالتها، فقد شعر

رجل غنى كريم من أثرياء مصر بمحنة الشيخ "الحفنى" الذى يضطر إلى العمل بنسخ الكتب مما يعطله عن الانصراف إلى العلم والتفرغ له، وهذا الرجل الثرى الكريم لا يعرف احد اسمه إلى الآن، رغم مضى اكثر من مائتى سنة على موقفه الرائع، فقد ذهب هذا الثرى الكريم إلى الشيخ الحفنى، وبينما الشيخ قد فرغ من درسه وهم بأن يغادر مكانه، ناداه رجل وطلب منه أن يختلى به، ثم جلسا، فأخرج الرجل "منديلا" مليئا بالدراهم وقدمه للشيخ وقال له: يا سيدى إن "فلانا" يسلم عليك، وقد بعث لك معى بهذه الدراهم، ويريد أن يحظى بقبولها منك، فأخذها الشيخ منه وفتحها وملأ كفه من الدراهم، يريد أن يعطيها لهذا الرسول، مكافأة له، فأمتنع الرسول عن أخذ شئ منها، وحلف ألا يأخذ شيئا.. وذهب الشيخ الحفنى إلى بيته فكسر الأقلام والدواة، وتفرغ للعلم وإلقاء الدروس، وامتنع عن العمل الذى كان يرهقه ويعطله عن أداء رسالته العلمية وهو "نسخ الكتب".

هذه هى القصة، أو خلاصتها كما جاءت فى كتاب الجبرتى، ومعنى هذه القصة، أن هناك رجلا ثريا كريما، وجد عالما عظيما يقوم بعمل يعطله عن علمه وأداء رسالته، وهو نسخ الكتب، بسبب فقره، فقدم إليه "مالا" يتيح له التفرغ للعلم، ولم يرغب فى أن يقول إن هذا المال منه، ولم يذكر اسمه، حتى أننا لا نعرف هذا الاسم بعد مرور مائتى سنة على وقوع هذه القصة، بل قال للشيخ انه "رسول" من رجل آخر، والحقيقة أن الذى قدم "المال" للشيخ هو صاحب المال نفسه، ولكنه أحب أن يكون "عونا خفيا" للشيخ، حتى لا يشعر الشيخ انه مدين لأحد.

وهذه القصة تذكرنى بقصة أخرى حديثة وقعت فى أوائل هذا القرن، حيث قدم المليونير الأمريكى "روكفلر" مليون دولار إلى العالم الألمانى النابغ "اينشتين" لينفق منها على أبحاثه ودراسته، وكان "اينشتين" فى ذلك الوقت شابا حديث السن، ولكن نبوغه كان معروفا للجميع، وكان الذى ينقص اينشتين هو المال، فقدمه إليه المليونير الأمريكى فى رضا وسماحة واقتناع بأن أمواله التى دفعها

للعالم النابغ سوف تعود على الإنسانية بالنفع العظيم، وهو ما حدث بالفعل حيث استطاع اينشتين أن يقدم للحضارة العالمية نتائج أبحاثه ونظرياته العظيمة بعد أن تفرغ لعمله العلمى بفضل المعونة المبكرة والثمينة للمليونير الأمريكى. وهناك فرق واحد بين القصتين، فالثرى المصرى الذى قدم معونته إلى الشيخ الحفنى لكى يساعده على التفرغ لعمله، لم يذكر اسمه، وانما أعتبر عمله خالصا لوجه الله والعلم، أما روكفلر فقدم معونته لأينشتين علانية، وذكر أنه دفع مليون دولار للعالم الألمانى الشاب، والحقيقة إن الموقفين يستحقان التقدير والإعجاب، وإن كان الموقف الأول أكثر تأثيرا فى النفس، وأكثر قوة فى التعبير عن محبة الخير الخالصة والرغبة العميقة فى خدمة العلم والمعرفة الإنسانية.

أما الشيخ الحفنى فلم يتفرغ للعلم وحده، وإنما تفرغ لشىء آخر هو العلم فى أرقى صوره، فقد كان يشعر بمسئولية "العالم" عن أهل بلده، فكان يستغل مكانته بعد أن أصبح شيخا للأزهر، ليقضى حوائج الناس، ويرفع الظلم عنهم، وكان يذهب إلى الحكام والمسئولين فى القاهرة وفى كل الأقاليم ليدفع عن الأفراد والجماعات شر الأخطاء التى يقع فيها المسئولون فى أى مجال، حتى قال عنه الوالى التركى كلمته التى أشرت إليها فى البداية وهى: "ان الشيخ الحفنى سقف على أهل مصر، يمنع عنهم نزول البلاء". وقال عنه الجبرتى: "لم يكن يتم أمر من امور الدولة وغيرها إلا بإطلاعه وأذنه. وكان فى كل ذلك يقف إلى جانب الحق، ناصرا للشعب على حكامه منصفا للمظلوم من ظالمه، معينا للضعيف على الدوام". وعندما اختير الشيخ الحفنى عضوا فى ديوان الحكومة أيام الأتراك والمماليك كان مدافعا عن حقوق الناس، قويا فى معارضته للأمراء المماليك، وللولاة الأتراك، وفى مقاومة ما لا يعتقده خيرا ولا صوابا من التصرفات والقرارات والآراء".

ويقول الأستاذ محمود الشرقاوى فى كتابه "دراسات فى تاريخ الجبرتى": "كانت للشيخ الحفنى مهابة عظيمة، لا يستطيع كثير من جلسائه أن يتوجهوا إليه بسؤال لمهابته وجلالته، وكانت على إحدى عينيه نقطة، ومع ذلك فإن

اكثر الناس لم يدركوا ذلك لأنهم كانوا يغضون العيون عند النظر إلى وجهه، وكان كرمه فائق الحد ليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة، لو سأله إنسان أعز شئ عنده، أسرع فأعطاه له ويجد فى ذلك سرورا وانشراحا، له صدقات ظاهرة وخفية، وراتب بيته من الخبز فى كل يوم نحو أردب، وطاحون البيت دائم الطحن ليلا ونهارا، وكذلك "مدقات" البن والسكر، يجتمع على مائدته الخمسون والستون، وينفق على بيوت اتباعه والمنتسبين إليه، وكل من طلب شيئا من أمور الدنيا أو الآخرة، وجده عنده، وكان كريم الخلق، حليما، جميل الصفات، يصغى لكل متكلم، ولو تكلم فى "الخزعبلات" مظهرا له سروره ومحبته".

هذه بعض صفات الشيخ الحفنى الذى تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٧٥٧ حتى سنة ١٧٦٧ وهى سنة وفاته والتى يشك الجبرتى وغيره أنه مات فيها "مسموما" من الأمراء المماليك ولم يمت موتا طبيعيا. وهذه الصفات للشيخ الحفنى كانت كفيلة وحدها أن تجعل منه "عمامة لها تاريخ" ملئ بمعانى الرجولة والاستقامة وطاعة الله بخدمة الناس والعمل على سعادتهم. ولكن الشيخ الحفنى كان يتميز بصفات أخرى ساعدت هذه الشخصية الكريمة على أن تحتل مكانها المؤثر فى عصرها وفى التاريخ وفى قلوب الناس.

كان الشيخ بالإضافة إلى علمه وزهده وحبه النادر لخدمة أهله، يتميز بصفة أساسية هى أنه كان إنسانا "خفيف الظل" محبا للتفاؤل، ميالا إلى المرح، والحقيقة أن أى قارئ لتاريخ مصر وتاريخ زعمائها المؤثرين يستطيع أن يخرج بنتيجة أساسية هى: أن الزعماء الحقيقيين الذين استطاعوا أن يؤثروا فى مصر والمصريين لابد أن يتميزوا بروح التفاؤل والمرح وخفة الظل، ولم يستطع أن يؤثر على مصر أبدا زعيم مكتئب متجهم ثقيل الظل، فالمرح والتفاؤل قوتان أساسيتان من القوى الروحية الدافعة لشخصية مصر، ولا غنى عنهما أبدا لأى زعامة تريد أن تؤثر وتنجح ويكون لها وزن وقيمة.

وهكذا كان الشيخ الحفنى.. وقد سجل له التاريخ بعض أشعاره الطريفة،

ومنها قوله الطريف:

قالوا تحب المدمس؟.. قلت: بالمسلى

والبيض مشوى تحبه؟ قلت: والمقلى

وهذه الروح التى تميل إلى الدعابة والمرح، تكشف عن سماحة العقل والنفس، وترفض الإدعاء بأن الجدية فى العمل والأخلاق، تعنى التجهم والصرامة والاكتئاب وإيذاء الناس. فهذا رجل دين عظيم، صاحب عمامة جليلة، ومنصب رفيع هو "مشيخة الأزهر" ولكنه لا يجد فى ذلك كله ما يبرر له الخشونة والقسوة فى القول، أو فى التعامل مع الآخرين أو فى أى أمر من أمور الحياة، وهو لا يرفض المرح والبهجة والنكتة وخفة الظل.

على أن الجانب الأهم من الصفات الإنسانية للشيخ الحفنى إنما يتمثل فى أنه إلى جانب تدينه وعلمه الواسع الغزير، ومكانته فى قلوب الناس، كان "فنانا" صاحب مشاعر رقيقة، يكتب الأشعار والأغانى الشعبية عن العواطف الإنسانية المختلفة، بدون حرج، أو شعور بالإثم، أو إحساس بأنه بمثل هذه الأشعار والأغانى الرقيقة يخرج على مقتضى وظيفته الرفيعة كشيخ للأزهر، أو على مقتضى علمه ودينه، كواحد من اكبر علماء الدين فى عصره.

فالشيخ الحفنى يكتب "موالا" بديعا عن "الفراق والهجر" يقول فيه "وهو بالشعر العامى":

بحياة يا ليل قوامك، وصوم الحر

تحجز لنا الفجر، دا فوت الرفاقة مر

لما يجى الفجر، يصبح ركبهم منجر

ازداد لوعة، ولا عمرى بقيت انسر

واستمع إليه فى قصيدة شعبية أخرى من أغانيه العاطفية حيث يقول فيها:

إن وجدت، أو جرت، أو صديت، أو وافيت

أنت الحبيب الذى فى القلب، قد حليت

وأنا على العهد ما خنتك، ولا اختليت

واستمع إليه فى أغنية عاطفية شعبية أخرى يقول فيها:

خطر على غزالى، مر ما أتكلم

فوق جفونه، وقلبى والحشا، كلم

ايش كان يضره إذا بالرأس، لى سلم

حتى أسر مهجتى لولا السلام سلم

هذه عمامة لها تاريخ نبيل، وهى عمامة شيخ له مكانة فى عصره، ويستحق منا أن نتذكره فى عصرنا وفى كل العصور. وهو إنسان رفعه علمه الدينى الحقيقى إلى أعلى درجات الرجولة، فكان كما قيل عنه "سقفا على أهل مصر يمنع عنهم نزول البلاء". وكان مع علمه ودينه، رجلا خفيف الظل، قوى العاطفة، لا يتحرج فى أن يكتب بعض أغانيه للحب والجمال، ولا يحس بأن الدين عدو للفن، ولا يبتعد عن معنى أساسى فى إيمانه بالله، وهو أن خدمة الناس بإخلاص وإحساس بالمسئولية هى أجمل العبادات وأقربها إليه سبحانه وتعالى.

وللشيخ الحفنى بيتان يلخصان حياته وإحساسه بالدنيا والناس، وفيهما يقول:

خبز وماء وظل

هو النعيم الأجل

جحدت نعمة ربى

أن قلت: أنى مقل

والمقل هنا هى بمعنى القليل أو الفقير

تلك حقا عمامة لها تاريخ نبيل.. أليس كذلك؟.

النصيحة

ومن منا لا يحتاج إلى النصيحة فى حياته الشخصية وحياته العامة؟.. إن الدنيا مليئة باللحظات الصعبة والأزمات المفاجئة التى تواجه الإنسان، وفى مثل تلك المواقف لا يستطيع أحد أن يميز بسهولة بين الخطأ والصواب، وبين طريق الخير وطريق الشر، وهنا يحتاج الإنسان إلى من يقدم إليه "نصيحة" صادقة وأمينة، تساعده على التصرف الصحيح واتخاذ القرار المناسب. والنصيحة تنفع نفعا كبيرا إذا كانت صادرة عن إنسان تتوفر فيه الصفات الأساسية والضرورية للناصح الحقيقى، ومن هذه الصفات أن يكون محبا لمن ينصحه، حريصا عليه وعلى مصالحه، وأن يكون صاحب علم ومعرفة، لأن الجاهل لا يستطيع أن ينصح، وإذا نصح فلابد أن تؤدى نصيحته إلى الهلاك، ولابد للناصح أن يكون قبل كل شئ صاحب ضمير نقى، حتى ينصح بالحق والخير، وحتى لا تتحول نصيحته إلى "مصيدة" يقع فيها كل من يأخذ بها أو يستسلم لها. وفى اللغة العربية نجد أن كلمة "الوزير" مستمدة من "المؤازرة" اى "العون" و "النصيحة" والوزير فى لغتنا هو الذى "يؤازر"، أى "يعاون" و"ينصح".. والأصل فى كلمة "الوزارة" هو القدرة على النصيحة الصحيحة والنافعة.

وإذا انحرفت النصيحة عن موضعها ورسالتها فإنها قد تؤدى إلى كارثة. وفى الأدب العالمى نموذج حى لذلك، وهذا النموذج فى مسرحية "عطيل" الذى كان يحب زوجته "ديدمونة" اشد الحب، وكان فى نفس الوقت يثق بنائبه وصديقه "ياجو" وكان "عطيل" قائدا عسكريا موهوبا وعبقريا، وكان رجلا مستقيم الضمير والنفس، صافى القلب والمشاعر، لا يحب التعقيد والالتواء، ولا يؤمن إلا بالخطوط المستقيمة الواضحة. وكان صديقه ونائبه "ياجو" على العكس من ذلك تماماً، فهو رجل ذكى ولكنه ماكر ولئيم وقادر على التظاهر بما ليس فيه، وكان يحسده على حب زوجته الجميلة "ديدمونة" وإخلاصها العميق له، كما كان

يحسده على مكانته العالية ومجده العسكرى الرفيع الذى جعله ينتصر فى كل معاركه، ويتألق بالبطولة والشجاعة، كلما خاض معركة، أو اشترك فى حرب. ومن هنا قرر "ياجو" أن يدمر "عطيل" وما دام عطيل يستمع إليه ويقدر نصيحته، فليضع "السم" فى النصيحة حتى تقضى عليه هذه "النصيحة" المسمومة وتقوده إلى الدمار والهلاك.

ولم ينتبه "عطيل" إلى المؤامرة، لأنه كان طيب النفس، ولأنه لسوء حظه كان يثق بصديقه ثقة كاملة، ولم يخطر على باله أن هذا الصديق لم يكن بينه وبين نفسه صديقا، بل كان مجرد خائن ذكى صغير. وأخذ "ياجو" يبذر بذور الشك فى نفس عطيل ضد زوجته المخلصة الفاتنة "ديدمونة"، وما كانت خائنة، ولا فكرت فى الخيانة لحظة واحدة، بل كانت ملاكا طاهرا نقيا، وكانت محبة حقيقية لزوجها، معتزة به، فخورة بفضائله، سعيدة بمجده وعظمته.

وأدت نصيحة ياجو المغرضة إلى أن يقتل عطيل زوجته وحبيبته ديدمونة، ثم يكتشف بعد فوات الأوان براءتها وخيانة ياجو، فيقتل ياجو ويقتل نفسه.

وهكذا أدت النصيحة غير الصادقة إلى الكارثة. على أن النصيحة لم تكن على هذه الصورة السيئة فى صفحات أخرى من الأدب والتاريخ. فقد كان هناك نماذج من النصيحة، تبدو فيها النصيحة صادقة وأمينة وعالية القيمة، ومبنية على الوعى والاستقامة والضمير.

ونتوقف أمام نموذج من نماذج هذه النصيحة الكريمة كان له فى تاريخ مصر قيمة كبيرة وأثر عظيم.

كان ذلك فى عصر الملك "الناصر" محمد بن قلاوون، أحد الحكام المماليك العظماء، والذى حكم مصر من سنة ١٢٩٣ إلى سنة ١٣٤١، أى ما يقرب من خمسين سنة متصلة، وفى هذه الفترة وقعت أحداث كثيرة لا تعنينا هنا، وكان الناصر كما يقول عنه المؤرخون "ضئيل الجسم، أعرج، أعور.. إلا أنه بالرغم من ذلك كان قوى البأس، شديد البطش، ذا رأى سديد، وعزيمة من حديد، وكان

عصره يتميز بفخامة ملكه، وعظمة مبانيه، وجمال ذوقه، وكان من أرقى عصور الحضارة فى مصر". ويقول المؤرخـون أيضـا: "إن ثـروة مصـر زادت فـى عـهده كثيرا، ومما ساعد على ذلك أنه فرض ضريبة على جميع التجارة التى تمر مـن مصر بنسبة ١٠ ٪ من ثمنها، وكانت تجارة أوروبا مع الهند تمر من مصـر فـى هذا العصر، قبل اكتشاف طريق "رأس الرجاء الصـالح".. وكـان النـاصر "يعنـى بشئون البلاد الداخلية، فضبط الموازين والمقاييس، وحـدد الأثمـان أو "الأسـعار" فى أوقات الشـدة، وألغـى كثـيرا مـن الضرائـب الضـارة بـالفقراء مـن الرعيـة، واستعاض عنها بزيادة الضرائب على كبار الأغنيـاء، وتشـدد فـى حفـظ الآداب العامة، وعمل على مساندة العلم ونشر المعـارف. وفـى عصره بلـغ فـن العمـارة والمبانى والنقوش العربية أقصاه، وأكثر الآثار العربية الجميلـة التـى توجـد فـى متاحف العالم الآن، هى من صنع هذا العصر".

والملك الناصر هـو والـد السـلطان حسـن، صـاحب التحفـة الفنيـة المعماريـة المعروفة حتى اليوم باسم "جامع السلطان حسن" فى حى القلعة.

على أن الملك الناصر كان أمامه مشكلة قومية كبرى، فقد استولى التتار علـى سوريا، وبدأوا يستعدون لغزو مصر بعد أن فشلوا من قبل فى غزوها حين انتصر عليهم "قطز" فى معركة "عين جالوت" سنة ١٢٦٩ ولكنهم عادوا من جديد فى عهد الملك الناصر ليهددوا البلاد.

كـان التتـار الذيـن يريـدون العـودة إلى مصـر تحـت حكـم "قـازان" حفيـد "هولاكو". وقد رأى قازان أن المكر والخديعة هما الوسيلة لغزو مصر، فأدعى أنه "اسلم" وأنه يريد الصلح والسلام والتعاون مع مصر فى خدمة الإسـلام، وخدمـة التعاون المثمر فى التجارة بين التتار والمصريين، وأرسل "قازان" التترى إلى الملك الناصر حاكم مصر رسالة بهذا المعنى، وأرسل الزعيم التترى وفدا يحمل رسالته إلى حاكم مصر، وكان من بين أفراد هذا الوفد قاضى قضـاة "الموصـل" الخاضعـة لحكم التتار، واسم هذا القاضى هو "كمال الدين الشافعى"، وكان هـذا القـاضى

صاحب سمعة علمية وأخلاقية عالية رفيعة، ولذلك اختاره الزعيم التترى ليكون ضمن الوفد الذى يحمل رسالته إلى المصريين، فسوف يصدقه المصريون، وتنطلى حيلته عليهم عندما يزعم لهم فى رسالته أنه "أسلم" وأنه يطلب التحالف والسلام والتعاون معهم، فإذا صدقوه توقفوا عن الاستعداد للحرب، وجاءهم هو بجيشه فأستولى على بلادهم وقضى عليهم، وكشف عن وجهه الحقيقى بعد أن ينتصر، وهو وجه غير مسلم وغير مسالم، ولكنها الخديعة والمكر والرغبة فى الانتصار بالحيلة والدهاء.

تلقى الملك الناصر رسالة قازان التترى، والتى يعلن فيها الإسلام والرغبة فى السلام، وهو يخفى غير ذلك فى نواياه الحقيقية، ولم يكن القاضى كمال الدين الشافعى يعلم بنوايا زعيم التتار بل كان يصدق ما جاء فى رسالته ورسالة الزعيم التترى، رغم أنها مكتوبة منذ أكثر من ستمائة سنة، إلا أنها سهلة وواضحة، ولا شك أن الذى كتبها هو كاتب عربى وقع فى "مصيدة" الزعيم التترى، وصدق ما يدعيه بلسانه، وهو ما كان يخالف تماما ما فى ضميره ونواياه.

تقول الرسالة "التترية" للملك الناصر:

"بسم الله الرحمن الرحيم" .. ننهى، بعد إهداء السلام إليكم، أن الله عز وجل جعلنا وإياكم على ملة واحدة، وشرفنا بالإسلام، وأيدنا، وندبنا لإقامة مناره وسددنا، وكان بيننا وبينكم "من الحرب" ما كان بقضاء الله وقدره، والآن فأنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام فنرجع الآن إلى إصلاح الرعايا، ونجتهد وإياكم على العدل فى سائر القضايا، فقد "فسدت" بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها، ومنعهم الخوف من الاستقرار فى أوطانهم. ونحن نعلم أن الله يسألنا عن ذلك ويحاسبنا عليه، وأنه عز وجل لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وأن جميع ما كان وما يكون هو فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنت تعلم أيها الملك الجليل، أننى وأنت مطالبون بالحقير والجليل،

وأننا مسئولون عن أصغر من وليناه، وأن مصيرنا إلى الله، وأنا معتنقون الإسلام قولا وعملا ونية، عاملون بفروضه فى كل وصية، وقد حملنا قاضى القضاة علامة الوقت وحجة الإسلام وبقية السلف كمال الدين أعزه الله تعالى مشافهة "أى رسالة شفوية" يعيدها على سمع الملك، والعمدة "أى الاعتماد" عليها، فإذا عاد من الملك جواب، فليرسل لنا هدية الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم فى إجابتنا للصلح، صدق النية، ونهدى إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم والسلام الطيب منا وعليكم".

هذه هى رسالة الزعيم التترى قازان حفيد "هولاكو" إلى حاكم مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ماذا يفعل الملك الناصر؟ هل يصدق نوايا السلام والصلح والإسلام عند عدوه اللدود زعيم التتار؟.. أنه إذا صدق ذلك فإنه سوف ينصرف إلى شئون بلاده الداخلية، ويخفف من استعداداته الحربية حتى لا تستهلك منه نفقات ضخمة لم يعد لها مبرر. وقبل أن يتخذ الملك الناصر قراره الأخير، لجأ كأى إنسان مسئول وعاقل إلى الاستشارة وطلب النصيحة. وكان من أعجب ما فعله الملك الناصر أنه طلب النصيحة من القاضى "كمال الدين" مندوب زعيم التتار وحامل رسالته. وقد فعل الملك ذلك لأنه رأى فى القاضى ما يوحى بالثقة والاحترام، بالإضافة إلى أن القاضى يعرف الطرف الآخر وهو زعيم التتار، ويعلم إن كان صادقا فى إسلامه ورغبته فى الصلح والسلام، أم أنه خادع وغادر، وأنه بالمكر والدهاء يريد تحقيق أهدافه العسكرية وهى الاستيلاء على مصر وهزيمة جيشها والانتقال بمقر حكومته من "الموصل" إلى القاهرة لتكون هذه المدينة الزاهرة عاصمة له.

وهنا يأتى دور النصيحة فى صورتها العالية والمسئولة والتى ترعى الله والضمير والأمانة الكاملة.

إذا كان الشيخ القاضى "كمال الدين" هو مندوب التتار ورسولهم، فإن ذلك لا يمكن أن يدفعه - وهو العالم الجليل - إلى تضليل الملك الناصر أو تقديم نصيحة ناقصة تحمل إليه الشرور والضرر.

قال الملك الناصر للشيخ كمال الدين:

"أنت من أكبر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين، ونحن ما نقاتل إلا فى سبيل الله، فإن كان هذا الأمر "أى إظهار الإسلام والرغبة فى السلام" قد فعله قازان "قائد التتار" حيلة ودهاء، فنحلف لك أننا لا نطلع على هذا القول أحدا من خلق الله تعالى".

قال الشيخ كمال الدين "أحلف لكم أننى لا أعلم من قازان إلا صدق النية فى الصلح، وحقن الدماء، ورواج التجارة وإصلاح الرعية".

ولكن الشيخ كمال الدين لم يكتف بما قال، وهنا تصل النصيحة إلى مستواها العظيم والمسئول، فقد ألحق الشيخ كلامه السابق بقوله:

"ولكننى مع ذلك أرى المصلحة أنكم تبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم (أى الاستعداد العسكرى الصحيح له) وأن تخرجوا بجيوشكم كعادتكم إلى أطراف "أى حدود" بلادكم، فإن كان هذا الأمر "الذى أعلنه قازان" خديعة لكم كنتم مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحا أتممتم الصلح، وحقنتم الدماء فيما بينكم".

هذه هى النصيحة الصحيحة..

وهذا هو الناصح الأمين..

فالشيخ لم يكن يعرف شيئا عن نوايا زعيم التتار الخفية، وكان يصدق ما ظهر من أقواله، ولكن الحكمة تقضى بالاستعداد لاحتمال آخر هو أن يكون زعيم التتار كاذبا وخادعا وله أهداف أخرى غير ما يعلنه فى الظاهر.

وهذا هو ما حدث بالفعل.. فقد كان زعيم التتار كاذبا.. ولكن الملك الناصر كان قد أخذ احتياطه، ولم يلجأ إلى الاسترخاء العسكرى، وجاءت جيوش التتار لتغزو مصر، فوجدت منها الاستعداد الكامل، والتقى الجيشان فى "بر الشام"، وانتصر المصريون انتصارا حاسما على التتار، وكان الملك الناصر فى مقدمة المقاتلين. ولم يبق من جيش التتار بعد هذه المعركة إلا ثمانية آلاف بعد أن كان الجيش مكونا من ثمانين ألفا من أفضل جنود التتار.

كان الملك الناصر على حق عندما طلب النصيحة فى هذا الموقف العسير قبل أن يتخذ قراره الأخير، وكان على وعى بأن النصيحة النافعة لا يمكن أن تأتى من شخص غير مؤهل بعلمه وضميره لتقديم هذه النصيحة فأختار الشيخ كمال الدين، ولم يكن الشيخ يدرى شيئا عن نية الغدر عند التتار، فقد أقنعوه بأنهم يريدون الصلح والسلام حقا، وأنهم عازمون على دخول الإسلام، ولذلك حمل رسالتهم وهو لا يعرف نيتهم الحقيقية، وعندما طلب المصريون منه النصيحة كان عند حسن الظن بهم، فأكد لهم انه لا يعرف عن التتار إلا أنهم صادقون فيما يعرضونه من الصلح والسلام، ولكن ما دام المصريون يطلبون رأيه فهو ينصحهم بألا يلقوا بسلاحهم، وأن يظلوا على أعلى درجات الاستعداد لعدوهم، حتى إذا ظهرت نية الغدر عنده استطاعوا أن يردوا على غدره ويصدوا عدوانه.. وقد أخذ المصريون بالنصيحة العادلة والعاقلة والمقدرة للمسئولية فنصرهم الله وانهزم التتار أمامهم.

وكان من نتائج هذه المعركة الأخيرة والحاسمة بين المصريين والتتار، أن التتار لم يقتربوا مرة أخرى من مصر والشام، وشعر "قازان" زعيم التتار بالغم العظيم "وخرج الدم من منخريه" واحتجب عن الحاشية فترة، ثم طلب قائد جيشه واسمه "قلطوشاه" واوقفه أمامه، واستدعى الأعيان وأمرهم أن يبصقوا فى وجهه واحدا واحدا حتى بصقوا عليه جميعا".. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى مات "قازان" متأثرا بالهزيمة الساحقة التى أصابت جيشه الكبير.

أما المصريون فهم أساتذة فى صناعة "الأفراح" ولذلك احتفلت مصر احتفالا هائلا باستقبال الملك الناصر وجيشه، وكما يقول "ابن أياس" فى كتابه "بدائع الزهور": تحسن سعر الخشب والقصب وآلات النجارة، وتنادى الناس أن من استعمل صانعا فى غير الزينة فهو عدو للسلطان،وأقبل أهل الريف إلى القاهرة للفرجة،وامتلأت الأحواض فى الشوارع بالسكر والليمون، وبلغ إيجار البيت الذى يمر عليه السلطان من خمسين درهما إلى مائة، وفرشت أرض الشوارع التى سوف يمر فيها السلطان بالأبسطة، وكان السلطان كلما مر بزينة وقف يعاينها ويجبر خاطر صاحبها".

وهكذا كانت النصيحة الصادقة مع حسن الاستماع إليها، والأخذ بها فى وقتها، خيرا على مصر والملك الناصر الذى لم ينخدع بمكر أعدائه. وانكشف له وجه الغدر وسوء النية، كانت له وقفته القوية، فنال النصر، وعاد إلى عاصمة مصر مرفوع الرأس.

وهذه القصة بتفاصيلها يمكن الرجوع إليها فى المراجع التاريخية المختلفة المكتوبة عن هذه الفترة، وعلى رأسها كتاب "بدائع الزهور فى وقائع الزهور" للمؤرخ الكبير "ابن أياس"، ومنها كتاب "تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى" للأستاذ عمر الإسكندرانى، ومنها دراسة عميقة وممتازة وشاملة بعنوان "خاتمة قازان" للأستاذ عطية الشيخ، وغير ذلك من مراجع التاريخ المملوكى.. وهى كثيرة.

الإتقان ... سلطان!

إذا استيقظ الإنسان ذات صباح ووجد أمامه برنامج عمل واضح محدد، فإن هذا اليوم لابد أن يكون من أيام سعادته ورضاه عن نفسه. وليس من أيام الشكوى والتعب فى حياته، فالعمل هو السعادة التى يمكن أن يحققها الإنسان لنفسه، وربما كانت هذه السعادة هادئة، مثل ضوء الشمعة خافتا وبسيطا، ومع ذلك فالسعادة التى يخلقها العمل الناجح فى حياة الإنسان هى السعادة التى تدوم أكثر من غيرها، وهى الضوء الذى ينير النفوس ويعتمد عليه صاحبه فى فهم أحواله ومعرفتها. على أن قمة السعادة النابعة من العمل لا يبلغها الإنسان إلا بالإتقان، أى بأن يحرص الإنسان على إتقان عمله بذمة وضمير. فالإتقان سلطان. حتى لو كان العمل بسيطا وقليل الأهمية فى ظاهره، فإن إتقانه يعطيه نوعا من الجلال والهيبة، لأن إتقان العمل هو نوع من الارتفاع به إلى درجة العبادة، وعندما نرى إنسانا يصلى فى ورع وتقوى وإخلاص تكون صلاته هذه مؤثرة فى نفسه ونفوس الآخرين، بينما لو رأينا واحدا يهرول وهو يصلى، فأغلب الظن أنه لن ينتفع كثيرا بما يقوم به من العبادة، ولن يجد ممن يرونه وهو "يهرول" أى تعاطف أو قدرة على تصديقه واعتباره من المؤمنين المخلصين.

والاتقان سلطان من ناحية أخرى، لأنه عندما يتقن الإنسان العمل الذى يقوم به فإنه يشعر بكرامة لا يمكن لأحد أن يخدشها أو يمسها بسوء. فالذى يتقن عمله يكون قد حقق لنفسه حصانة تجعل من الصعب على الآخرين أن يوجهوا إليه إهانة أو أن يجدوا فرصة لنقده وتأنيبه. ومهما كان العمل بسيطا وصغيرا فإن الإتقان فيه هو وقاية وحماية لصاحبه.

والاتقان لا يمكن أن يتحقق إلا بالتركيز على العمل ، والإحترام التام للوقت، والتضحية دون ندم ببعض المسرات العابرة ومنها العلاقات الاجتماعية الكثيرة التى تسرق الأعمار ، ولا تنفع السارق ولا المسروق ، ومنها المبالغات فى المجاملات التى تتحول فى بعض المجتمعات وعند بعض الأفراد إلى فن كامل

من (فنون الثرثرة) والثرثرة فى خادع لا يترك وراءه إلا الإحساس الكبير بالفراغ وعدم جدوى أى شئ . والمجتمعات المتقدمة والأفراد الناجحون هم جميعًا من حزب الاتقان ومن أعداء فن (الثرثرة) الذى هو سراب يخطف الأبصار ولا يروى العطشان .

والتاريخ يقدم إلينا فى هذا المجال نماذج مهمة ، فقد كان نابليون ، بعيدًا عن تاريخه العسكرى الجبار ، رجلاً من أكبر رجال العمل الدائم والإنتاج المستمر والحرص الشديد على الإتقان ، ولنابليون كلمات كثيرة تكشف عن وعيه العميق بضرورة الاتقان وتقديره البالغ لهذه الفضيلة فى الإنسان حتى لو كان فلاحاً بسيطًا يقوم بعمل محدود ، فمن عناصر الاتقان أن يكون الإنسان نشيطًا ، لأن النشاط يتيح بذل أكبر الجهد فى العمل ، وهو يتيح المراجعة الدقيقة لما قام به الإنسان لإصلاح خطأ أو تدارك نقص . كذلك كان نابليون ينظر إلى الوقت وحسن استخدامه نظرة تقربه من التقديس . ومن كلماته الرائعة قوله : (لقد ضاعفت نفسى بنشاطى) أى أنه أصبح أكثر من شخص واحد ، وعاش أكثر من حياة واحدة عن طريق نشاطه .

وهذا معنى كبير فقد عاش نابليون اثنين وخمسين عامًا فى هذه الدنيا ، ولكنه فى هذا العمر القصير – بنشاطه – ما كان يحتاج – دون مبالغة – إلى خمسمائة عام . فالنشاط يضاعف حياة الإنسان مرات ومرات . وهذا النشاط هو أول الاتقان ، وهو العنصر الذى لا غنى عنه لمن يريدون تحقيق هذا الاتقان .

ونعود إلى بعض كلمات نابليون حول هذه المعانى الإنسانية فنجده يقول : (مثلى من الرجال من لا يتوقف جهده فى عمله حتى ينام فى قبره) ويقول فى تقديره للوقت : (تذكر أن الله خلق الدنيا فى ستة أيام ، فأطلب منى ما تشاء إلا الوقت ، فهو الأمر الذى لا تصل إليه يدى) وفى هذه الكلمات إشارة قوية إلى أن نابليون يحسب حساب الوقت ، ولا يسمح بإضاعته ، وإن كان يعترف بسيادته ، أى بسيادة الوقت عليه ، فهو مطيع للوقت ، شديد الاحترام له .

ومن كلمات نابليون أيضًا : (إن حضور ذهنى بعد منتصف الليل هو حضور تام، حتى إذا صحوت من نومى فجأة لسبب من الأسباب أو لإبلاغى بحادثة من الحوادث كنت كأنما لم أكن نائمًا ، فلا عينى يبدو عليها أى أثر من آثار الفتور ، ولا ذهنى يكشف عن أى إشارة إلى أننى قبل ذلك كنت فى نوم عميق) ومن أقواله (يجب علينا أن نشغل أنفسنا ، فالعمل مثل السيف يقطع الوقت ، ولابد للإنسان أن يعمل على إتمام ما هو مقدر له .. فاللهم ساعدنى على إتمامه) . ويقول نابليون أيضًا : (إن الحياة التى لا فائدة منها ولا إنتاج فيها هى عبء ثقيل) . ويحرص نابليون وهو فى قمة سلطانه كإمبراطور لفرنسا على التعبير عن تقديره العميق للعاملين المجتهدين المتقنين لعملهم حتى لو كانوا من أبسط الناس وأقلهم شأنًا ، وفى ذلك يقول : (إنى لأحسد أدنى فلاح مجتهد عامل فى إمبراطوريتى على نصيبه فى هذه الحياة ، فهو إذا كان فى مثل سنى – أى فى الأربعين تقريبًا – فإنه يكون قد قام نحو وطنه بالواجب المفروض عليه ، وهو يستطيع بعد ذلك أن يعود إلى داره ليستمتع بحياته ويأنس بزوجته وأولاده ، أما أنا فملتزم ومرغم على العودة إلى المعسكر لأكون ضمن الذين مكتوب عليهم القتال حتى آخر نفس . تلك هى حياتى ، وهذا هو ما فرضته عليها الأقدار الغامضة) وأخيرًا يؤكد نابليون أن طريق الاتقان فى هذه الدنيا لابد أن يمر بمبدأ أساسى هو (الاعتماد على النفس) وهذا المبدأ لا يعنى الأنانية بل يعنى مقاومة الخمول والكسل واستسهال الاعتماد على الآخرين ، وفى المعنى يقول نابليون : (إن إسرع الناس مشيًا هو ذلك الذى يسير وحده) وهى عبارة بديعة وفى غاية العمق والجمال .

ونترك نابليون فى أقواله التى تدعو إلى الكثير من التفكير والتأمل وتشير بقوة إلى أهمية النشاط والاتقان فى تحقيق سعادة الإنسان ورضاه عن نفسه ومحافظته على كرامته وكبريائه ، ونتوقف بعد ذلك أمام ممثلة أوروبية كان لها شهرة عظيمة فى القرن التاسع عشر ، أى منذ أكثر من مائة سنة ، والمعلومات

عن فن هذه الممثلة العظيمة محدودة ، لأنها لم تدرك عصر السينما ولا تسجيلات الصوت أو الفيديو ولكن هناك إجماعًا عند الذين كتبوا تاريخ هذه الممثلة على أنها كانت من أعظم ممثلات المسرح ، وأن أوروبا كلها ، كبيرها وصغيرها ، قد انحنت أمامها إعجابًا بها وتقديرًا لها ومحبة لفنها التى وصلت إلى حد الفتنة .

هذه الممثلة اسمها (اليانورا دوزى) والمعروف عنها أنها كانت موهوبة ، ولكنها لم تعتمد على موهبتها وحدها ، بل أتقنت عملها الفنى أشد الاتقان وأخلصت له كل الإخلاص فاستحقت أن يقال عنها إن : (الاتقان .. سلطان) وهو يوازى أى سلطان آخر فى هذه الدنيا . وقد كانت هذه الممثلة الكبيرة إذا قامت بأدوارها على المسرح تألقت ، لأنها كانت تعطى فنها وهو عملها الوحيد كل ما يحتاج إليه من تركيز عليه وإخلاص فيه حتى أحبها الجميع وصفقوا لها فى كل مكان ذهبت إليه . ولأن الاتقان سلطان ، فقد كان لهذه الممثلة السلطانة الفنية مواقف ارتفعت فيها رأسها حتى أصبحت مساوية لرؤوس الملوك والقياصرة بل وأصبحت أحيانًا أعلى من هذه الرؤوس وارفع منها و لم تكن هذه الممثلة تملك شيئًا غير سلطان فنها وسلطان اتقانها لهذا الفن وحرصها على هذا الاتقان .. لقد أتقنت ، فتبغددت ، وتسلطنت ، ورفعت رأسها إلى السماء .

يروى تاريخ (اليانورا دوزى) المكتوب عنها أن أحد ملوك أوروبا أراد أن يزورها يومًا فى حجرتها الخاصة بالمسرح الذى كانت تمثل فيه ، وقد ظن هذا الملك الأوروبى أن زيارته للممثلة فى حجرتها هو تكريم استثنائى لها ، فالملوك لا يذهبون إلى الممثلات ، ولكنهم إذا أرادوا تكريم إحداهن استقبلوها فى قصورهم ، أى أن الممثلات هن اللواتى يذهبن إلى الملوك وليس العكس ، فإذا وافق الملوك على استقبالهن فهذا هو أعلى معانى التكريم . ولكن هذا الملك الأوروبى أراد أن يمنح الممثلة (إليانورا دوزى) شرفًا لم ينله أحد من قبل ،

فأرسل إليها (ياوره) ليطلب منها أن تستقبل الملك فى حجرتها الخاصة بها فى المسرح ، ولكن (الياور) فوجئ بأن الممثلة العظيمة تقول فى هدوء تام (أرجو أن تعرب عن شكرى لجلالة الملك ، وأن تخبره بأن عجزى عن استقباله يؤسفنى أشد الأسف) ولكن (ياور) الملك انزعج من هذا الاعتذار واستمر فى إلحاحه ، فعادت الممثلة العظيمة إلى اعتذارها وقالت فى حزم (إنها لا تستقبل فى غرفتها الخاصة سوى أقرب المقربين إليها من أصدقائها ، وإنها لا تستطيع تغيير ما جرت عليه عادتها بسبب أحد .. حتى لو كان ملكًا).

واضطر الملك الأوروبى أن يبقى فى مقصورته بالمسرح بعد أن رفضت الممثلة استقباله ولم تعبأ بغضبه واستنكاره لذلك .

وفى مرة ثانية أراد ملك السويد أن يذهب إلى الممثلة الكبيرة أيضًا ، ولكنه لجأ إلى أسلوب فى غاية التهذيب والذوق فأرسل إليها رسالة قصيرة كتبها بخط يده يقول لها فيها (ليس الملك هو الذى يطلب أن تستقبليه ، بل هو أعظم رعاياك إعجابًا بك) وهكذا قدم الملك نفسه إلى الممثلة العظيمة على أنه من رعاياها ، وليس العكس ولذلك رضيت الممثلة أن تستقبله .. ولكن كصديق وليس كملك .

وقصة أخرى فى منتهى الطرافة ، فقد كانت الممثلة (إليانورا دوزى) تقدم عروضها فى روسيا أيام النظام القيصرى ، وذات ليلة ذهب القيصر وأفراد عائلته إلى المسرح ، وبعد أن استقروا فى أماكنهم استدعت الممثلة الكبيرة مدير المسرح وقالت له : "إنها لن تمثل الليلة" فأنزعج مدير المسرح انزعاجًا شديدًا وأخبرها بوجود القيصر وعائلته ، فقالت له : " .. وإيه يعنى . إنك تستطيع أن تخبرهم بأننى لا أريد أن أمثل الليلة ، ولن تضطر إلى إعادة ثمن التذاكر إليهم، لأنهم لا يدفعون ثمن التذاكر ، فهم يدخلون المسرح مجانًا باعتبارهم عائلة ملكية" ورد عليها مدير المسرح وهو فى حالة تشبه الجنون : "يا سيدتى لا يحق لك أن تستسلمى لنزوة طارئة حين يكون أصحاب التيجان فى

المسرح"، فما كان من الممثلة الكبيرة إلا أن ترد عليه فى بساطة وثقة (أيها العبيط هل تظن أن أصحاب التيجان فى نظرى أهم من سائر الناس ؟ أننى لا أرغب فى التمثيل الليلة ، ولن أمثل أبدًا ضد رغبتى وضد حالتى النفسية ولو كان الذين ينتظرون فى المسرح من أصحاب التيجان!).

وذات مرة كان الملك أدوارد السابع الذى حكم إنجلترا من ١٩٠١ حتى عام ١٩١٠ يقيم وهو ولى للعهد فى مدينة (كان) الفرنسية فى إجازة له ، وعرف ولى العهد البريطانى أن (إليانورا دوزى) تمثل بعض أعمالها الفنية على مسرح المدينة ، فذهب إلى المسرح لمشاهدتها ، وفوجئ به مدير المسرح ، فحاول أن يعتذر له قائلاً : (إن المسرح رث ولا يليق بمكانة ولى العهد) فما كان من إدوارد السابع إلا أن قال : (وما هو الضرر فى ذلك ؟ إنه يسعدنى أن أذهب إلى اصطبل حتى اسمع (دوزى) الساحرة وأراها. فقيمة الصورة الرائعة ليست فى الإطار أو (البروان) . وهكذا أثبتت الممثلة العظيمة أن الاتقان سلطان فوق كل سلطان ، فقد أتقنت عملها وارتفعت بذلك فوق الجميع ، وعندما يتقن الإنسان عمله ويخلص له وينجح فيه فإنه يكون سلطانًا عند نفسه وعند الآخرين ، وحتى لو كان عمل الإنسان صغيرًا أو محدود القيمة فإن الاتقان قادر على تغيير الأمور وتحويل الصغير إلى كبير وغير المهم إلى مهم . والذين يعكفون على أعمالهم بدقة وأمانة ويكتسبون فيها خبرة عالية بها إنما يتجنبون كثيرًا من شرور الحياة ومتاعبها ، وهم يحصلون على احترام غيرهم حتى لو كانوا من الأعداء والحاسدين . وهذا كله من حكمة الحياة المتاحة أمام الجميع ، فكل إنسان مهما كان شأنه يستطيع أن ينتفع بهذه الحكمة ، أى أن يتقن عمله إتقانًا شديدًا ويجنى من وراء ذلك خيرًا واطمئنانًا وراحة بال ويصبح سلطانًا على نفسه وعند الآخرين .

فنان فى شوارع باريس

الشاعر الفرنسى الكبير (جاك بريفير) أحد الشعراء المعاصرين الذين نالوا شهرة واسعة فى بلاده وفى مختلف أنحاء العالم ، ولا تزال أشعاره السهلة الجميلة إلى الآن موضع حب الكثيرين وإقبالهم على قراءتها أو الاستماع إليها فى أغانى المطربين الذين اختاروا بعض قصائده وجعلوا منها أغنيات شعبية محبوبة . وقد توفى جاك بريفير سنة ١٩٧٧ ، أى منذ خمس وعشرين سنة، ولكن قصائده تعيش فى القلوب ، وتزداد جمالاً وسحرًا بمرور الأيام . فالشعراء الموهوبون يموتون كما يموت الناس جميعًا . أما الأشعار الجميلة فلا تعرف الموت ، بل تبقى حية من جيل إلى جيل .

ومصدر القوة فى شعر (بريفير) هو أنه كان شاعرًا قادرًا على استخراج أجمل المعانى والأفكار والمشاعر من أبسط مواقف الحياة ، فقد ابتعد هذا الشاعر الكبير عن الغموض والتعقيد ، ورفض أن يجعل من شعره ألغازًا صعبة تحتاج إلى جهد كبير فى تفسيرها وفهم معانيها واكتشاف الأسرار الكامنة فيها ، فلسنا بحاجة ونحن نقرأ قصائد (جاك بريفير) إلى جهد كبير لكى نفهم ونستمتع ، فهو شاعر البساطة والسهولة وهو يرى الحياة نفسها بسيطة ، ويشعر أن تعقيدها إنما ينبع من تصرفات الإنسان وأخطائه ، وحتى لو كانت الحياة معقدة فمهمتنا أن نجعلها بسيطة ، وأن نحاول اجتياز أيامنا فيها بروح عالية من الحب والتفاؤل والنشوة ، وبذلك ننتصر على الهموم والأحزان ، ونعيش كأننا فراشات جميلة تنتقل من زهرة إلى زهرة . والذى يساعدنا على هذا الموقف المتفائل فى الحياة هو معرفتنا بأننا لا نستطيع أن نعيش فى عالم آخر غير العالم الذى نعيش فيه، ولو كان بإمكاننا أن نغير هذه الدنيا التى لا تعجبنا لفعلنا ذلك دون تردد.

ولكننا لا نستطيع ، ونحن نعرف أننا جئنا إلى هذه الحياة بغير إرادة منا، وأننا نترك الحياة بغير إرادة أيضًا . ولكن ما بين هذين الموقفين الصعبين هناك العشرات من الامور التى نستطيع أن نتحكم فيها ، ويجب ألا نتردد فى أن

نقوم بهذا الدور أى بالتحكم والسيطرة على الأمور التى هى مصدر للمتاعب والمشاكل . فالحروب مثلاً ظاهرة سيئة ، وهى سبب من الأسباب الكبرى لتدمير كل ما فى الحياة من جمال وبهجة ، وفى الحروب يموت الشباب على وجه الخصوص ، والشباب هو روح الحياة وزينتها ، وهو الذى يمثل القدرة على العمل والإنتاج وتحمل الأعباء والمسئوليات ، وهو المرحلة التى يولد فيها الحب ، وتولد فيها الآمال الحلوة والأحلام العذبة ، والحرب هى تدمير لهذا كله وقضاء عليه .

وأمام ظاهرة مثل ظاهرة الحرب ، فإن من واجبنا أن نعترض عليها ونقف ضدها ، ومن واجبنا أن نقيم سدا عاليًا ضد الذين يشعلون الحروب ويستفيدون منها، مثل التجار الذين يبيعون السلاح للأطراف المتحاربة ، ولا يستطيعون أن يناموا هادئين هانئين إلا إذا امتلأت جيوبهم بالأموال العائدة إليهم من تجارتهم الدموية ، وإلى جانب هؤلاء التجار المجرمين يوجد الزعماء المجانين الذين يسعدهم كثيرًا أن يلقوا خطابًا رنانًا فى ميدان من الميادين ويكون ثمن هذا الخطاب غير المسئول عشرات الآلاف من الشباب الذين يدفعون حياتهم ثمنًا لجنون زعماء من أمثال (هتلر) و(موسولينى) وهما الزعيمان اللذان أشعلا الحرب العالمية الثانية بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٥ ، وكان ثمن هذه الحرب هو موت ما يقرب من خمسين مليونًا من البشر ، أى عشرة ملايين قتيل كل عام لمدة خمس سنوات متتالية هى مدة الحرب العالمية الثانية . كل ذلك بسبب زعيمين مجنونين امتلأت نفساهما بالغرور والأحلام الكاذبة.

نستطيع أن نقف ضد كل الأفكار المعادية للحياة ، والمسببة للآلام البشرية ، فكما يجب أن نعادى الطغاة ، يجب علينا أيضًا أن نعادى النفاق والافتعال وتزوير المشاعر والكلمات، ويجب أن نبحث عن جمال الحياة فى البساطة والبراءة ، ونرفض الأكاذيب من كل نوع . إننا نستطيع أن (نصطاد) السعادة فى هذه الحياة لو فهمنا أن السعادة قريبة منا ، وموجودة بين أيدينا فى أقل

مظاهر الحياة تعقيدًا وغموضًا .. فى وردة يهديها حبيب إلى حبيبة ، فى ابتسامة طفل ، فى لحظة حنان عائلية تشمل كل أفراد الأسرة . فى صداقة مخلصة . فى فنجان قهوة . فى العصافير التى تقفز من غصن إلى غصن . كل هذه الأشياء هى كنز من السعادة الإنسانية نستطيع أن نعثر عليه بسهولة ويسر إذا كنا نحب الحياة حبًا حقيقيًا ونريد أن نقضى أيامنا فيها بأقل قدر من التعاسة وأعلى قدر من الهناء والسعادة .

ونتوقف قليلاً أمام حياة (جاك بريفير) فقد ولد فى باريس سنة ١٩٠٠ وتوفى فى سنة ١٩٧٧ ولم يعرف عنه أنه أكمل تعليمًا دقيقًا منظمًا ، فقد كان منذ صباه يضيق بصرامة التعليم ، ويقول عن ذلك : (إن الطفل يدخل المدرسة ضاحكًا ويخرج منها باكيًا) وكان يتمنى أن تكون هناك أنظمة تعليمية حرة طليقة لا تقيد الأطفال بقيود صعبة ، كأن يجلسوا فى الحدائق ، ويدرسوا الطبيعة وهم فى أحضان الطبيعة نفسها . إنه يحلم بالتعليم الجميل لا بالتعليم القاسى . ولذلك فقد انطلق إلى الحياة بعد أن نال قسطًا من التعليم المدرسى المحدود . وهو يقول عن نفسه أنه تعلم من الشارع لا من المدرسة ولا من الجامعة . فشوارع باريس هى مدرسته وهى جامعته . والحياة المتدفقة فى هذه الشوارع ،هى التى ألهمته وفجرت ينابيع الموهبة الفنية فيه ، عمل بائعًا فى أحد شوارع باريس ، وعندما حقق بعض النجاح كفنان له شعبية انصرف إلى الفن وتفرغ له حتى آخر حياته . فكان يكتب الشعر ويلحن بعض قصائده بالاشتراك مع صديق له ، وكان يكتب للمسرح والسينما والتليفزيون . ولكن الشعر ظل هو (النغمة) الأساسية فى حياته ، فقد أصدر عدة دواوين أشهرها ديوان (كلمات) الذى صدر سنة ١٩٤٥ ، وحقق نجاحًا شعبيًا لم يحققه شاعر آخر فى عصره . وقد قام بترجمة هذا الديوان إلى العربية أديب سورى هو الأستاذ (صباح الجهيم) وأصدرته وزارة الثقافة السورية فى سلسلة عنوانها (من الشعر العالمى الحديث) .

والشاعر (بريفير) هو أحد الشعراء العالميين الذين أثروا على الشعر العربى المعاصر، وكان من المتأثرين به الشاعر الكبير نزار قبانى ، وسوف نجد فى ديوان (قصائد) لنزار قبانى قصيدة كاملة ترجمها نزار عن (بريفير) وهذه القصيدة عنوانها عند نزار (مع جريدة) أما عنوانها عند (بريفير) فهو (فطور الصباح)ونص قصيدة (بريفير) كما ترجمها الأديب السورى (صباح الجهيم) تقول على لسان فتاة تجلس فى مقهى :

(صب القهوة فى الفنجان . صب الحليب فى فنجان القهوة . وضع السكر فى القهوة بالحليب . حرك بالملعقة الصغيرة . شرب القهوة بالحليب . ووضع الفنجان دون أن يكلمنى . أشعل سيجارة عمل دوائر بالدخان . نفض الرماد فى المنفضة دون أن يكلمنى . دون أن ينظر إلى . نهض . وضع قبعته على رأسه . ارتدى معطف الشتاء . لأن المطر كان يهطل . وذهب تحت المطر دون كلام . دون أن ينظر إلى وأنا أمسكت رأسى بيدى وبكيت).

فى هذه القصيدة سوف نجد أمامنا لونًا من الجمال الإنسانى الفريد . ورغم أننا نقرأ القصيدة فى ترجمة عربية وليس فى الأصل الفرنسى إلا أننا نستطيع أن نحس بعذوبتها وصدقها . ونستطيع أن نكتشف من خلال ذلك الفن البسيط الآسر الذى يقدمه إلينا الشاعر الفرنسى . فالحادثة التى تقوم عليها القصيدة بسيطة جدًا . وهى نوع من الخواطر التى تدور فى رأس فتاة وحيدة ، تجلس فى أحد مقاهى باريس ، لم يقل لنا الشاعر شيئًا عن هذه الفتاة ، ونحن لا نعرف ماذا تعمل أو ماذا تلبس ، أو من أى أسرة هى . ولكننا من خلال القصيدة نحس أن هذه الفتاة تشعر بالوحدة وتحتاج إلى الحب والحنان . وهى تركز مشاعرها على شخص جالس أمامها كانت تتمنى أن ينظر إليها أو يتحدث معها ، ولكنه لم يفعل . وقد ظلت تراقبه وهو يشرب القهوة ، وهو يدخن سيجارته وينفض رمادها ، ثم وهو يقوم بعد ذلك ويلبس قبعته ومعطفه ويمضى إلى حاله تحت المطر . القصيدة (لقطة) من الحياة اليومية. ليس فيها

من أولها إلى آخرها حرف عطف واحد . وكلها (أفعال) يقوم بها الرجل ، مثل شرب القهوة والتدخين وغير ذلك . والموقف كله بسيط جدًا . ولكنه صادق ومؤثر ، لأنه يكشف لنا عن حاجة تلك الفتاة وحاجة كل إنسان إلى المشاركة . ويكشف أن الشعور بالوحدة هو (عدو) من أعداء الإنسان . ولن نستطيع القضاء على هذا (العدو) إلا عندما نجد من يشاركنا ولو بالكلمات البسيطة .

وقد ترجم (نزار قبانى) هذه القصيدة شعرًا إلى اللغة العربية وتصرف فيها بعض التصرف ، وأعطاها طعمًا خاصًا من لغته الشعرية العذبة ، فأصبحت جديدة (نزارية) المذاق . يقول نزار فى قصيدة (مع جريدة) :

أخرج من معطفه الجريدة ..

وعلبة الثقاب ..

ودون أن يلاحظ اضطرابى ..

ودونما اهتمام ..

تناول السكر من أمامى ..

ذوب فى الفنجان قطعتين ..

ذوب .. ذوب قطعتين ..

وبعد لحظتين ..

ودون أن يرانى ..

ويعرف الشوق الذى اعترانى ..

تناول المعطف من أمامى ..

مخلفًا وراءه الجريدة ..

وحيدة ..

مثلى أنا .. وحيدة ..

والروح فى القصيدة الفرنسية والقصيدة العربية واحدة . والشعر فيهما نابع من موقف إنسانى يومى بسيط ، وهو موقف نشاهد أمثاله كثيرًا ويمر أمامنا كل يوم دون أن نلاحظ ما فيه من (شاعرية) جميلة ، تلمس فى النفس أوتار الدفء والحنان والبحث عن مشاركة وجدانية صادقة .

وفى قصيدة أخرى (لجاك بريفير) عنوانها (لأجلك يا حبيبى) يقول الشاعر، والترجمة العربية للأديب السورى أيضًا :

(ذهبت إلى سوق الطيور ، واشتريت طيورًا ، لك يا حبيبتى . ذهبت إلى سوق الزهور ، واشتريت زهورًا ، لك يا حبيبتى . ذهبت إلى سوق الحديد، واشتريت سلاسل .. سلاسل ثقيلة ، لك يا حبيبتى ، ثم ذهبت إلى سوق العبيد وبحثت عنك ، لكنى لم أعثر عليك .. يا حبيبتى)

ما الذى نجده فى هذه القصيدة ؟ أنها تعبير غاية فى البساطة عن الحب الذى لا يزدهر إلا مع الحرية ، فلا حب مع القيود والسلاسل وأسواق العبيد، فعندما ذهب العاشق ليشترى طيورًا وزهورًا لحبيبته عاد ليجد حبيبته . وعندما ذهب ليشترى سلاسل وقيودًا .. وعندما ذهب إلى سوق العبيد .. بحث عن حبيبته فلم يجدها . فلا حب بغير حرية .

على أن الشاعر (بريفير) لا يشغل نفسه وقصائده بتجارب الحب فقط . إن قلبه يتميز بنزعة إنسانية عميقة صادقة وهو يعيش فى (الشوارع) يقرأ ما يدور فيها قراءة جيدة ، ويراقب الأحداث الصغيرة التى تقع فى هذه الشوارع ، ويحس بانعكاس هذه الأحداث فى النفوس والعقول ، قبل أن يحسها فى الواقع الخارجى ، بل إن هذه الأحداث قد لا تقع فى الخارج ، وتظل مجرد أفكار ومشاعر داخلية ، ولكنها لا تخفى على الشاعر الحساس ، فهو يلتقطها ويعبر عنها ويغنيها ، فيسعدنا أحيانًا ، ويشجينا ويثير فينا الأحزان فى لحظات أخرى . ففى قصيدة طويلة عنوانها (أحداث) يسجل الشاعر بعض المظاهر التى تقع أمامه ، ويسجلها على لسان (عصفورة) تدعو الناس إلى

التضامن ، والفقراء إلى التعاون ، والإنسانية كلها إلى التخلص من الظلم وأسبابه المختلفة ، لأن الظلم يؤدى إلى مظاهر من الشقاء البشرى لا يحتملها قلب الفنان.

يقول (بريفير) فى ختام قصيدته الطويلة (أحداث) : (الجميع يأكلون . ما عدا العامل العاطل . لا يأكل لأنه لا يجد ما يأكله . أنه جالس على الرصيف وهو متعب جدًا .. منذ أن أخذ ينتظر أن تتغير الأشياء . أخذ الانتظار يرهقه . ينهض فجأة ويمضى فجأة . بحثا عن الآخرين. الآخرين . الآخرين الذين لا يأكلون لأنهم لا يجدون ما يأكلونه . الآخرين الذين تعبوا أشد التعب . الآخرين الجالسين على الأرصفة الذين ينتظرون . الذين ينتظرون ذلك كله والذين أرهقهم الانتظار .. والذين .. يمضون بحثًا عن الآخرين . جميع الآخرين الذين بلغ بهم التعب أشده . التعب من الانتظار . قالت العصفورة : لصغارها انظروا . إنهم بالآلاف . تطل الصغار برؤوسها من العش . وتنظر إلى الناس وهم يسيرون. قالت العصفورة : إن ظلوا متحدين معًا فسوف يأكلون . لكنهم إن افترقوا فسوف يهلكون . وصاح صغار العصافير : ابقوا متحدين . ابقوا معًا أيها الفقراء. ابقوا متحدين . ويسمعها بعض الناس فيحيونها بأيديهم .. ويبتسمون).

هذا هو مقطع من قصيدة (أحداث) يتحدث فيه الشاعر على لسان عصفورة تراقب ما يجرى فى الحياة التى يعانى منها الناس . والقصيدة مكتوبة خلال الحرب العالمية الثانية ، أى فى تلك الفترة التى تعرضت فيها أوروبا للكثير من ألوان البؤس والشقاء ، والشاعر هنا يصور العاطلين ومحنتهم ، وهم جميعًا ، بأوضاعهم البائسة ، كانوا نتيجة من نتائج الحرب التى دمرت المصانع والبيوت ،وأسالت الدماء ، وأفقدت الفقراء أرزاقهم ولقمة خبزهم ، والقصيدة كما نلاحظ مليئة بالتكرار ، وهو تكرار جميل ومقصود ، ففيه تأكيد على المعانى والمواقف ، وفيه تشابه كبير مع طريقة الناس وهم يتحدثون فى حياتهم

العادية لأن الشاعر يلتقط أفكاره وأسلوبه فى التعبير من الحياة ومن الشارع الذى يحبه ، ويرى أنه هو المسرح الحقيقى الذى يكشف تجارب الناس ويعرضها فى صدق ودون افتعال .

وفى القصيدة نلاحظ أنها كلها تقوم على (الحركة) و(الأفعال) المتتالية ، وهذا هو ما يجرى فى الحياة نفسها . ولو وقفنا فى أى شارع كبير فسوف نجد أن (الحركة) فيه هى الأساس ، وأن هذه (الحركة) تجرى فيها مثلما تجرى الأمواج فى النهر . فلغة الشعر هنا مستمدة من الحياة نفسها ومن حركتها الطبيعية الجارية المتدفقة .

ولا يمكن أن نترك الحديث عن (جاك بريفير) دون أن نشير إلى ما فى قلبه وفنه معًا من عطف نبيل على الضعف الإنسانى ، فالضعف الإنسانى موجود وحقيقى ، وهو أمر لا يمكن علاجه بالقسوة والعنف ، وإنما يكون العلاج بالرحمة والحنان ، والتضامن والتسامح . وهذه صورة شعرية بديعة تقدمها لنا قصيدته التى جعل عنوانها (لما تنجح الحفلة الموسيقية) وفى هذه القصيدة يقدم إلينا (بريفير) صورة حية لموسيقار شاب ، من هؤلاء الذين ينتشرون فى شوارع باريس ، فيعزفون ألحانهم وينتظرون أن يقدم لهم الناس بعض العون المادى ، والعازف الذى تقدمه لنا القصيدة حاول مع بعض أصدقائه أن يكون موسيقيًا محترفًا ، يقدم الحفلات الموسيقية للناس ، لكنه لم ينجح فى هذه التجربة ، وخرج منها بعائد ضئيل للغاية . إلا أنه كان صادقًا فى تفسيره لما جرى له ، فهو لا يلوم أحدًا ، وإنما يلوم نفسه ، ولذلك فهو يعود مرة أخرى إلى الشارع الذى جاء منه . يعزف للمارة والعابرين وينتظر منهم العون والمساعدة . ومع أبيات هذه القصيدة نعيش مع محنة هذا العازف البائس لحظة بلحظة .

يقول (بريفيير) فى قصيدته على لسان العازف : (يا رفاق الشدائد . أتمنى لكم ليلة سعيدة . فأنا منصرف . لقد كان الدخل رديئًا . الغلطة غلطتى. جميع الأخطاء تقع على عاتقى . كان ينبغى أن أصغى إليكم .. أن أعرف موسيقى

عذبة .. موسيقى سارة . لكنى ركبت رأسى . تعرضت أعصابى للتوتر. وعندما نعزف الموسيقى الصعبة ينبغى أن نحسن العزف ، الناس لا يأتون إلى الحفلات الموسيقية ليستمعوا إلى صرخات ، وأغنيات مليئة بالنشاز .. أتمنى لكم ليلة سعيدة . ناموا ، احلموا . أما أنا فسأخذ قبعتى وانصرف . يا رفاق الشدائد . اذكرونى أحيانًا ، فيما بعد . إذا ما استيقظتم فكروا فيمن يعزف ألحانًا فى مكان ما . فى المساء على شاطئ البحر . ثم يجمع الصدقات ليشترى ما يأكله وما يشربه يا رفاق الشدائد . ناموا احلموا فأنا منصرف) .

هذه نماذج من قصائد الشاعر الفنان الذى ضاق بالمدارس وقال عن نفسه إنه تعلم فى شوارع باريس . والشارع هنا هو الحياة ، فالحياة هى التى علمته وهى التى أشعلت موهبته الكامنة فيه ، وجعلت منه واحدًا من كبار شعراء الإنسانية واسمه (جاك بريفير) وهو فنان أنجبته شوارع باريس .

موسيقى الحياة

لكل حياة فى هذه الدنيا موسيقاها الخاصة . فكل فرد لـه موسيقاه ، وكل مجتمع له موسيقاه أيضًا . وأعنى بذلك تلك (الموسيقى الخفيـة) وغير الظاهرة لنا ، والتى لا نسمعها بآذاننا وإنما ننصت إليها بقلوبنا . فعندما يقبل عليك شخص قريب ومحبوب لك فأنت تحس أنك تسمع فى وجوده نغمات جميلة تعزفها أنامل رقيقة غير مرئية على (البيانو) وعندما ترى شخصًا غير محبوب وصانعًا للمتاعب وممتلئًا بالمشاعر المظلمة ،فإن ذلك يثير فى نفسك صوت الطبول الزاعقة المقلقة للأعصاب ، فموسيقى هذا الشخص مليئة بالنشاز والفوضى والاضطراب والعكارة الروحية وكل شخص له موسيقاه التى يوحى بها إلى الآخرين . وكذلك المجتمعات . فكل مجتمع له موسيقاه أيضًا . هناك مجتمعات توحى إليك بأن الحياة فيها تبدو ناعمة منسجمة مع بعضها البعض، فكأنها لحن عذب والعواطف النبيلة الأخرى . فماذا يجدى النجاح وحده فى هذه الحالة ؟

إنه نجاح مر ، وهو نجاح لا يختلف عن الفشل فى آخر الأمر . التوازن فى (موسيقى الحياة) مطلوب وأساسى ولا غنى عنه ، حتى لو كان هناك آلة رئيسية فى (موسيقى الحياة) مثل الحب أو الفن أو المال أو النجاح فى أى مجال ، فينبغى ألا يؤدى العزف على هذه الآلة إلى إهمال الآلات الأخرى . فذلك لا ينتج عنه إلا (النشاز) أو (الخطأ) وهو بالتأكيد سوف يؤدى إلى اختلال شديد فى (موسيقى الحياة) .

وهذه (قصة قصيرة) بديعة للكاتب الإيطالى الكبير (لويجى بيرانديللو) ١٨٦٧-١٩٣٦ وهو الكاتب الذى حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٣٤ ، كما أنه مشهور فى العالم بمسرحيته الجميلة (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) وقد تم تقديم هذه المسرحية الرائعة على خشبة المسرح القومى فى الستينات .

وهذه القصة القصيرة التى كتبها (بيرانديللو) عنوانها (كانديلورا) وبطلها فنان ورسام ونحات ، وكان هذا الفنان الموهوب لا يعنيه فى الدنيا سوى فنه، فكل شئ عنده مباح ، إلا شئ واحد هو الفن الذى يعطيه كل اهتمامه وتركيزه وأوقات ليله ونهاره ، أى أن هذا الفنان المبدع قد نسى كل شئ حوله إلا الفن، ورضى بكل شئ مهما كان رديئًا وسيئًا ما دام هذا الشئ يتيح له التفرغ لفنه والتركيز عليه .

وببساطة ، فإن هذا الفنان قد أخل بموسيقى الحياة ، ولم يمنح هذه الموسيقى الحياة ، ولم يمنح هذه الموسيقى ما تحتاج إليه من التوازن بالعزف على آلات متعددة وليس على آلة واحدة ، واكتفى بأن يعزف ليلاً ونهارًا على آلته الوحيدة وهى (الفن) الذى يعشقه ويهواه .

هذا الفنان اسمه فى القصة (نين بابا) وهذا الفنان له زوجة جميلة تحبه اسمها (كانديلورا) ومن اسمها أخذ (بيرانديللو) اسم القصة .

والفنان فقير ، والتفرغ لفنه الجميل الصعب ، وهو الرسم والنحت يحتاج إلى مورد مالى مريح ، وهو لا يملك شيئًا من ذلك .

وهذا الفنان يحتاج أيضًا إلى أن يبيع لوحاته وتماثيله ، وهذا الأمر لا يتيسر أبدًا إلا بمساندة النقاد المشهورين الذين يعتمد الجمهور على آرائهم ، ويميز عن طريقهم بين الفن الذى له قيمة والفن الذى لا قيمة له .

والفنان (نين بابا) ليس معه مال ، ولا تأثير له على النقاد الذين ينظرون إليه – رغم جمال فنه – نظرة متواضعة . ولا غرابة فى ذلك ، فأحيانًا يكون النقاد قساة ومغرضين . وفى أحوال غير قليلة يعجز النقاد عن فهم العبقريات المعاصرة لهم ، فيهملونها ، حتى يأتى جيل جديد ، بعد رحيل العباقرة فيفهمهم ويتحمس لهم ، وكم من عبقرى مات جائعًا ، ثم أصبحت أعماله بعد رحيله يتهافت عليها الناس وتباع بالملايين .

وللعرب فى ذلك مثل جميل يقول : (.. المعاصرة حجاب) أى أن المعاصرين لا يفهمون بعضهم البعض ، ولا ينصفون بعضهم البعض كما ينبغى أن يكون الإنصاف .

وهذا حق، وإن كان فيه بعض المرارة ، ولكنه من حقائق الحياة التى لا حيلة لنا فيها .

ونعود إلى الفنان الذى يحدثنا عنه (بيرانديللو) فى قصته وهو (نين بابا) .. إنه يعطى كل حيويته ونشاطه واهتمامه لفنه . ولكن لا أحد يهتم به أو يلتفت إليه أو يشترى منه أى لوحة أو تمثال .

الفقر يطارده ، والجوع يهدده .

وهنا تتدخل زوجته الجميلة ، لتضع حلا للمشكلة، ولكن بأى ثمن !

استطاعت الزوجة أن تلتقط (بارونا) إيطاليا غنيا ، كان قد أصيب بلوثة من الإعجاب بجمالها وفتنتها ، فدعاها مع زوجها للحياة فى قصره الواسع الفاخر، ورضى فى سعادة – أن ينفق عليها وعلى زوجها الفنان بسخاء شديد .

كان (البارون) من كبار الأغنياء ، ولكنه كان أيضًا من كبار التافهين الذين لا يفهمون شيئًا فى الفن ولا يهتمون به .

وكان هذا (البارون) فى الأساس معجبًا بجمال الزوجة ، ومن أجل خاطرها سمح للزوج الفنان بالحياة فى قصره ورضى بالإنفاق عليه لكى يتفرغ لفنه .. حتى تتفرغ الزوجة للبارون .

ولم يغضب الزوج الفنان من هذا الوضع المشين ، لأن هدفه الأسمى والأكبر هو أن يتفرغ لفنه .. وليذهب كل شئ بعد ذلك إلى الجحيم .

وكان هناك مشكلة أخرى هى مشكلة النقاد الذين لا يعبأون بالفنان ولا يهتمون بأعماله .

وتكفلت الزوجة مرة أخرى بحل المشكلة .

وذهبت الزوجة الجميلة إلى أشهر ناقد فى عصرها ، وهنا نقرأ ما كتبه (بيراند يللو) فى قصته عن هذا اللقاء حيث يقول فى قسوة :

(النقد ؟ إن كلمة النقد لا وجود لها إلا فى (سراويل) النقاد . والناقد الذى ذهبت إليه الزوجة (كانديلورا) وهى خائفة فى يوم من الأيام ، لكى تقول له فى وجهه إنه غير عادل حين يؤدى بفنان مثل زوجها (نين بابا) إلى التهلكة من الجوع .. ذلك الناقد صاحب الكلمة النافذة .. كتب مقالاً عظيمًا يلفت به أنظار الجمهور إلى فن (نين بابا) الجديد ، وما فيه من طابع شخصى . ولكنه طلب أجرًا مقابل اعترافه بالفنان ، على ألا يتم دفع هذا الأجر (نقدًا) بل طلب منها (شكرًا حيويًا) تقدمه الزوجة ، أى طلب جسمها الجميل . ولم يكن أمام هذه الزوجة إلا أن تقدم الشكر جزيلاً لهذا الناقد . ولم تقتصر على هذا الناقد وحده ، بل عممت الشكر على الذين أعجبوا بفن زوجها .. ذلك الفن الجديد فقد ملكتها نشوة الفرح لانتصار زوجها .. وشكرت الجميع وخاصة (البارون) الذى بلغ فى كرمه ،وتقديره لجمال الزوجة ، وحرصه على إسعادها ، وامتنانه للثمن الذى دفعه له حدًا جعله يترك للزوجين منزله الكبير ، حتى يكون له شرف إيواء فنان معذب ..) .

كان الزوج على معرفة كاملة بما تقوم به زوجته ولكنه كان لا يبالى بشئ ما دام قد أتيح له أن يتفرغ لفنه ، وهو الهدف الأساسى الذى يركز عليه فى حياته كلها ، فلا يهم بعد ذلك أى شئ آخر . يقول (بيرانديللو) عن هذا الزوج الفنان : (لقد بقى دون أن يتغير فى شئ فلا هو حزين ولا هو فرحان ، وقد ظل كما كان دائمًا مهملاً فى هندامه . ولا يشعر بالبهجة إلا مع ألوانه ، ولا يعرف مطلقًا سوى التفرغ لفنه ، حتى يصل إلى القرار البعيد العميق فى هذا الفن ، دون أن يشغل نفسه بشئ من صور الحياة العملية التى تحيط به، إنه يقدم روحه وكل ما فيه من حيوية إلى ورقة يملؤها بالحياة عن طريق رسومه، وهو يعصر نفسه لحمًا ودمًا وشرايين على تلك الورقة ، أو يعصر ذلك كله فى

حجر صلب ليحوله عن طريق فنه إلى تمثال ، أو بمعنى آخر إلى حجر حى حساس ، هذا كل ما يعنيه . أما عاره أو حياته أو حياة الآخرين أو الشتائم التى تتردد حول (اسمه) فلا فائدة عنده من الإنصات إلى شئ من ذلك . إنه لا يحيا إلا لفنه ، وهو العمل الوحيد الذى يتمخض عنه النور والألم ، وهو كل ما يهتم به ، ويصرف جهده فيه).

وقد كان بالإمكان أن تمضى الأمور على ما هى عليه ، لولا شئ واحد بسيط ولكنه أساسى ، وهو أن زوجة الفنان كانت تحبه حبًا حقيقيًا ، وتنتظر منه أن يكون حبه لها بنفس القوة والقدر ، وكان يقول لها وهو يضحك :

(إنها تعجبه ، لأنها ارتضت أن تكون شريكة مطيعة فى الحياة غير عابئة بالفقر ، وأنه يطمئن إلى صدرها (الحنون) ولكن الزوجة الحساسة كانت تشعر فى أعماقها بشئ آخر .

فزوجها الفنان لا يغار عليها، ولا يشعر بالعار من أنها - بمعرفته - تعطى جسمها للآخرين، مادام ذلك يتم لمصلحته ومن أجل توفير التفرغ الكامل له.

إنها تشعر فى أعماقها أن هذا الموقف من جانب زوجها الفنان يعنى أنه لا يحبها حبًا حقيقيًا يساوى حبها له .

لو كان يحبها حقًا ، لشعر بالغيرة ، وأحس بالعار والألم مما تفعله ، ولقال لها : أنت عندى أهم من أى شئ آخر ، ولمنعها من منح جسمها للآخرين !

ولكنه لا يهتم بذلك ولا يغضب .

وفى حوار بينهما ثارت الزوجة ثورة عنيفة وأراد الزوج أن يداعبها ويمسك بدقنها ولكنها (قبضت على ذراعه وفتحت فمها كحيوان مفترس) وعضته ، وطالت عضتها ، وكانت أسنانها تنغرس بقوة فى الذراع ، وانحنى الزوج حتى يمكنها من ذراعه ، واطبقت على أسنانه ، وابتسم هادئًا للألم المروع الذى سببته له . وازدادت عيناه ضياء واتساعًا . ولما ابتعدت أسنان زوجته عن ذراعه أحس بأن موضع (العضة) جرح من نار ، ولم ينبس بكلمة وأخرج فى

هدوء ذراعه من ردائه ، ولكن قميصه لم يطاوعه ، إذ كان قد انغرس فى اللحم الحى . وانطبعت على كم القميص بقعة على شكل دائرة من الدم ، هى دائرة أسنان زوجته القوية ، وأخيرًا تمكن الزوج من إخراج كم قميصه ، والابتسامة لم تفارق وجهه الشاحب ، وكانت رؤية الذراع وحدها تثير الفزع . فموضع كل سنة من أسنان الزوجة فى الدائرة الدموية جرح . وكان اللحم المحيط بالدائرة قد أصبح أسود اللون . وقال الزوج لزوجته مظهرًا لها ذراعه : (ألا ترين؟).

وصرخت الزوجة فى وجهه وهى ملقاة على المقعد :

(هكذا أريد أن أعض قلبك !).

وطلب الزوج من زوجته أن تأتيه بصبغة اليود والشاش المعقم ،وقال لها وهو يبتسم (.. إننى أعلم أنك حيوان صغير مفترس ، يحب العض ، ولذلك أحرص دائمًا على وجود صبغة اليود والشاش والمضادات اللازمة).

وتركته الزوجة وذهبت إلى حجرة المكتب ، حيث يوجد ما طلبه الزوج من الإسعافات الأولية .

وغابت الزوجة وقتًا أطول من اللازم .

وذهب الزوج إليها فوجدها ملقاة على الأرض وإلى جانبها مسدس والدم ينزف منها ، لقد انتحرت الزوجة الجميلة (وسقط الزوج على جثمانها وانفجر فى بكاء مرير) .

انتحرت الزوجة لأنها أحست أن حبيبها الوحيد الذى يملأ قلبها وهو زوجها الفنان لا يعبأ بعواطفها ، ولا يحرص عليها ، ولا يبادلها حبها القوى بنفس القوة .

وقد انتظرت الزوجة طويلاً ، لعل عواطف زوجها النائمة تستيقظ ويقدم إليها أهم ما تحتاجه فى هذه الدنيا وهو حبه لها ولكن انتظارها الطويل كان بغير نتيجة .

وفى هذه القصة نجد أن بطلها الفنان كان شديد التركيز على فنه ، لا يـرى شيئًا غيره ، ولذلك لم يستطع أن يدرك كم كانت زوجته الجميلة تحبه ، وكـم كانت بحاجة لأن تشعر بأنه يحبها ويغـار عليـها ، ويتـألم لهـا ، ويرفـض أن يمسها إنسان ، ولكنه كان فى تركيزه الجنونى على عمله ، لا يـهتم بشـئ ولا يعبأ بشئ غير فنه .

لقد فقـد هـذا الـزوج أذنـه الموسـيقية ، فلـم يعـد يحـس إحساسًـا صحيحًـا بموسيقى الحياة ، ذلك أنه كان يريد أن يعزف على وتر واحد أو آلـة واحـدة، وموسـيقى الحيـاة لا تبـدع العـزف الجميـل إلا علـى عـدة آلات أو عـدة أوتـار والتوازن بين الآلات والأوتار جميعًا لابد منه ولا غنى عنه . والذين لا هـم لهـم إلا التركيز على هدف واحد . ونسيان كل ما عداه يخطئون . ويدفعون بأنفسهم إلى أزمة مؤلمة ، وقد تتحول هذه الأزمة فى لحظة من اللحظات إلى مأساة ، كما حدث لبطل قصة (بيرانديللو).

التركيز ضرورى على هدف رئيسى فى الحياة ، ولكن الـتركيز المطلـق علـى هدف واحد ، والغيبوبة الكاملة عن كل شئ آخر يحيط بهذا الهدف خطأ لابـد أن يؤدى إلى فجيعة ، فموسيقى الحياة لا تعطينـا سـرها وسـحرها الجميـل إلا بالعزف على آلات متعددة ، دون أن يمنع ذلك وجود آلة كبرى رئيسية ، أمـا أن نطلب (موسيقى الحياة) من آلة واحدة ، أو هدف واحد لا نرى أمامنا سواه .. فكأننا بذلك نريد أن نعزف سيمفونية كاملة لبيتهوفن .. على طبلة !

أغنية أمام القضاء

الشاعر والكاتب المسرحى الألمانى "برتولت بريخت" "١٨٩٨-١٩٥٦" هو واحد من أنبغ وأنبل الرجال الذين عاشوا فى القرن العشرين وأثروا فيه، وكل عواصم الدنيا المتحضرة تترجم أعماله المسرحية وتعرضها فى حب واهتمام، أما قصائده فالناس يقرأونها ويرددونها بكل لغات العالم المعروفة، وكبار الموسيقيين يقومون بتلحين كثير من هذه القصائد لتغنيها أجمل الأصوات القادرة على الغناء، وكثيرا ما تتحول هذه الأغانى إلى أناشيد جماعية يرددها عمال أو فلاحون أو شباب وطلاب يتطلعون إلى المستقبل ويحاولون أن يجدوا لأنفسهم مكانا فيه. وقصائد بريخت تحتفظ بدفء الشعر دائما، حتى لو تمت ترجمتها من الألمانية، وهى لغتها الأصلية، إلى أى لغة أخرى. والسر فى ذلك أنها قصائد شاعر كبير موهوب، قلبه عامر بحب الإنسان والتعاطف الصادق معه فى كل محنة يتعرض لها أو ظلم يقع عليه.

قصائد هذا الفنان الإنسانى واضحة وبسيطة ومليئة بالتفاؤل والقدرة على المواساة، وكل من يقرأ هذه القصائد يحس بأن يدا كريمة تمتد إليه فى عطف وحنان. والذين يشعرون بالحزن يبتسمون من قلوبهم بعد قراءة هذه القصائد. واليائسون يشعرون بالأمل، والغاضبون على الدنيا والناس يهدأون ويحسون أن الخير له يومه الذى لابد أن ينتصر فيه.

خرج بريخت من ألمانيا بعد استيلاء هتلر وحزبه النازى على السلطة سنة ١٩٣٣، وعاش متنقلا بين الدانمرك والسويد وفنلندا، وكانت شهرته الأدبية تسبقه إلى كل مكان يذهب إليه، ولكن يد "هتلر" كانت ممتدة إلى معظم البلاد الأوروبية، وكان عملاؤه يطاردون "بريخت" فى كل مكان، فقصائد "بريخت" ومسرحياته كانت تصل سراً إلى ألمانيا، وكانت هذه الأعمال الفنية مليئة بالتحريض ضد هتلر ونظامه النازى، ولذلك أصبح "بريخت" هدفاً لعملاء هتلر المنتشرين فى كل مكان من أوربا، وفى سنة ١٩٤١ قرر "بريخت" أن يهاجر

إلى أمريكا، وكانت أمريكا فى ذلك الوقت تبدو كأنها أكبر واحة للحرية فى العالم كله. وعاش بريخت فى أمريكا من ١٩٤١ إلى ١٩٤٧، وكان يحاول خلال هذه الفترة أن يحصل على الجنسية الأمريكية لكى يستقر هناك بصورة نهائية، ولكنه فوجئ سنة ١٩٤٧ باستدعائه إلى واشنطن مع عدد آخر من الكتاب والفنانين الأمريكان، وذلك لمحاكمتهم أمام لجنة قضائية ألفها الكونجرس وسماها باسم "لجنة التحقيق فى النشاط المعادى لأمريكا". وقررت هذه اللجنة طرد "بريخت" من أمريكا، عقابا له على التهمة الباطلة الموجهة إليه، وهى أنه "يمارس نشاطا معاديا لأمريكا داخل أمريكا نفسها". وخرج بريخت من أمريكا ليعود إلى التنقل بين البلدان المختلفة حتى وفاته سنة ١٩٥٦.

وهكذا عاش بريخت حياة مضطربة، فهو يخرج من منفى إلى منفى آخر، ولكن نفسه دائما كانت راضية ومطمئنة، وكانت أهدافه الإنسانية فى قصائده ومسرحياته غاية فى الوضوح والصدق والثبات والأمانة.

وقد كتب بريخت فى مذكراته المتناثرة عن بعض ما تعرض له من اضطراب واضطهاد، سواء أكان ذلك فى ألمانيا، أو فى أمريكا زعيمة الحرية كما كانت تدعى فى ذلك الوقت، ومن الممتع والمفيد أن نقرأ بعض ما جاء فى هذه المذكرات حتى نرى صورة حية لفنان لم يحمل فى قلبه إلا الحب والخير والإيمان بالإنسان، ومع ذلك تعرض لعذاب شديد صبته عليه الأنظمة السياسية المختلفة، ولكن بريخت لم يفقد أبدا صفاء نفسه وثقته بأهدافه ومبادئه، وقد تكون الأحداث الصعبة الكثيرة التى مرت به سببا فى إضعاف صحته، فقد مات فى الثامنة والخمسين، وكان بريخت فى حياته رجلا منظما صاحب طبيعة مستقيمة، مما كان يؤهله لأن يمنحه الله حياة أطول، لولا المتاعب الكثيرة التى حاصرته وأضعفته.

ونعود إلى بعض الصفحات من مذكرات بريخت، لنتوقف أمام خروجه من ألمانيا سنة ١٩٣٣، حيث يقول:

"إن ألمانيا قبل ظهور النازية وسيطرتها على السلطة كانت تطرح شعارا رضى به الجميع، وهو أن (الفن ملك للشعب)، وكان العمال الألمان على درجة طيبة من الثقافة والتعليم وكانوا يمثلون جانبا أساسيا من جماهير القراء والمترددين على المسرح والمهتمين بالفنون والآداب، وكانت الأزمة الاقتصادية المدمرة التى هددت الشعب الألمانى بعد الحرب العالمية الأولى تثير القلق فى نفوسنا جميعا، وبدأت أكتب القصائد والأغنيات التى تعكس مشاعر الشعب وتهاجم أعداءه، وكان أعداء الشعب هؤلاء يتجمعون تحت راية "هتلر" حتى قبل وصوله إلى السلطة، ولم يلبث هذا الزعيم النازى صاحب الصوت الذى يشبه صوت الذئاب، أن وصل إلى السلطة سنة ١٩٣٣ وكانت الهجمة الأولى لهتلر والنازية ضد الثقافة والمثقفين، فقد منع الرسامين من الرسم، واستولى على دور النشر والصحف والمسارح واستوديوهات السينما، وفى شهر فبراير ١٩٣٣ غادرت ألمانيا، وكان ذلك فى اليوم التالى مباشرة للحريق الذى كان معروفا باسم "الرايشستاج" وبعد هذا الحريق بدأت الهجرة الجماعية للفنانين والأدباء والعلماء الألمان بشكل لم ير العالم مثيلا له من قبل".

ذلك بعض ما جاء فى مذكرات بريخت. وبعد خروج بريخت من ألمانيا ذهب إلى الدانمرك ثم السويد ثم إلى فنلندا، حتى استطاع أن يحصل على تأشيرة دخول إلى أمريكا فوصل إليها سنة ١٩٤١، وكان - كما أشرنا - نوى الاستقرار النهائى فيها، ولكن محاكمته هناك سنة ١٩٤٧ انتهت بطرده فعاد إلى أوروبا من جديد.

فى المحاكمة قال بريخت دفاعا عن نفسه:

"أنا كاتب مستقل، وقد حرصت دائما على أن أكون كاتبا مستقلا، وكنت وما زلت أعتقد أنه من الأفضل لى ألا أنضم إلى أى حزب من الأحزاب. وكل ما كتبته كان موجها إلى الناس من كل الاتجاهات.. إلى الاشتراكيين والديمقراطيين والمتدينين والذين لا ينتمون إلى أى حزب من الأحزاب".

ثم يقول بريخت فى المحاكمة أيضا:

"إن كتاباتى كلها، حتى تلك التى كانت موجهة إلى هتلر ونظامه النازى،كانت ذات طبيعة أدبية خالصة، وكانت مستقلة تماما عن أى حزب من الأحزاب، وقد امتنعت كضيف على أمريكا عن أى نشاط سياسى يتعلق بهذه البلاد، ولكن محاكمتى الآن "سنة ١٩٤٧" أمام لجنة النشاط المعادى لأمريكا تتيح لى أن أقول بعض كلمات عن الشئون الأمريكية. فأنا عندما أنظر إلى الوراء وأتذكر خبراتى كشاعر وكاتب مسرحى فى أوروبا خلال العشرينات والثلاثينات، أشعر أننى أريد أن أقول إن الشعب الأمريكى العظيم سوف يفقد الكثير وسوف يقامر بالكثير إذا سمح بأى قيود يمكن أن تمس المنافسة الحرة للآراء فى ميدان الفكر والفنون، فالفن يجب أن يكون حرا لكى يكون فنا، ونحن نعيش فى عالم شديد الخطورة، وقد وصلت حضارتنا إلى مرحلة أصبحت فيها البشرية قادرة على تحقيق غزارة فى الإنتاج، وثراء غير محدود، ومع ذلك فالفقر يزداد فى العالم رغم هذا الثراء الضخم الذى أتيح للبشرية الآن. وهذا الوضع يهدد الإنسانية كلها، ولو استمر الوضع على هذه الصورة فربما أصبحنا الجيل الأخير على الأرض من هذا النوع من المخلوقات الذى يسمى باسم الإنسان".

ويواصل بريخت حديثه فيقول:

"إن الآراء لم تتطور كثيرا حول الطريقة الصحيحة لاستخدام الثراء الذى تحقق عن طريق التقدم الكبير فى قدرات الإنسان.. لم تتطور هذه الآراء منذ تلك العصور القديمة التى كانت الخيول فيها تقوم بما لا يستطيع الإنسان عمله. وفى مثل هذه الأزمة الإنسانية التى تتمثل فى الإنتاج الضخم والثراء الكبير، مع بقاء الفقر على حاله بل واتساع مساحته فى شتى أنحاء الأرض، فإنه يجب فحص كل فكرة جديدة بعناية وحرية، والفن يستطيع أن يعرض مثل هذه الأفكار ويجعلها أكثر نبلا إذا توافرت له الحرية الصحيحة".

ويروى بريخت أنه قد استدعى للمحاكمة أمام لجنة "النشاط المعادى لأمريكا" مع ثمانية عشر آخرين من الكتاب والمخرجين السينمائيين والممثلين الأمريكان. وقد رفض هؤلاء الفنانون الأمريكان الإجابة عن أسئلة المحكمة حول انتماءاتهم السياسية، ذلك لأن الدستور الأمريكى ينص على عدم سؤال أحد عن دينه وأفكاره وانتماءاته السياسية. وقد تمسك هؤلاء الفنانون بنصوص الدستور، وحول هذا الموقف يقول بريخت:

"لقد احتمى هؤلاء الفنانون الأمريكيون بالدستور، ولكن الدستور نفسه لم يكن يتمتع بأى حماية. وفى الحقيقة فإنهم أدركوا انهم يتعرضون للخطر باعتمادهم على دستورهم، فلن يحميهم هذا الدستور من السجن أو من إغلاق أبواب الرزق فى وجوههم، ولكنهم مع ذلك لم يفكروا فى أن يتجنبوا هذا الخطر، فقد كانوا يحاولون أن يقولوا لبلادهم أنها هى نفسها فى خطر، وقد صاح هؤلاء الفنانون الذين لا يعرفون الخوف فى وجه قضاتهم هيا.. اظهروا أيها القضاة على حقيقتكم أمام الجمهور. أمسكوا عصاكم وحطموا الأبرياء أمام كل العيون، وبعد ذلك فإنكم لن تستطيعوا أن تخدموا أحدا من الناس، وقد أمسك هؤلاء القضاة بالعصا وحطموا الأبرياء، وتعلمنا نحن من ذلك شيئا عن نوع العدالة فى أمريكا، وتعلمنا أن هناك من هم على استعداد للتضحية بأنفسهم، لكى يعرف الناس الحقيقة فى أمريكا، ولكى يعرفها الناس فى العالم كله".

ثم ينهى بريخت حديثه عن هذه المحاكمة موجها الكلام إلى الفنانين الأمريكيين الذين كانوا معه فى قفص الاتهام قائلا:

"... أحييكم أيها الأصدقاء"..

ثم يشير بريخت إلى أن بعض هؤلاء الفنانين الأمريكيين قد دخلوا السجن وبعضهم الآخر تعرضوا لحرب خفية أغلقت فى وجوههم أبواب العمل فتعرضوا للبطالة والأزمات الاقتصادية الساحقة، أما بريخت نفسه فقد نجا من هذا

المصير لأنه لم يكن أمريكيا، واكتفى القضاء الأمريكى بطرده من البلاد، فعاد إلى أوروبا التى رحبت به، وفتحت له أبوابها، واهتمت بفنه اهتماما واسعا.

وكان من التهم الطريفة التى وجهتها المحكمة إلى بريخت أنه كتب قصيدة عنوانها "فى مدح التعليم" وهذه القصيدة لحنها موسيقار أمريكى معروف بميوله اليسارية وهو "هانز ايسلر" وسجلها على أسطوانة، وكانت هذه الأغنية من أشهر الأغانى التى يرددها الأمريكان والأوربيون فى الأربعينات، وخاصة أبناء الطبقات الشعبية العاملة والفقيرة.

يقول بريخت فى هذه الأغنية التى كانت من أسباب محاكمته:

"تعلموا الأبجدية الآن.. أنها لا تكفى، ولكن تعلموها مع ذلك.. أيها الرجال الذين يعيشون على إعانة البطالة.. تعلموها.. أيها النزلاء فى السجون.. تعلموها. أيها الشيوخ فى سن الخامسة والستين.. تعلموها أيتها النساء فى المطابخ.. تعلمنها. فيجب عليكم أن تكونوا على استعداد لتحمل المسئولية، وأن تأخذوا الأمور على عاتقكم بأنفسكم"..

ما هو وجه الاهتمام فى هذه الأغنية البسيطة الجميلة التى تحض على التعليم وتمدحه؟ لقد وجهت المحكمة إلى بريخت تهمة حض الطبقات الشعبية للاستيلاء على السلطة بالقوة، لأنه يقول فى الأغنية ".. يجب عليكم أن تأخذوا الأمور على عاتقكم"... وقد أصرت المحكمة على أن الأغنية فى أصلها الألمانى تقول: يجب عليكم أن تأخذوا القيادة على عاتقكم" و"القيادة" معناها "السلطة" والأغنية إذن تحرض على الثورة.

وهكذا تم وضع الأغنية البسيطة التى كتبها بريخت "فى مدح التعليم" مع صاحبها فى قفص الاتهام، وتم الحكم على الأغنية بعد انتشارها واشتهارها بالإعدام، أما صاحب الأغنية الشاعر الإنسانى العظيم بريخت فقد حكموا عليه بالطرد من أمريكا لعله يتوقف عن كتابة الأغنيات المثيرة والقصائد التى تحنو على الإنسان فى همومه ومتاعبه وأحزانه..

آمنت بالحرية

أثمن ما يملك الإنسان فى هذه الدنيا هو الحرية. والبعض يقتصرون فى فهم الحرية على معناها السياسى وحده، أى يكون الإنسان مواطنا فى بلد لا تخضع للاستعمار ولا يحكمها طاغية جبار. وهذا معنى مهم من معانى الحرية، ولكنه ليس معناها الوحيد. فالحرية لها معنى إنسانى ولها معنى اقتصادى. وبعض الفلاسفة يقولون أن الحرية هى التغلب على الضرورة، وهذا التعريف الفلسفى الذى يبدو فى ظاهره صعبا معناه سهل وميسور. فالذى يعيش فى ضرورة ناشئة من صعوبة كسب الرزق الكافى له ولأسرته، ليس حرا. والجاهل الذى لا يستطيع أن يتغلب على ضرورة أن يهتدى إلى عمل مناسب لقدرته ومحافظ على كرامته ليس حرا. والجاهل الذى لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب ليس حرا. والإنسان الذى ليس له أسرة ولا أصدقاء ولا أحباب يشاركونه همومه ومشاعره ليس حرا. والغريب فى بلد لا يعرف فيه أحدا ليس حرا.

وهذا هو معنى التغلب على الضرورة من أجل الوصول إلى الحرية.

ولذلك كله فإن الحرية بالنسبة للإنسان شئ أبعد وأعمق من الحرية السياسية. إن معناها الحقيقى يقترب من معنى الهواء الذى يتنفسه الإنسان والماء الذى يشربه. ولا يمكن أن توجد حياة إنسانية بدون هواء أو ماء أو حرية. فإذا انعدم الهواء والماء مات الإنسان موتا ماديا، وإذا انعدمت الحرية مات الإنسان موتا معنويا وروحيا. ولا فرق بين الموت المادى والموت المعنوى، إلا أن الأول قد يضع حدا لعذاب الإنسان، أما الموت المعنوى فهو عذاب مستمر ودائم، ولذلك فإن البشر فى كثير من الأحيان يفضلون الموت المادى على فقدان الحرية، ومن اجل تضحيتهم يصبحون بالنسبة للضمير الإنسانى شهداء. لأن من يموت من أجل لقمة خبزه أو كرامته أو حقه فى أن يتعلم ويعرف، فهو شهيد.

هذا المعنى الإنسانى للحرية كان النشيد الأكبر لشاعر الحرية فى أمريكا، "والت ويتمان" "١٨١٩-١٨٩٢" فمعظم شعره ينبع من هذه الفكرة الكبيرة. وكل ما كتبه من قصائد يطير فى أجواء الحرية ويدعو إليها ولا يغنى لشىء أعظم من غنائه للحرية.

ولأن هذا الشاعر الإنسانى الرائع كان عاشقا للحرية وداعيا لها، فقد جعل قصائده بسيطة سهلة يستطيع أن يفهمها أى إنسان ويستطيع الناس جميعا أن يتغنوا بها وهم يعملون، أو عندما يركبون المواصلات العامة، أو عندما يسيرون فى الطريق، أو عندما تسيل فوق جباههم قطرة عرق فى سبيل الرزق، أو فى سبيل ابتسامة لطفل صغير يعتمد فى حياته على الحنان ورعاية الآخرين.

ولأن ويتمان كان شاعر الحرية بمعناها الإنسانى الواسع، فقد كانت كل مشاعره قائمة على فضيلة الفضائل وهى التسامح، ولذلك لم يكن "ويتمان" يرفض المخطئين من البشر، والذين وقف منهم المجتمع موقف الرفض والإنكار، فقد كان هذا الشاعر العظيم يفتح صدره لهؤلاء المخطئين، وكان ينظر إليهم على انهم ضحايا ظروفهم وقسوة الناس عليهم، وليسوا مجرمين بطبعهم. وكان هذا الشاعر الإنسانى المبدع ينظر إلى أعماق الناس ولا ينظر إلى المظاهر الخارجية التى يمكن أن تكون مصدرا لإساءة الفهم والتقدير.

هذا الشاعر العجيب كان مصدر فتنة لشعراء جاءوا بعده، ووجدوا فيه بحرا من الصفاء والإنسانية والتدفق الروحى، ولا يمكن لشاعر حقيقى أن يكتب قصيدة لها قيمة أو تأثير قبل أن يستحم فى مياه شاعريته، فهذا هو شاعر أمريكا الكبير "ازرا باوند" (١٨٨٥ – ١٩٧٢) يقول فى إحدى قصائده مخاطبا "ويتمان": "أننى اعقد معك حلفا يا والت ويتمان، فلقد كنت أنت الذى أقتحم الغابة الجديدة، فلدينا، نحن الاثنان جذور واحدة، وعصارة واحدة".

وهناك شاعر أسبانيا العظيم "لوركا" "١٨٩٩-١٩٣٦" الذى قتله الطاغية "فرانكو" وقد ينسى الناس كل جرائم فرانكو، ولكن أحدا لن ينسى له أن لطخ

يديه بدماء شاعر جميل، وهو أجمل هدية فنية قدمتها أسبانيا للدنيا فى القرن العشرين. هذا الشاعر الأسبانى "لوركا" يكتب عن أستاذه وحبيبه "ويتمان" قصيدة ناعمة جدا يتحدث فيها عن "لحية ويتمان" ويقول عنها "إنها لحية مليئة بالفراشات". وهى صورة شعرية تكشف عن إنسانية ويتمان، صاحب اللحية الكبيرة، والذى كان وجهه ينبئ عند النظر إليه بأن صاحبه طيب القلب، محب للناس، عاشق للحرية وصديق للأحرار. وهو إحساس لا يمكن أن يصل إليه إلا من قرأ قصائد "ويتمان" وأحس بها ثم نظر إلى صورته بعد ذلك، وسوف يجد أن هذه اللحية الطويلة على الوجه الطيب هى حقا لحية تنطلق منها فراشات ملونة، تحمل المحبة إلى كل الأزهار، وكل العشاق، وكل العابرين للسبيل فى هذه الحياة.

ومع كل هذا الحب لم يسلم "والت ويتمان" من العداوة له، وسوء الفهم لأشعاره، فعندما ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه "أوراق العشب" سنة ١٨٥٥ "أعترض عليه بعض الشعراء الرسميين، واعتبروه "جريمة أدبية" وأمسكوا ببعض نسخ الديوان وألقوا بها علنا فى النار لتحترق، أما وزير الداخلية فقد فصل الشاعر "ويتمان" من عمله بالوزارة، وكان موظفا بها، واتهمه بأنه شاعر قليل الأدب، وأنه لا يكتب إلا عن الطبقات غير المحترمة فى المجتمع. وكانت الطبعة الأولى من ديوان "أوراق العشب" مطبوعة على نفقة الشاعر فى ثمانمائة نسخة. لأن الشاعر الإنسانى الكبير لم يجد من ينشر له "ديوانه"، فقد كان صوته الشعرى جديدا وغير مفهوم من جانب الناشرين والمؤسسات الثقافية الرسمية القائمة فى عصره.

حياة "ويتمان" ليس فيها بريق أو أضواء خاطفة، فقد عاش حياة حرة أقرب إلى "الصعلكة" منها إلى الحياة القائمة على الترتيب والنظام. فقد ترك المدرسة وهو فى سن الحادية عشرة. ولم يتركها بسبب العجز فى قدراته الذهنية بل بسبب ظروفه الاقتصادية الصعبة التى لم تساعده على إكمال تعليمه والتوسع

فيه ، ولكن انقطاعه عن التعليم الرسمى لم يمنعه من الدراسة الحرة والتوسع فى الثقافة ، فشهوة المعرفة عنده كانت عالية ، وعندما تكون المعرفة هواية للإنسان ، فلا تسأل عن الشهادات ولا تبحث عن الدرجات العلمية ، فحب المعرفة يدفع بالإنسان إلى البحث عنها فى كل مكان والتهام كل ما تصل إليه يده من مصادر ثقافية. وهكذا كان شاعرنا ويتمان ، يملك شغفا بالثقافة والحياة معا ، وقد غرق فيهما بكل ما يملك من حيوية وذكاء وتفتح وجدانى وذهنى ، ويكفى أن نقرأ عبارته عن عميد الأدب الأمريكى فى عصره "امرسون" "١٨٠٣-١٨٨٢" حيث يقول ويتمان عنه "كتب أئز، وأئز، وأئز، حتى دفعنى امرسون إلى الغليان! !" ومعنى ذلك أنه قرأ "امرسون" بعمق وحرارة حتى وصل من خلال هذه القراءة إلى الاشتعال. ولم يكن هذا شأنه مع "امرسون" وحده.. بل مع كل ما كان يقرأه ، ومع كل تجربة من تجارب حياته ، حتى لو كانت هذه التجربة مجرد لقاء مع إنسان بسيط عابر فى لحظة عابرة.

كان "ويتمان" من الذين يحبون الإنسان ، ويأخذون الحياة بالأحضان ، ولا يعاملون أى شئ فى حياتهم معاملة سطحية ، ولا يأخذون أى أمر من أمور الناس بأطراف أصابعهم.

وبسبب هذه الطبيعة السمحة ، عمل "ويتمان" فى كثير من الأعمال التى ينفر منها أصحاب الأقلام ، فقد عمل خادما فى أحد المكاتب ورضى فى فترة من الفترات أن يكون عامل بناء ، واشتغل فترة كعامل فى إحدى المطابع ، ثم عمل موظفا صغيرا فى وزارة الداخلية ، وعندما طرده وزير الداخلية بسبب أشعاره عن البسطاء و "الغلابة" عمل موظفا فى دائرة حكومية أخرى ، ثم عمل "تمورجيا" يضمد جراح المرضى فى الحرب الأهلية الأمريكية "١٨٦١ - ١٨٦٥" واستمر فى هذا العمل ثلاث سنوات ، وكان يشعر فى أعماقه الطيبة ، انه لابد أن يكون فى شعره "ناطقا باسم أمريكا كلها" ولذلك فقد حاول ويتمان أن يقترب من شعبه وأن يتعرف عليه بمختلف الطرق والوسائل حتى لقد سار

على قدميه ثمانية آلاف كيلو متر خلال القرى والمدن والموانئ والجبال والوديان، كل ذلك لكى يشاهد واقع الناس ويتصل بهذا الواقع اتصالا وثيقا، ولكى يقترب من طبيعة بلاده الحقيقية، ولكى يكتب قصائده بأسلوب صادق نابع من قلبه. وهل يستطيع شاعر محب للناس مثله أن يصور حياة الناس البسطاء فى بلاده ما لم يشاهد بنفسه ما يبذلونه من جهد كبير وعمل متصل؟ وهل كان باستطاعته ما لم يعش كل هذه التجارب على الطبيعة أن يقول: "إن هدفى من كتابة الشعر هو تعليم الناس كم هى عظيمة حياتهم".. لقد اكتشف "ويتمان" العظمة والبطولة فى حياة الناس العاديين، الذين هم غالبا جاهلون بهذه العظمة وهذه البطولة، ولذلك استطاع "ويتمان" أن يكون شاعرا مؤثرا فى ضمير شعبه، وفى ضمير العالم كله إلى حد بعيد، ولم يعد مجرد موهبة تجيد الغناء وكتابة ألفاظ جميلة فى قصائد نقرأها وننساها بعد آخر كلمة.

وقد أتيح لهذا الشاعر الكبير من يترجم ديوانه الرئيسى وهو "أوراق العشب" إلى العربية. والمترجم هو شاعر عربى معاصر من أكثر شعرائنا موهبة وصدقا وأمانة وهو الشاعر المعروف "سعدى يوسف" وترجمة "سعدى" لأشعار "ويتمان" تؤكد لنا الصلة الوثيقة بين الشاعر الأمريكى والشاعر العربى فى عمق الإنسانية وصدق الإحساس بالحياة والناس. وسوف اعتمد على ترجمة سعدى يوسف فى تقديم بعض النماذج من شعر ويتمان.

يقدم ويتمان ديوانه "أوراق العشب" بقصيدة عنوانها "أيها القارئ" يقول فيها: أنك لتنبض بالحياة والكبرياء والحب... مثلى أنا، فأليك الأغانى الآتية.." ..فالشاعر لا ينسى أنه يتوجه إلى قارئ ولا يتعالى على هذا الأمر ولا يرضى ضميره الفنى بأن يقدم إلى قارئه مالا يفهمه، وما لا يمكنه أن يحس به ويدرك معناه، وتتحرك مشاعره مع كلماته.

كان ويتمان يصاحب أيأس الناس فى نيويورك ويعيش فى وسطهم، وكان له كثير من الأصدقاء الذين يعملون سائقى عربات كارو وكانت هذه العربات

موجودة فى أمريكا فى القرن الماضى، وكان من أصدقائه حمالون على أرصفة الميناء، أما الزنوج فكان وثيق الصلة بهم، يحبهم ويحبونه، فهو أحد البيض القلائل فى عصره الذين كانوا يرفضون "التفرقة العنصرية" فى المجتمع الأمريكى، وفى وقت كان فيه للتفرقة العنصرية مؤيدون وأنصار، وكان لها أحزاب سياسية وجيوش مسلحة تحاول فرض هذه التفرقة على المجتمع بقوة السلاح وكان ويتمان يقول فى إحدى قصائده هذا البيت العجيب:

"إذا أردتنى فابحث عنى تحت نعل حذائك"!

ذلك أنه كان يحس بدفء علاقته بالناس، وكان يحس أنه قريب من الجميع، ويجد فى ذلك سعادة ومصدرا قويا للإلهام الفنى، وكان يحب كل مظاهر الحياة حتى التراب، والعشب، ولذلك فهو يقول لنا أننا نستطيع أن نجده فى التراب الذى ندوسه بأقدامنا، فهذا التراب جزء من الوجود والحياة.

ولا ينظر هذا الشاعر الإنسانى إلى أى كائن غريب نظرة شك وريبة، فكل الناس قريبون منه، وفى قصيدة له عنوانها "إلى غريب" يقول: أيها الغريب.. يا عابر السبيل.. إذا مررت بى، وكنت تريد أن تتحدث معى، فلماذا لا تفعل؟ أنا أيضا أريد أن أتحدث معك".

وفى قصيدة أخرى عنوانها من أكون فى آخر الأمر؟".. يهاجم الشاعر نزعة الأنانية والغرور والإعجاب بالنفس، حتى لو كانت هذه النزعة جزءا من طبيعة الشاعر نفسه، وفى هذه القصيدة يقول الشاعر: "من أكون فى آخر الأمر سوى طفل، أجد السعادة عندما يسمع اسمه يتردد؟ وإذا تكرر أسمى مرارا، ومرارا، فأنى أقف لأستمع إليه فى سعادة، ولا أحس بالسأم لحظة، ولا أتعب.

وأنت أيضا تحس بنفس السعادة عندما تسمع اسمك. هل تظن انه ليس فى العالم سوى هذه المقاطع الصغيرة التى يتكون منها اسمك؟!"

ويمتلئ الشاعر عطفا حتى على المخطئين فى هذه الدنيا.. ففى قصيدة عنوانها "إلى خاطئة مجهولة" يقول فى دفء ومودة وحنان:

"كونى هادئة. كونى على غاية من الهدوء والراحة معى. أنا والت ويتمان. من الأحرار. قوى مندفع مثل الطبيعة، إن نور الشمس يطاردك. ولكنى لن أفعل. ذلك ومياه الأنهار تحجب عنك ما فيها من لمعان وبريق. وأوراق الأشجار تخفى عنك حفيفها الجميل. ولكن كلماتى لن تخفى عنك البريق ولا الحقيقة. إنى أتقدم إليك بتحية حارة، واحمل إليك نظرة احترام لن تستطيع نسيانها بمرور الأيام".

إن الشاعر هنا يرفض القسوة، ولا يرى إن الإنسان الناجح وحده هو الذى يستحق الحب والاحترام، بل إن كل إنسان يستحق ذلك. حتى لو خانته الأيام، وخاب نصيبه من النجاح والتوفيق فى هذه الدنيا الصعبة، ولذلك فهو يقول أيضا فى قصيدة رائعة له:

"أنا أتى مع الموسيقى قويا، مع مزاميرى وطبولى. أنا لا أعزف أناشيدى للظافرين فقط بل أعزف أيضا للقتلى والمقهورين. أننا نخسر المعارك بنفس الروح التى نكسبها بها. فألف مرحى للذين غرقوا هم أنفسهم فى البحر.. يعرفون أن رفيق الشعب وصديقه كلهم خالدون مثلى. أنهم لا يعرفون كم هم الخالدون. ولكنى أعرف. فكل إنسان يحب نفسه وممتلكاته. أما أنا فأحب هؤلاء الذين كانوا فتيانا، والذين يعشقون النساء. أنا الرجل الحر الذى يحس كم يؤلم المرء أن يهان. أحب الحبيبة الحلوة، والعانس، وأحب الأمهات وأمهات الأمهات، أحب الشفاه التى ابتسمت، والعيون التى ذرفت الدمع. أحب الأطفال والذين ينجبون الأطفال".

ويمتد إحساس الشاعر بجمال الحياة وقدسيتها إلى مظاهر الطبيعة فيقول عن "العشب" بحنان : أتناولك أيها العشب، فلعلك طلعت من صدور الفتيان الذين لو عرفتهم لأحببتهم. لعلك طلعت من عجوز أو من طفل صغير انتزعوه من حضن أمه، ماذا تظن أنه حدث للرجال والفتيان والشيوخ؟! ماذا تظن أنه حدث للنساء والأطفال؟.. إنهم أحياء، وبخير فى مكان ما. فأصغر نبات على هذه

الأرض يبرهن على أن الإنسان لن يموت. وإن كان هناك موت.. فإنه إلى الحياة. كل شئ يسير إلى الأمام، ولا شئ ينقضى أو يزول".

لا نملك أمام هذا الشعر البديع إلا أن نقول: الله. فالشاعر هنا يصل بنا إلى معنى كبير، وهو أن كل شئ فى الحياة ينبغى احترامه ومحبته، حتى لو كان ترابا أو عشبا، فالتراب والعشب ممتزجان بأجساد البشر، والبشر لا يموتون موتا نهائيا، ولكنهم يذوبون فى كل مظاهر الحياة المختلفة ويعيشون فيها مرة أخرى. وهذه النظرة الواسعة المتفائلة المليئة بالحنان والعطف على الإنسان هى نفسها نظرة شاعرنا العربى "أبو العلاء" عندما يقول فى بيت شهير له معترضا على غرور البشر:

خفف الوطء، ما أظن أديم

الأرض إلا من هذه الأجساد

والفرق بين "ويتمان" و "أبى العلاء" أن "ويتمان" متفائل واثق من الخير فى الإنسان، أما أبو العلاء فهو متشائم ولا يثق بشىء.

وللشاعر "والت ويتمان" كلام فى نثره لا يقل جمالا وإنسانية وسحرا عن شعره.

فهو يقول : "البساطة هى فن الفنون، هى جلال التعبير والنور الذى يضئ الأدب.. ليس هناك أفضل من البساطة". ومن أقوال "ويتمان": "أن القصائد المشتقة من قصائد أخرى سوف تموت، وسوف يموت الجبان"ويقول": "برهان الشاعر هو احتضان بلاده له بنفس الحنان الذى يحتضن به بلاده"، ويقول: "بلادنا تملك ثروة الصيف والشتاء، ولن يصيبها الإفلاس ما دام القمح ينمو من الأرض والبساتين تسقط ثمر التفاح، والخلجان تحتضن أجمل ما يقول: "تكشف الدول عن نفسها بمن يمثلونها من الناس العاديين فى سلوكهم، وكلامهم ولباسهم، وصداقاتهم فى حبهم للاستطلاع وتقبلهم للجديد، فى احترامهم لأنفسهم وتعاطفهم الرائع مع بعضهم البعض فى حساسيتهم ورفضهم

للاستخفاف بهم، فى طلاقة لسانهم، فى حبهم الموسيقى، فى مزاحهم الطيب وسخائهم، فى أهمية الانتخاب لديهم، فى أن رئيس الجمهورية هو الذى يخلع القبعة، وليسوا هم الذين يخلعون له القبعة. هذه المواقف كلها هى شعر بدون قافية أو وزن، وهو ينتظر من أهل الفن معالجة فنية هائلة كريمة له".

هذا هو الشاعر الذى يقول فى شعره: آمنت بالحرية والمساواة بين الناس، كبارا وصغارا، سودا وبيضا، رجالا ونساء، محظوظين وغير محظوظين..".

أنه شاعر عظيم يحب الناس ويرفض أن يقف إلى جانب أى شخص أو أى وضع يلحق الأذى بالبشر.

وهو شاعر وطنى يعشق أشجار بلاده، وأنهارها وعصافيرها وقراها ومدنها وإنسانها البسيط الفقير قبل إنسانها القوى القادر. وهو لذلك كله، ولأنه صاحب رسالة، كان أميرا من أمراء البساطة والوضوح، فهو سيف على الظالم والتفرقة بين البشر. والسيوف لا تكون غامضة او معقدة، أو بحاجة إلى شرح وتفسير، بل السيوف دائما ناصعة وجادة وصريحة، وكل من يراها يقول عنها: هذا سيف لا شك فيه.. أو .. هذا شعر لا شك فيه!.

الشاعر والإرهابى

هل هناك شئ يمكن أن يجمع بين الشاعر والإرهابى؟.. هل يمكن الجمع بين الماء المتدفق الذى يملأ الأرض بالورد والقمح، مع البراكين الملتهبة التى تنفجر فجأة فتملأ الحياة بالدمار والخراب وتثير فى النفوس صيحات الرعب والفزع من المصير المجهول؟.. الشاعر الحقيقى نسيم جميل يغذى النفوس بالأمل ويمدها بالقدرة على مواجهة الآلام والمتاعب، وما أكثر اللحظات التى تكون فيها النفوس مثقلة بالهموم، وفى هذه اللحظات يمكن أن يكون بيت واحد من الشعر الحقيقى الجميل قادرا على أن يفعل فعل السحر، يسمعه الإنسان فيجد فيه العزاء، وتنفتح أمامه أبواب الأمل، وتصبح سماء الحياة خالية من الغيوم والهموم، وإذا كان الشعر نسيما يهب فيريح وينعش، فإن الإرهاب عاصفة، بل إعصار يهدم ويخيف، ويجعل الدنيا أمام الإنسان ظلاما فى ظلام، الشاعر عاشق للحياة، والإرهابى كاره للحياة.. الشاعر عنده أحلام طيبة ونبيلة، والإرهابى ليس عنده إلا الكوابيس التى تزعجه وتقلقه وتدفع به إلى حافة الجنون. الشاعر ماء عذب... والإرهابى ماء ملئ بالملح لا يطفئ عطش الظامئين .. الشاعر زهرة، والإرهابى شوك.. الشاعر يد حانية تمتد إلى القلب الإنسانى بالمشاركة العاطفية والمواساة. والإرهابى خنجر مسموم ينغرس فى القلب، ويقضى على جمال الحياة بالموت قبل الأوان.

وعندما نتكلم عن الشاعر هنا فنحن نقصد الشاعر الحقيقى، وليس الشاعر المزيف، فكما أن أنبياء الله وجدوا من يحاول تزييف رسالتهم من الأنبياء الكذابين، ففى جمهورية الشعراء أيضاً: شعراء حقيقيون وشعراء كذابون.

ولقد كان من أعظم شعراء الدنيا الحقيقيين شاعرنا الذى نتحدث عنه، اليوم ونتوقف أمام صفحة من حياته قد لا تكون معروفة على نطاق واسع، وهى صفحة لقائه بإرهابى من أكبر الإرهابيين الذين عرفهم التاريخ، فى ذكائه وقدراته العقلية العالمية، إلى الحد الذى جعل بعض أعدائه المتشددين يصفونه بالعبقرية. وقد كانت هذه العبقرية بالطبع هى "عبقرية الشر" إذا صح هذا

التعبير.

الشاعر العظيم هنا هو "عمر الخيام" أما الإرهابى فهو "الحسن الصباح" زعيم فرقة "الحشاشين" وكلمة الحشاشين هذه انتقلت إلى لغات العالم كما هى تقريبا، فكلمة "أساسين" فى الفرنسية والإنجليزية مأخوذة عن كلمة "الحشاشين" ومعناها "القاتل" أو "المغتال" أو "سافك الدم" أو "السفاح". وهكذا كانت فرقة "الحشاشين"، وذلك كان دورها فى التاريخ تحت قيادة "الحسن الصباح".

ولكن كيف التقى الشاعر عمر الخيام "بالإرهابى" "حسن الصباح"، وكيف كانت نتيجة هذا اللقاء الغريب؟

كان الشاعر والإرهابى يعيشان فى عصر واحد، وكانا فى شبابهما صديقين، وكانا يتعلمان معا فى مدرسة علمية واحدة، وكانا قريبين فى العمر، وكانا يعيشان فى بلاد فارس المعروفة باسم إيران الآن، وكان بينهما فى البداية نقطة لقاء واحدة أساسية، هى أن العالم القائم فى عصرهما لم يكن مصدرا للرضا والإعجاب عندهما، فهما متفقان على أن ذلك العالم كان فيه شر كثير، وكانت هناك حاجة إلى تغييره، أى أنهما كانا يريدان تغيير العالم، ويتفقان على أن ذلك كان أمرا ضروريا ينبغى أن تسعى إليه النفوس العظيمة، فقبول الدنيا كما كانت عليه فى ذلك العصر الملىء بالفوضى والاضطراب كان أمرا مرفوضا عند من يملكون قوة العقل والروح والإرادة والعزيمة مثل الشاعر عمر الخيام والإرهابى حسن الصباح.

فنقطة البدء عند الشاعر والإرهابى واحدة. ولكنهما بعد ذلك افترقا واختلفا اختلافا حادا ونهائيا.

وكان كل منهما يعرف مواهب صاحبه، ويبذل جهدا لاجتذابه إلى الطريق الذى آمن به. فكان "عمر الخيام" يريد أن يجر "الحسن الصباح" إلى الشعر والأحلام والدعوة إلى تغيير الدنيا بالحسنى، وكان "الحسن الصباح" يريد أن يجر صاحبه الشاعر "عمر الخيام" إلى الإرهاب وتغيير الحياة بالعنف والقوة.

ولم ينجح الشاعر فى إقناع صديقه الإرهابى، وأحس الإرهابى بالحسرة الشديدة لأنه فقد مساندة صديقه الشاعر العظيم، وفقد قوته القادرة على أن تكون أكبر عون له فى معركته الجنونية لتغيير العالم بالقوة والدم، وعن طريق استخدام العنف الذى ليس له حدود يقف عندها أو ينتهى إليها.

وقد نحتاج هنا إلى التوقف "البارد" فى هذه المعركة "الساخنة" من معارك التاريخ الإنسانى. وأعنى بهذا "التوقف البارد" ضرورة سرد الحقائق الأولية التى لابد منها للإلمام بهذا النزاع الرهيب بين الشاعر والإرهابى.

نتوقف قليلا، ونلتقط أنفاسنا لنقول أن عمر الخيام عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى، حوالى سنة ١٠٥٢ ، أما وفاته فكانت عن ثمانين عاما، أى حوالى سنة ١١٣٢ ميلادية. وكان "الخيام" فى الأصل عالما من علماء "الرياضيات" وكان جهده الأساسى متجها إلى علوم الرياضة والفلك واكتشاف أسرار الكون من خلال رصده الدقيق للكواكب المختلفة، أى أنه لم يكن متفرغا لكتابة الشعر، بل كان الشعر ينبع من قلبه نتيجة لتأملاته العلمية فى الكون الذى نعيش فيه. وفى هذا معنى كبير، فالكثيرون يتصورون أن الشعر لا علاقة له بالعلم، وأن الشعر هو خيالات وأحلام وأوهام، ولكن "الخيام" لم يكن كذلك فقد كان الشعر عنده رافدا من روافد المعرفة العالية والتفكير العلمى الدقيق. وقد كانت المراصد التى كان يرقب منها أحوال الشمس والقمر والأرض وغير ذلك من الكواكب والنجوم تقدم إليه معرفة علمية وتقدم إليه فى نفس الوقت مشاعر وأحاسيس يستمد منها أجمل قصائده. وقد ظلت شهرة "عمر الخيام" فى العالم كله لسنوات طويلة قائمة على أساس كتبه العلمية مثل كتابه "مختصر فى علوم الطبيعة" وكتابه "رسالة فى الكون" حتى جاء منتصف القرن الماضى، وأصبحت "موضة" العصر فى أوروبا هى دراسة تراث "الفرس" وفى هذه المرحلة ظهر شاعر إنجليزى موهوب هو "أدوارد فيتزجيرالد" "١٨٠٩– ١٨٨٣" الذى أتقن اللغة الفارسية واكتشف "رباعيات عمر الخيام" ونقلها إلى الإنجليزية نقلا التزم فيها روح الرباعيات، أكثر مما التزم فيه بالنقل الحرفى لها. ومنذ ذلك التاريخ

الذى صدرت فيه رباعيات الخيام بالإنجليزية سنة ١٨٥٩، أصبح "عمر الخيام" مشهورا كشاعر كبير فى العالم كله، أى أن العالم لم يكتشف شاعرية "الخيام" العالم الرياضى الفلكى إلا بعد وفاته بحوالى سبعمائة سنة، بفضل الإنجليزى الموهوب "فيتزجيرالد" وقد ظهرت فى اللغة العربية ترجمات متعددة لرباعيات الخيام منها ترجمة لمحمد السباعى والد الأديب يوسف السباعى، وأشهرها ترجمة الشاعر أحمد رامى عن الأصل "الفارسى" للرباعيات، وهى الترجمة الرائعة التى اختارت "أم كلثوم" أجزاء منها فى أغنية بديعة لها معروفة باسم "رباعيات الخيام" وأحدث ترجمة لهذه الرباعيات هى ترجمة شاعرنا المبدع المعاصر بدر توفيق، والتى صدرت سنة ١٩٨٩، وهى ترجمة لرباعيات الخيام عن الأصل الإنجليزى الذى كتبه الشاعر "فيتزجيرالد".

هذا هو "عمر الخيام" الذى كان مشهورا بالعلم، وبعد اكثر من سبعمائة سنة من وفاته اكتشفت الدنيا كلها أنه شاعر كبير.

كان عمر الخيام معاصرا وصديقا حميما "للحسن الصباح" زعيم "الحشاشين" والذى يستحق بجدارة لقب "أكبر إرهابى فى التاريخ". وقد عاش "الحسن الصباح" ما بين سنة ١٠٣٨ وسنة ١١٢٤ ومات عن ستة وثمانين عاما. والاسماعيليون المعاصرون بزعامة "أغاخان" المدفون فى أسوان، وأولاده من بعده، يعتبرون انفسهم من أسرة "حسن الصباح" هذا، ويعتقدون انهم ورثته، وإن كانوا قد تخلصوا تماما من نزعته الإرهابية، وقد أنشأ "حسن الصباح" فرقة الحشاشين التى تلخص لنا "الموسوعة العربية الميسرة" فتقول "صفحة ٧٢٠": "أنهم قد تميزوا بتنظيم دقيق باتخاذ الاغتيال وسيلة للتخلص من اعدائهم. كان يرأسهم الحسن الصباح ولقبه هو "شيخ الجبل" وكان صاحب الأمر والنهى والكلمة المطاعة، ويليه "الدغاه" ويتلقون أوامرهم منه، وينفذون تعليماته، وينقسم الاتباع الآخرون إلى مراتب على حسب علمهم بأسرار تلك الدعوة الباطنية، وهى دعوة الحشاشين ومن أهم هؤلاء "الفدائيون" الذين كانوا يغتالون الأعداء، وكان لا يصل إلى مرتبة "الفدائى" إلا صاحب بأس شديد، وصاحب

قدرة على الطاعة المطلقة، وكان هذا الفدائى يسعى إلى "الاستشهاد" فى خدمة دعوة الحشاشين، وكان الحسن الصباح أو شيخ الجبل يهيئ الفدائى للقيام بوظيفته، ويكافأه بإدخاله من حين لآخر فى جنة بديعة قائمة داخل الحصن الجبلى الذى يعيش فيه الحشاشون، وفى هذه الجنة الأرضية كان مسموحا للفدائى أن يمارس كل ما تشتهيه نفسه من ملذات حسية، من الخمر إلى النساء إلى غير ذلك، ويكون دخول الفدائى إلى هذه الجنة الأرضية بعد أن يتناول الحشيش، الذى كان الحسن الصباح من أوائل الذين اكتشفوه وعرفوا تأثيره على العقول واستخدموه فى تحقيق أغراضهم. وقد ظل الحشاشون معتصمين بإحدى القلاع الجبلية، ولم يستطع أحد أن ينال منهم شيئا، حتى ظهر "هولاكو" التترى فقضى عليهم سنة ١٢٥٦، أى بعد وفاة زعيمهم المؤسس لفرقتهم العجيبة بأكثر من ثلاثين سنة، ولم يبق منهم الآن إلا مجموعات متفرقة مسالمة فى إيران وبعض مناطق سوريا هذا ما قالته "الموسوعة العربية الميسرة" عن فرقة "الحشاشين" ومؤسسها "الحسن الصباح".

وقد حاول "الحسن الصباح" زعيم الحشاشين أن يجر صديق صباه العالم الشاعر "عمر الخيام" إلى جماعته، وكان يقول له "لو استطعت أن أجعل العالم يسمع رسالتى فسوف أقول للجميع : اقلبوا الهياكل والعروش.. فالجالسون على العروش وسدنة الهياكل ليسوا أكثر من أناس عاديين يحتمون وراء الأكاذيب. خذ مثلا "ملكشاه" أعظم ملوك عصرنا الآن. أنك يا عمر الخيام أكثر حكمة من أربعة ملوك مثله فلماذا نسمح له باستعباد الرقاب. ولماذا نستمر فى الخضوع لعبادة أمثاله؟ لقد ظل الناس يتقدمون من ظلام الجهل إلى نور العقل وسوف يصلون فى النهاية إلى إدراك العقل الكامل. وبسبب الأوضاع الخاطئة فى هذه الدنيا فقد قمت بتكوين المبشرين والرفاق والفدائيين، وهم من أصحاب النفوس الثائرة، ونحن جميعا نبشر بالدعوة الجديدة ضد الملوك والكهنة والطغاة".

ثم يحاول الإرهابى "الحسن الصباح" إغراء الشاعر "عمر الخيام" بأن يكون من أتباعه فيقول له : "أنظر ماذا فعلنا نحن اتباع النظام الجديد من أجلك. لقد

أمرت تاجرا كبيرا من اتباعى أن يعاون فى ثرائك، وأنت لا تـدرى، ولقد أدى هذه المهمة خير أداء، وأداها بأمانة، ففى قلب الصحراء وعلـى شـاطئ الفرات انتشلك من الموت، وملأ قصورك بأسباب الـترف، وكنـت انتظـر اللحظـة التـى تعود فيها إلينا وتنتمى لنا. لقد كنـت أرقـب كـل شئ فـى حيـاتك، كصديـق يحرص على صداقتك. وكل ما أنجزته أنت فى مجال العلـوم والمراصـد الفلكيـة كان معروفا لى وموضع اعجابى وتقديرى، فهل يظهر لـك حكـام عصرنـا وعلـى رأسهم "ملكشاه" ووزيره "نظام الملك" شيئا مـن هـذا التقديـر العـالى لـك؟. هـل يفهمونك كما أفهمك؟.. تأكد أن السـلطان يمكـن أن يطـردك مـن حاشـيته فـى لحظة يتغير فيها مزاجه، أو فى ساعة غضب، بينمـا أنـت بالنسبة لى ضـرورة لازمة، فكر فى هذا وتعال معى، سوف ترى كيف يطيعنى أتباعى بجنون. لقد شهدت القليل والقليل وحده من سطوتى ونفوذى،فهل لك فـى أن تكـون رفيقـا وتتخذ لك مكانا بين الدعاة؟ وسيكون عملك فى الفلك والرياضة كما تفعل أنـت الآن. وأنى لأعدك، وما كانت وعودى يوما تتعرض للكـذب أو الإخـلاف، بـأن الثراء والمجد اللذين تنعم بهما الآن سيكونان شيئا ضئيلا بالقياس إلى ما سـوف تناله على يـدى.. هنـا فـى قلعتـى الحصينـة التـى سوف أقلـب فيـها الدنيـا وأحكمها وحدى".

وصمت الشاعر "عمر الخيـام" لحظـة أمـام هـذا الإغـراء الكبـير الـذى قدمـه صديقه الإرهابى "الحسن الصباح" وقال له: "أمهلنى أسبوعا لأتخذ قرارى".

واتخذ الشاعر العظيم قراره. وهرب من صديقه الإرهابى ومن قلعته الحصينة المليئة بالاتباع المطيعين من الحشاشين المجانين. ولم يكن الشاعر العظيـم "عمـر الخيام" يفكر بأى صورة من الصور فى الانضمام إلى الإرهابى، فالإرهابى يرفض كل شئ ويريد أن يقلب الدنيا رأسا على عقب بالاغتيال وإسالة الدماء وتجنيـد الفدائيين الملتفين حوله. أمـا الشـاعر فأنـه يريـد أن يغـير العـالم أيضـا، ولكـن بالتقدم العلمى، والفكر الدقيق، وعدم الاستهانة بحياة الناس وكرامتهم. لم يكن "عمر الخيام" قادرا على الاقتناع بأن الفوضـى والعنـف والقسـوة تصلـح لتغيـير الأخطاء.. فما جدوى تغيير الأخطاء بأخطاء أخرى أكثر فظاعة وقسوة؟!

كان الإرهابى لا يعبأ بالحياة . وكان الشاعر يقدس الحياة، وكان الإرهابى يهتم بإسالة الدماء انهارا، وكان الشاعر يرى أن كل حياة على هذه الأرض هى جديرة بالدفاع عنها والمحافظة عليها وتعديلها - أن أخطأت - بالأفكار الجديدة والأساليب الأخلاقية والروحية الرفيعة.

وافترق الشاعر والإرهابى، ومضى كل منهما فى طريق مختلف، وبقى من الإرهابى الآن أتباع قليلون لا يؤثرون فى حياة الإنسان والحضارة، وبقى من الشاعر علمه وفنه، وأصبح "نغمة" رائعة فى حياة الإنسانية، وسيظل كذلك إلى النهاية.

وهذه القصة العجيبة الرائعة بين الشاعر والإرهابى، يرويها لنا العالم والفنان الأمريكى المبدع "هارولد لام" "١٨٩٢ - ١٩٦٢" فى كتابه الرائع "قصة حياة عمر الخيام" والتى ترجمها إلى العربية ترجمة دقيقة وممتعة الأستاذ محمد توفيق مصطفى وخلاصة هذه القصة البديعة التى اعتمدت فى كل سطر منها على الحقيقة العلمية الدقيقة، تقول لنا:

لا يمكن ان يلتقى الشاعر والإرهابى على الإطلاق. فالشاعر الجدير بهذه الصفة يهدف إلى الخير والتقدم والجمال وسعادة الإنسان بوسائل طاهرة ونظيفة، والإرهابى يخدع نفسه ويخدع الناس، لأنه يعتمد على العنف والقتل والاغتيال لتغيير ما يرى أنه خطأ. والإرهابى نفسه هو اكبر الأخطاء فى هذه الدنيا، بوسائله وأدواته وقسوته غير المحدودة وجنونه الذى لا يعنيه أن يدمر الحياة كلها فى سبيل هدف غامض يملأ رأسه ويتصور أنه هدف سليم، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، فهو هدف يخلو من الطهارة والاستقامة والصدق، وكل هدف شريف فى هذه الدنيا لابد أن تكون وسائل تحقيقه شريفة أيضا. والذين يضحكون على الناس وعلى أنفسهم هم وحدهم الذين يقولون إن الأهداف الشريفة يمكن أن تتحقق بوسائل شريرة.

وهذا من المستحيلات التى يرفضها العقل والضمير والإحساس الإنسانى الأصيل.

وردة .. فوق بركان

الغضب هو اكثر المشاعر الإنسانية التى تعكر صفو الحياة، وتجعل الإنسان بعيدا كل البعد عن الصواب والتصرفات السليمة، وكل قرار يتخذه الإنسان فى لحظة الغضب لابد أن يكون قرارا خاطئا، وقرارات الغضب لا يعقبها إلا الندم الشديد والإحساس بأن هناك أشياء ضاعت من الإنسان وكان ينبغى ألا تضيع. والغضب فى النفس يشبه البركان الذى ينفجر فجأة من باطن الأرض، فيجعل الحياة فى منطقة البركان مستحيلة، فلا يمكنك أن تزرع وردة فوق بركان، ولا يمكن لعصفور أن يهبط بجناحين فوق هذا البركان ويغنى، ولا يمكنك أن تقيم بيتا سعيدا فوق بركان، لأن أى بيت يقام هناك سوف يحترق ويتحول إلى رماد. والغضب هو هذا البركان وله نفس الآثار والنتائج.

ولو أن الإنسان أدرك كل هذه الحقائق حول الغضب لاستطاع أن يتحكم فيه عندما ينفجر، لأن الإنسان فى هذه الدنيا لا يستطيع أن يتخلص نهائيا من الغضب، فهو شعور كامن فى كل النفوس، ونار موجودة فى داخلنا لابد أن تشتعل إذا كان هناك سبب لذلك، ومناسبة الغضب لابد أن تأتى، لأن حياة الإنسان مهما كانت سعيدة فإنها لا تخلو من المنغصات والمتاعب وأسباب الاستفزاز والإثارة.

وإذا أردنا أن نرسم صورة أخرى للغضب قلنا أنه يشبه الفيضانات الهادرة التى تفيض بها الطبيعة فوق الأرض، فتهدم البيوت على ساكنيها وتقطع الطرق على السائرين وتغرق الذين يتعرضون للمفاجأة والذين لم يحسبوا حسابا لغضب الطبيعة. والناس المتحضرون يواجهون هذه الفيضانات التى هى غضب الطبيعة بالعقل والعلم فيقيمون الحواجز والسدود ويحفرون المجارى فى باطن الأرض، ولذلك عندما يأتى غضب الطبيعة فإنه يجد ما يصده ويقلل من مخاطره، أما الإنسان الذى لا يفكر ولا يستخدم عقله فإنه لا يحسن التدبير ويترك حياته للصدفة، فإذا جاءت كارثة الغضب من الطبيعة كان هذا الإنسان المتهاون هو أول الضحايا وأول الذين يغرقون فى مياه الفيضان الهادر العنيف.

وكما يتصرف الإنسان مع الطبيعة ينبغى أن يتصرف مع نفسه، فيضع حواجز وسدودا ضد الغضب، فإن انفجر الغضب يوما أمكن للإنسان أن يتحكم فى نتائجه وآثاره.

والكلام النظرى العام عن الغضب له فى التاريخ الإنسانى نماذج علمية كثيرة. وهذا نموذج واحد منها ترويه لنا قصة واقعية من حياة الاسكندر الأكبر. فقد كان الإسكندر "٣٥٦-٣٢٣ قبل الميلاد" شخصية فذة جبارة من شخصيات التاريخ، وقد ظهر نبوغه منذ صباه وتعلم على يد أكبر فيلسوف فى عصره وهو "أرسطو" وعندما تولى الحكم والسلطان فى بلاده كان لا يزال شابا صغيرا فى العشرين من عمره، والاسكندر هو تجسيد حى لنظرة العبقرية والنبوغ عند بعض العلماء المعاصرين، فهؤلاء العلماء يرون أن فترة العمر الممتدة من الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين هى سن العبقرية والنبوغ، وأن "أكثر الاكتشافات العظيمة التى عرفها التاريخ قام بها شباب بين الثمانية عشرة والثالثة أو الرابعة والعشرين"، وهذا الكلام الذى يقوله العلماء ليس كلاما بلا دليل، فهو كلام قائم على الملاحظة والتجربة وإحصاء الاكتشافات الكبرى التى توصل إليها الإنسان، مع الدراسة الدقيقة لمتوسط أعمار المكتشفين والمخترعين.

والاسكندر الأكبر من هؤلاء العباقرة النابغين الذين بدأت ملامح النبوغ فيهم تظهر للناس منذ شبابه الأول، فقد كان قائدا عسكريا فذا، ولكن عبقريته العسكرية ليست هى أساس أهميته فى التاريخ، بل الذى أعطاه الأهمية والمكانة المتميزة أنه كان يحمل فى رأسه فكرة كبيرة هى إيمانه بضرورة توحيد العالم كله فى دولة واحدة، يخضع فيها الجميع لقوانين مشتركة توحد بين الجميع، وبمعنى آخر فقد كان مؤمنا بأن هذه الأرض قد خلقت للناس جميعا، وأن الناس فى كل مكان هم أخوة ومواطنون فى دولة عالمية واحدة.

ولم يكن الاسكندر مجرد مفكر وفيلسوف يدعو إلى فكرته فى توحيد العالم والإخاء الشامل بين الناس وهو جالس فى بيته يكتب أفكاره فى كتاب، ويترك لهذا الكتاب أن يؤثر فى العقول ويخلق نتائجه فى هدوء وبطء، بل كان

الاسكندر الأكبر رجل فكر وعمل معًا ، فمنذ أن اقتنع بفكرته أعد جيشه وحمل سلاحه وخرج ليسعى فى الأرض من أجل توحيد العالم والقضاء على الفواصل بين الدول والفوارق بين الشعوب .

وحقق الاسكندر نجاحًا متواصلاً واستطاع أن يصل إلى الهند ويضم معظم بلاد العالم المعروفة فى عصره تحت راية واحدة ويخلق أول وحدة عالمية عرفها التاريخ . ولولا وفاته المبكرة فجأة فى الثالثة والثلاثين لعاشت هذه الدولة العالمية الواحدة تحت قيادة الاسكندر ، ولكن خلفاء الاسكندر لم يكونوا فى مثل نبوغه وعظمته وطموحه ، فعادوا إلى تقسيم العالم الذى فتحه الاسكندر إلى دول منفصلة ليستطيع كل منهم أن يحكم دولة من هذه الدول ويصبح ملكًا عليها.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إشارة سريعة إلى رؤية الاسكندر لمصر على وجه الخصوص فى مجال تصوره للحكومة العالمية التى كان يسعى إلى تحقيقها للربط بين كل أنحاء الدنيا فى دولة واحدة ، ورؤية الاسكندر لمصر فى هذه الدولة يحددها لنا عبقرى آخر هو نابليون الذى كان يخطط لتحقيق حلم الاسكندر مرة أخرى فى القرن الماضى . يقول نابليون : (لما رأى الاسكندر الأكبر مصر الواقعة بين بحرين ، بل الواقعة فى الحق بين الشرق والغرب ، اعتزم على أن يجعل فيها حاضرة ملكه العالمى وأن يتخذها مركزًا للتجارة العالمية ، ذلك أن نابغة الفاتحين – أى الاسكندر – كان قد فطن إلى أنه إذا كانت هناك وسيلة للجمع بين فتوحاته كلها فى دولة واحدة ، فمصر قد خلقت لتكون واسطة العقد فى ربط أفريقيا وآسيا بأوروبا) .

هكذا كان الاسكندر ينظر إلى مصر ويريد أن يجعل منها مركزًا وعاصمة للدولة العالمية الواحدة .

ونعود إلى الاسكندر نفسه بعد ذلك ، فقد كان هذا القائد النابغ يتمتع بشخصية قوية متكاملة ، ولكنه كان عرضة للغضب فى بعض الأحيان ، وكان لا يتحكم فى غضبه فيتخذ قرارات عنيفة وينفذها على الفور ، ثم يعود إليه

الهدوء وسلام النفس ، فيندم أشد الندم ، ولكن بعد فوات الأوان ، وكانت هذه هى نقطة الضعف الكبرى فيه ، وهناك حادثة محددة وقعت فى حياته وتحدث عنها المؤرخون وقامت هذه الحادثة المؤلمة على (الغضب) الذى لم يستطع الاسكندر أن يتحكم فيه ، وأنا أعتمد فى تلخيص هذه الحادثة على ما كتبه عنها المؤرخ والأديب العربى الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام ، وتقول هذه القصة أن الاسكندر بعد أن استولى على مصر والشام وآسيا الصغرى وفارس وصل إلى مدينة (سمر قند) عاصمة جمهورية أوزبكستان الآن ، وهناك وقف ليرتاح فى هذه المدينة وليريح جيوشه ، وذات ليلة أقام مآدبة كبرى حضرها قواده الكبار ، وكان أقربهم إليه صديقه القائد (كليتوس) الذى كان محاربًا شجاعًا ، والذى كان له فضل إنقاذ الاسكندر من محاولة لاغتياله فى إحدى المعارك ، حيث استطاع فى آخر لحظة أن يقتل جنديًا أراد أن يطعن الاسكندر من الخلف ، فقتل (كليتوس) الجندى وأنقذ الاسكندر ، وفى المأدبة التى أقامها الاسكندر دارت الخمر برأسه ورؤس الذين حوله ، وأخذ الجميع يمدحون الاسكندر إلى حد النفاق ، ووصل النفاق ببعضهم إلى أن يقولوا له : (إنك يا اسكندر أحسن من أبيك فيليب المقدونى) وكان فيليب بطلاً محبوبًا من اليونانيين وصاحب فضل عليهم . وتقبل الاسكندر نفاق المحيطين به ، وقال هو أيضًا أنه أحسن من أبيه وأفضل منه وأعظم شأنًا .

وهناك قال (كليتوس) صديق الاسكندر وأحد قواده الشجعان والمنقذ للاسكندر من الاغتيال : (ما لهؤلاء المادحين لك ينزلون من أقدار السابقين ليرفعوا عليها مجد الحاضرين ؟ . إن فيليب كان عظيمًا ، وليست مآثره أقل من مآثر ابنه أى الاسكندر – وإنما استطعت أن تعلو وتصول أيها الملك بما ورثته عن أبيك من ملك ممهد وجيش مدرب) . وهاج الحاضرون ضد (كليتوس) واستنكروا منه أن يجادل الاسكندر ويعترض على آرائه . أما الاسكندر فقد اشتعل غضبًا ضد صديقه وأخذ يسبه ويلعنه . ولكن كليتوس لم يتراجع فصاح فى وجه الاسكندر قائلاً وهو يمد يده إليه : (اذكر أيها الملك أن هذه اليد هى التى أنقذت حياتك يوم المعركة . واستمع لصوت الحق الذى أقوله

لك ، أو تجنب مرة أخرى أن تدعو الأحرار إلى مأدبتك ، وعليك فى هذه الحالة ألا تجعل هؤلاء الأحرار فى صحبتك ، اكتفاء بمن يصحبك من عبيدك).

وجن جنون الاسكندر ، وأصبح غير قادر على أن يسيطر على غضبه (وانقض كالصاعقة وانتزع حربه من أحد الجنود وغرسها فى صدر كليتوس صديقه القديم) !.

وهكذا استسلم الاسكندر العظيم لغضبه وقضى على صديقه الحميم لأنه لم يحتمل منه كلمة نقد شجاعة ، فماذا حدث بعد ذلك ؟.

وجد الاسكندر صديقه غارقًا فى دمه ، وقد فارق الحياة ويصف لنا الدكتور عبد الوهاب عزام حالة الاسكندر بعد مقتل صديقه فيقول إنه : (قد خرج من البهو يعدو إلى فراشه ، فارتمى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، يبكى بدموع عزت فى أيام المعارك الصعبة والمحن الشديدة . وكلما جفف دمعة تجسد له صديقه قتيلاً بيده ، وأخذ الاسكندر يلعن نفسه ويهتف كالمجنون باسم صديقه (كليتوس) ثم يقول بل يصرخ : ويلى ! أنا الغادر الخائن!. لقد جزيت كليتوس شرًا . أنقذ حياتى وقتلته . قال لى قولاً كريمًا عن أبى فغضبت ولم أستطع السيطرة على غضبى .. أننى لست بعد اليوم جديرًا بالحياة!) .

(ويجتمع حوله أصحابه يعزونه ويبررون له ما قام به فلا يزداد إلا حنقا واكتئابًا وندمًا وآسفًا) ويقول له المنافقون : أن (كليتوس) يستحق ما جرى له. وأنه ليس جديرًا بأن يدفن بل لابد أن يترك فى العراء لتأكله الطيور الجارحة. فيثور الاسكندر ويقول : بل آمركم بدفنه كما يدفن الأبطال) .

ويعلق الدكتور عبد الوهاب عزام على هذه الحادثة فيقول :

(اسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب ، ولا بعدت على همته غاية ، ولا ثبتت فى طريقه دولة ، ولا وهن قلبه فى سلم ولا حرب ، ولكن هذا الفاتح القاهر ، والملك صاحب السلطان والقدرة لم يحتمل واحدة من وخذ من وخذات الضمير كالطفل يبكى ويتوجع ، وكاد يقتل نفسه فرارًا من الندم) ..

وإذا أردنا أن نتأمل ما فى هذه الحادثة من معان أخرى ، بالإضافة إلى ما

أشار إليه الدكتور عزام ، فإننا نجد أن أهم هـذه المعـانى علـى الإطـلاق هـو أن الغضب لابد أن يقود إلى الخطأ ، وأن هذا الخطـأ قـد يكـون خطـيرًا ولا يمكـن الرجوع عنه ، وكان هذا الغضب ، والقـرارات التـى يتخذونـها وقـت الغضـب مصدرًا للألم والتعاسة فى حياتهم .

والغريب أن الاسكندر بعد قتله لصديقه لم يعش إلا فترة قصيرة ثم مات كمـا سبقت الإشارة وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

فالغضب هو أسوأ المشاعر الإنسانية ، وأكثرهـا خطـرًا علـى النـاس ، ولابـد للإنسان الحكيم الذى يهدف إلى سعادة نفسه وروحه أن يمتنـع عـن اتخـاذ أى قرارات فى وقت الغضب ، فالغضب هو بركان النفـوس ، ولا يمكننـا أن نـزرع وردة فوق بركان ، ولكى نزرع وردة بل ومئات الورود لابد أن ننتظر حتى يهدأ البركان وتنطفـئ نـاره .. وبعـد الهـدوء يمكننـا أن نتخـذ القـرارات الصحيحـة ونحقق السعادة لأنفسنا ولكل الذين يتصلون بنا أو يعيشون حولنا .

وإلا فسوف نجد أنفسنا ونحن نصرخ كما صرخ الاسكندر بعد أن قتل صديقه العزيز فى ثورة غضب :

حبيبى .. لماذا قتلتك ؟

فالغضب وحده هو الذى قد يدفعنا إلى قتل كل ما نحبه فـى هـذه الحيـاة ، لأن الغضب هو مصدر القرارات الخاطئة ، والأخطاء قد تكون خطـيرة وقاتلـة ، وليس من الضرورى أن يكون القتل بالسكين والخنجر ، فالقتل المعنـوى أحيانًـا يكون أشد وأقسى .

جمهورية العشاق

هل يمكن أن نتصور (جمهورية) لا يعيش فيها سوى العشاق والمحبين ؟ لقد تخيل الفيلسوف اليونانى الفنان (أفلاطون) جيشًا من العشاق ، فكان يقول ما معناه : (قدموا لى جيشًا من العشاق وأنا أغزو العالم كله وانتصر). وكان الكاتب الروسى النبيل (أنطون تشيكوف) يقول : إذا كان فى وسعك أن تحب ، ففى وسعك أن تفعل أى شئ) . فالحب عند (أفلاطون) و(تشيكوف) هو قوة غير محدودة فى الإنسان ، والإنسان العاشق هو الإنسان المتفائل القادر على أن يخوض متاعب الحياة فى جرأة وشجاعة ، وهو الذى يملك الاستعداد للتضحية بنفسه عند الضرورة دون خوف أو تردد .

ولكن هذا كله شئ آخر غير ذلك الذى تدعو إليه (امرأة) من نوع عجيب ، وهذه المرأة ليس لها اسم محدد . وعلينا أن نتخيل شخصيتها ونرسمها من خلال أقوالها وأفكارها ، وهى تدعو إلى إقامة (جمهورية) خاصة بالعشاق وحدهم ، تبدأ كل قوانينها من العشق ، وتنتهى إلى العشق ، وهى ترى أن هذه الجمهورية سوف تكون جمهورية للسعادة والرخاء والشجاعة والهناء .

تقول لنا هذه المرأة العجيبة :

(لو كانت مقاليد الأموربين يدى لكنت فعلت أشياء لا يغادر معها أحد هذه الدنيا وفى قلبه حسرة . ومن ذلك أننى كنت سوف أجعل (الحب) إجباريًا مثل الخدمة العسكرية . ولكنت قد منعت الزواج للرجل قبل سن الأربعين وللمرأة قبل سن الخامسة والثلاثين. فالناس يتعطشون إلى الحب ، وسوف يطيعونه بقلوبهم وأرواحهم . ولابد أن نأمر بتدريس الحب فى المدارس ، فضلاً عن تعريف الجميع بروائع الفكر ، وبالمواهب الإنسانية العالية، وبالإضافة إلى ذلك لابد من تدريس الآداب والموسيقى والرسم والنحت وكل الفنون التى تتناول مدح الحب ، ولا حاجة بى من أجل أن تتقدم مشروعاتى إلى التوسل بالدعاية المبتذلة التى يقومون بها لترويج (الكوكاكولا) بل أننى سوف استعين من أجل إثبات سلامة موقفى بإنتاج أبرز العقول البشرية منذ أقدم العصور وحتى الآن،

ثم بعد ذلك لو وجدت فتاة أو فتى يمشى كل منهما وحيدًا فى الشارع دون عذر مقبول فسوف أعاقبه ، ولو أن شابًا جلس فى حديقة عامة دون أن يكون ساعده على جيد رفيقته وحبيبته لأرسلته للعلاج أو للمحاكمة ، وكنت سوف أوكل كل الأعمال المهمة فى الدولة إلى العشاق ، ولحددت لهم مرتبات ، عملوا أو لم يعملوا ، ولوضعت علامات خاصة على صدورهم ، بحيث تكون لهم الأولوية أينما يذهبون ، ويكون على الجميع أن يعاملوهم باحترام، والخلاصة أننى لو توليت مقاليد الأمور فسوف تكون أهم وزارة عندى وأعلاها ميزانية هى وزارة العشاق) .

ثم تقول هذه المرأة العجيبة بعد ذلك فى حديثها عن (جمهورية العشاق) التى تحلم بها :

(إن الشيوخ الذين سيطروا على العالم حتى الآن لم يفتحوا الطريق لأحد إلا إذا كان على شاكلتهم ، ولو أن الأمور كانت بيدى لأنهيت هذا الوضع إلى الأبد، ولجعلت الشبان الحقيقيين .. الشبان العشاق .. يسيطرون على العالم، فهم الذين يفهمون معنى الحياة ، ومعنى الإنسانية ، وعندهم قوة الإرادة وسلامة الجسم ، وهم معتزون بأنفسهم ومتفائلون ، يحملون فى نفوسهم أحلامًا وردية ، يستيقظون فى الصباح من النوم فى أمل وشوق ، ويحبون الحياة لأنهم قادرون على التمتع بها . بالله دقق فى وجوه السياسيين العالميين اليوم، أنها تثير الشفقة ،فهى وجوه عابسة ذات غضون ، لا يملك أصحابها الجرأة حتى للذهاب لإجراء عملية جراحية يحتاجون إليها ، إلى هذا الحد يحبون الحياة. دائمًا ما يتثاءبون . ودائمًا يفكرون فى الخديعة والنصب على الحياة والناس، ووضع العراقيل فى وجه أمور العالم المختلفة).

وتتحدث المرأة العجيبة بعد ذلك عن ميزانية جمهورية العشاق فتقول :

(لقد أدير العالم حتى الآن بسوء نية ودائمًا ما يكون دخله أقل من نفقاته . والحقيقة أن العالم لا يلزمه كل هذا العمل فمن الممكن تحويل الدنيا إلى جنة بثلث هذا العمل ، وبثلث الجهود التى يتم إهدارها والأموال التى يتم إنفاقها

فى غير موضعها . بالله عليك : من الذى يحتاج إلى كل مصانع الأسلحة هـذه؟ من الذى يحتاج فى عالمنا إلى كل هذه الدعايات الكاذبة والصحف العميلة ؟ من الذى يحتاج إلى كل هذه البيروقراطية والمظاهر والمراسم والإدارات والمؤسسات؟ . عندما يرأس أحد (العشـاق) جـهازًا مـن الأجـهزة ، فـإن السـاعة أو السـاعتين اللتين يعمل خلالهما فـى اليـوم الواحـد سـتكون النتيجـة منـها أضعـاف عمـل اليائسين المتشائمين ، وعلاوة على هـذا فـإن الدنيـا الآن مليئـة بـالذين يـأكلون بالمجان ، وهؤلاء يجب القبض عليهم وإرسالهم إلى العمل حتى يجـد الشـباب وقتًا كافيًا للحب ، ولو أن كل سكان العالم أحبوا مرة واحدة فى حياتهم لكـان وضع الكرة الأرضية غير وضعها اليوم . إن كل أنواع التعدى وأكل حقوق الناس والجرائم والخيانات قد حدثت على أيدى أشخاص لم يعشقوا ولم يعرفـوا عـالم (العشق) أنهم يريدون أن يكون كل الناس أشقياء مثلهم) .

من تكون هذه المرأة العجيبة التى تدعوا بهذا الأسـلوب العـذب الطريـف إلى جمهورية العشاق؟

أنها امرأة ابتكرها خيـال الكـاتب الإيرانـى الدكتـور (محمـد علـى اسـلامى ندوش) فى مسرحية بديعة اسمها (غيم الزمان وضفـائر الحسـان) وترجمـها إلى العربية باحث مدقق وأديب فنان هو الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا . وقد ترجـم الدكتور شتا هذه المسرحية عن الفارسية ، فـهو أسـتاذ بـارز مـن أسـاتذة اللغـة الفارسية فى الجامعات ، وقد عمل لفترة من الوقت مستشارًا ثقافيًا فـى سـفارة مصر بطهران . وهناك تعرف على كاتب هـذه المسـرحية البديعـة فترجمـها إلى العربية وقدم لها بمقدمة دقيقة وشاملة .

ونعود إلى الدكتور (محمد على اسلامى) مؤلف المسرحية ، لنقرأ ما كتبه عنه مترجم مسرحيته (الدكتور شتا) حيـث يقـول بعـد أن تعـرف عليـه وعقـد معـه صداقة قوية :

(ولد الدكتور محمد علـى إسلامى سنة ١٩٢٥ فـى قريـة نائيـة مـن قـرى (إيران) هى قرية (كبورة) ومن أب ذى تعليم دينى لجـد ذى تعليـم دينـى. وإن

لم يكن الأب أو الجد قد ارتديا (كسوة رجال الدين) ، بل ظلا يمارسان الزراعة قانعين من الدين بالعلم والقدوة واللقب والاحترام الذى يكنه أهل القرية لرجال الدين . وكنت أجد فى منزل الدكتور اسلامى عند زيارتى له : ثقافة الغرب وثقافة الشرق فى خليط لا تناقض فيه ولا افتعال ، وأجد مع كتبه نعم الصحبة، وأجده رائدًا من رواد كل فن جديد من فنون الأدب الفارسى الحديث . وقد ترجم إلى الفارسية ديوان (ازهار الشر) للشاعر الفرنسى بودلير ومسرحية (انطونيو وكليوباطره) لشكسبير وغيرهما من الأعمال الأدبية العالمية ، وفوق كل هذا فهو رحالة نافذ البصر عميق النظرة ، رحل إلى كثير من أقطار الأرض وكتب عنها فقد سافر إلى الاتحاد السوفيتى (قبل انهياره) وإلى الصين، والولايات المتحدة ، والدانمارك وتركيا وأفغانستان وكتب عن كل هذه البلاد، وزار مصر وإن لم ينشر مذكراته عنها حتى الآن ، وهو أستاذ للأدب الفارسى فى جامعة طهران وناقد أدبى من الطراز الأول يعرف على مدارس النقد الغربى كل المعرفة ، فضلاً عن أنه الوجه المشرق لإيران فى كل المؤتمرات الأدبية والفكرية العالمية) .

هذا هو ما يقوله الدكتور شتا عن مؤلف المسرحية ، ذلك الفنان الذى ابتكر شخصية تلك المرأة العجيبة التى تدعو إلى (جمهورية العشاق) وتنادى بها وتحلم بإنشائها لو كانت الأمور بيديها كما تقول ، ومسرحية (الدكتور اسلامى) تكشف لنا أننا مقصرون كل التقصير فى بذل جهود منظمة لترجمة الآداب الشرقية إلى اللغة العربية ، مثل أداب إيران وتركيا والهند وباكستان وأندونيسيا وأفغانستان وغيرها . فآداب هذه الشعوب قريبة منا ومن همومنا وهى وحدها التى تساعدنا على فهم هذه الشعوب المحيطة بنا والتى يؤثر مصيرها علينا أشد التأثير . بالإضافة إلى أن التعرف على أدب مثل الأدب الإيرانى الحديث يستطيع أن يقدم إلينا صورة لإيران الجميلة ، المليئة بالشعر والإنسانية والأحلام مما يساعدنا على فهم هذا البلد المهم لنا والتعامل معه على أسس صحيحة.

ومسرحية الدكتور اسلامى التى ترجمها الدكتور شتا ونشرتها هيئة الكتاب فى سلسلة (روائع المسرح العربى) هى عمل فنى جميل رفيع المستوى ، فى أفكارها وأسلوبها ورؤيتها الصادقة العميقة لمشاكل الإنسان فى العصر الحديث، والمسرحية لا تقدم إلينا شخصيات لها أسماء محددة ، بل هى شخصيات لها صفات مثل (المرأة - الوزير - الدبلوماسى - الفنان - الصحفى - رجل المباحث) . أما مكان المسرحية فهو (شقة فى أحد أحياء لندن) . أما زمان المسرحية فهو (ليلة الثلاثاء فى الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٦٢ . والفصل الرابع والأخير يحدث سنة ١٩٦٣) .

وتدور المسرحية كلها فى شقة تلك المرأة العجيبة ، التى تدعو إلى (جمهورية العشاق) وهى امرأة جميلة ذكية لديها أفكار ثاقبة وشاعرية ، ولديها أيضًا نقد قوى للحياة المعاصرة ، ولوضع الإنسان فى هذه الحياة ، وكل ما جاء عن (جمهورية العشاق) كان على لسانها . وهى تعيش على علاقتها بالآخرين . فتقدم إليهم السعادة - كما تقول - يقدمون إليها المال . وقد رأينا فى بداية هذا الفصل فكرتها عن (العشق والعشاق) أما فكرتها عن النقود فهى تقول فيها:

(لا أظن أن هناك ما هو أعجب من النقود فى الدنيا .. شئ بهذه القذارة تتناقله أيدى الملايين ، ويتم تداوله بين الأيدى القذرة والمصابة بالجرب والميكروبات ، ومع ذلك فإن أكثر الناس نظافة وأشدهم وسوسة لا يشعرون بالاشمئزاز من لمسها ، ليس هذا فحسب ، بل ويتحسسونها فى أيديهم بعشق شديد ، والواقع إن من اخترع النقود ، قد قرأ الفاتحة على روح الحرية ، وأنا لا أحب النقود . بل أحتاج إليها ، أننى مضطرة لامتلاك النقود ، لأن كل ما أريده فى الحياة أستطيع أن أحصل عليه عن طرق هذه النقود فحسب) والنقود عند هذه المرأة هى (الحرية) ولذلك يمسك حكام العالم بالنقود لكى يتحكموا فى الحرية (فحكام العالم يعطون الحرية لكل شخص بقدر ما يرغبون، فهم يقولون لك مثلاً : يجب أن تكون حرًا فى حدود أربعين جنيهًا فى الشهر، ويقولون لى: أنت حرة فى حدود مائة جنيه . الأمر متعلق بما يهمهم أن تكون عليه

حدود كل شخص) وما يتصل بالأشخاص ينطبق هو نفسه على الأمم والشعوب، فالأقوياء يحددون لغيرهم حدود الميزانية المسموح بها ، حتى لا يزيد حجم الحرية على الحجم المقرر) .

وتواصل هذه المرأة العجيبة ، بطلة المسرحية الإيرانية تقديم ملاحظتها عن العالم المعاصر ، وعن قوة (الإعلام) التى تمثلها الصحافة وهى توجه حديثها هنا إلى أحد الصحفيين فتقول (ضع هذا القلم والورق فى جيبك . أننى أتعذب بتسجيل كلامى . وحيثما يوجد القلم والورق تولد دائمًا أكاذيب بشعة . لقد أصابتنى حساسية شديدة من هذا الأمر . فيما مضى عندما لم تكن هناك جرائد أو كانت قليلة ، كان الناس عندما يكذبون يراعون الذوق والإنصاف قليلاً ، ربما خجلاً من المواجهة ، أو بسبب اعتبارات إنسانية أخرى ، ولكن الحال تغير الآن ، يجلس صاحب القلم ليلاً داخل حجرته ، ويختلق كذبه بشعة ، ويكتبها فوق أوراقه ، ثم يجرعها للناس بقلم الرصاص البارد ، وصدقنى فإن رصاص الحروف أحيانًا لا يقل خطرًا عن رصاص الطلقات فى المسدسات).

ثم تواصل (المرأة) حديثها المتشائم عن الصحافة فتقول :

(الواقع أن تجربتى الشخصية هى التى كونت عندى هذا الرأى ، لقد نشرت الصحافة لى مئات الصور ، وكتبت آلاف الأشياء عنى صدقًا وكذبًا، وصارت سببًا فى أننى أصبحت مشهورة وأصبحت غنية. أنا مدينة للصحافة بصورة شخصية . وكأننى أنا نفسى دليل على القدرة الجهنمية للصحافة ، فهى تستطيع أن تجعل من (القشة) جبلاً ، وتستطيع أن تصنع بقوة الدعاية ماردًا قدمه فى الشرق وقدمه الأخرى فى الغرب) .

ثم تصل المرأة العجيبة إلى قمة التعبير عن تشاؤمها بوضع الإنسان الحديث فتقول :

(.. الصحفيون مثل السياسيين ومحترفى مكبرات الصوت ، كلهم لاعبون فوق هذه الارض وعملهم هو أن يقوموا بتسلية الناس ، ويبدو أن البشرية ملت من الحياة لأنها عاشت طويلاً وأصبحت بحاجة إلى هوايات عجيبة وغريبة،

لقد مرت على هذه الكرة الأرضية الحائرة بضعة آلاف من السنين ، وصارت الأرض صغيرة ، وأصبح كل من عليها يعلمون الكثير من أحوال بعضهم البعض، أليس مريعًا أن يحدث شئ ما فى أقصى طرف من العالم .. فى الصين مثلا، وبعد حدوثه ببضع دقائق يبلغ أسماع الناس هنا فى لندن ؟ إلى متى يمكن تحمل مثل هذه الحياة ؟ لقد سمعت أنه فى بعض قبائل أفريقيا يضعون المريض المشرف على الموت بينهم ، ثم يبدأون التصفيق والرقص والغناء حوله حتى تخرج روحه بسهولة، إن البشرية الآن مثل هذا المريض الأفريقى .. تعزف هى نفسها لحن الزوال من أجل نفسها وفى هذا الرقص الجهنمى ، وفى هذه الأوركسترا المخجلة التى اختلطت فيها أصوات بكاء طفل بأنين سجين بعربدة مخمور بأنات متألم ، فإن أولئك الذين يملكون أعصابًا مرهفة هم الذين يرحلون سريعًا ، أما أصحاب الأرواح الغليظة والأقدام الثقيلة فيرحلون بعدهم، وبعد الجميع يرحل اللاعبون من الصحفيين والسياسيين وغيرهم ، فمصير الجميع واحد : اللاعبون الذين يرقصون ويغنون والمريض الذى يحتضر ، فالجميع لا مهرب لهم من الرحيل والموت) .

وتتحدث بطلة المسرحية أو المرأة العجيبة ، التى لا ترى حلاً للحياة إلا فى إنشاء (جمهورية العشاق) عن عملها فتقول لأحد زوارها :

(إن عملى لا يستدعى الضحك ، فالرجال الذين تعاملت معهم وأنت نفسك واحد منهم كلهم كانوا يبدون لى تعساء ، وكنت أرى ألا ملجأ لهم فى الحياة، فهم جميعًا بحاجة إلى العون . أنهم سوف يموتون فى الغد دون أن يفهموا معنى الحياة ، كان كل منهم يأتى إلى سجينًا فى عالمه الضيق ، ولقد جعلتهم يتفتحون ، وأخرجتهم من سجونهم الخاصة ، وأعطيتهم هواء منعشًا ، كانوا مثل نسيج الصوف ، لابد من نشره فى الهواء بين الحين والآخر حتى لا يتعرض للعتة).

(وفى مهنتى هذه فأنا مشغولة جدًا ، على أن استحم وارتدى ملابسى وأذهب إلى الكوافير عصرًا ، وأمارس الرياضة ، وبين الحين والآخر أذهب إلى

دروس الرقص للمحافظة على رشاقة قوامى ، وأمشى فى الحديقة العامة لكى أشم الهواء النقى ، وتتفتح بشرتى وتتمدد، أو أقرأ .. ليس الأمر بالهزل . أننى أحيانًا أعمل أكثر من الساعات الثمانى التى جعلها القانون البريطانى حدًا أقصى لساعات العمل ! ونتيجة عملى أكثرمن عمل الفلاح الذى يرعى الأرض ويجعلها مثمرة . أننى أرعى جسدى ، وأبدى نفسى لهؤلاء المتعبين من أعمالهم اليومية ، المتعبين من الآلة ، المتعبين من الأسرة ، المتعبين من الحضارة ، والذين تكدس عليهم الدخان فأصبحوا كمداخن المصانع، وبفضلى فإنهم ينتعشون قليلاً ، فهل هذا عمل صغير ؟ ألا تدرى أننى حيثما حللت وظهرت تستدير الروؤس وتظهر البسمة على الشفاة ، ويزول (التكشير) من الوجوه العابسة) .

هذه هى بطلة تلك المسرحية الجميلة ذات الاسم الغريب الطريف وهو (غيم الزمان وضفائر الحسان) والتى كتبها الشاعر الإيرانى الموهوب (الدكتور اسلامى) وترجمها إلى العربية ترجمة جميلة وقدم لها الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا . وهى مسرحية رائعة ، تستحق أن يقدمها الأستاذ وقد تبدو المسرحية "متشائمة". وقد تبدو بطلتها غير أخلاقية خاصة فى مهنتها التى اختارتها لنفسها ، ولكن المسرحية فى حقيقتها الصافية ليست كذلك . أنها نقد للواقع فى الحضارة المعاصرة ، ولكنها فى نفس الوقت تغنى وتعزف وتحلم بحياة إنسانية خالية من مصانع الأسلحة ، ومن الحروب ، ومن اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، ومن الانغماس الكامل فى العمل من أجل المال والسلطة والنفوذ، ومن تضييق الخناق على مشاعر الحب ولحظات الاستمتاع الهادئ بكل ما أتاحه الله للإنسان من جمال فى نفسه وفى الطبيعة ، والمرأة فى هذه المسرحية ليست امرأة عامة مباحة للجميع ، بل لعلها تكون رمزًا لروح الحياة وجوهرها، فهى تقول الحقيقة وترفض الافتعال والتصنع ، وتدعو للعودة بالإنسان إلى الطبيعة الصافية ، الخالية من الكذب والخداع .

عشاق وغاضبون

من العادات التى دربت نفسى عليها طويلاً وحـاولت أن أجعل منـها بقدر الإمكان جزءًا من طبيعتى عادة محددة هى ألا أغضب مـن الآراء التـى اختلفت معها ، بل إننى أنصت إليها بعناية ، ولا أحرم نفسى مـن الاستمتاع بـها إذا توافر لها أمران : الأول هو حسـن النيـة والصدق .. والثـانى هـو جمـال الأداء ونزع سلاح العدوان والعنف من أى اختلاف .. فليـس مـن الضرورى أن يكـون الاختلاف بين الناس قائمًا تحت شعار واحـد لا يتغـير وهـو (.. يـا قـاتل يـا مقتول) فالحياة رحبة الصدر ، وهى تتسع للاختلاف فى الرأى ، ولكن الحياة تضيق إلى حد بعيد إذا أصر صـاحب الـرأى علـى أن يكـون وحـده موجـودًا ولا وجود لأحــد سـواه ، وإذا كـان يملك القـوة ، فإنـه يلغـى بـهذه القـوة وجـود الآخرين.

الطبيعة نفسها تحب الاختلاف والتنـوع ، والألـوان الموجـودة فـى الطبيعـة سبعة وليست لونًا واحدًا ، ولو اكتفت الطبيعة بلـون واحـد ، أو لونـين اثنـين هما الأبيض والأسود ، لأصبحت هذه الطبيعة كئيبة ولا تطـاق . وهكـذا ينبغـى أن تكون حياة الإنسان ، فحياة الإنسان هى صورة أخـرى مـن صـور الطبيعـة. وتعدد الألوان فى الحياة ، كما هو الأمر فـى الطبيعـة ، يعطـى للحيـاة قيمتـها ومرونتها وجمالها وقدرتـها علـى الاسـتمرار والتقـدم والتخلـص مـن المشكلات والعقبات .

بهذه الروح قدمت فى الفصل السابق مــن هـذا الكتـاب تلـك الآراء الجريئـة والجميلة التى عبرت عنها (امـرأة) خياليـة هـى بطلـة مسرحية (غيـم الزمـان وضفائر الحسان) للفنان الإيرانى المبدع (محمد على اسلامى) والتى ترجمــها إلى العربية فنان موهوب وباحث مدقق هو الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا .

والآراء التى أعلنتها بطلة المسرحية فى الفصل السابق قد أغضبت بعض من قرؤها فقالوا : هذه آراء متحررة بل وفيها بعض الإباحية) ومجتمعنا بتقاليده يرفضها ويعترض عليها فكيف توافق أنت عليها وتقدمها للناس ؟!

وفى الرد على هؤلاء الغاضبين من القراء أقول : إن هذه الآراء ليست آرائى، بل أنها ليست آراء مؤلف المسرحية (الدكتور اسلامى) فهى آراء تقول بها شخصية واحدة من شخصيات مسرحيته ، وهى الشخصية التى سماها باسم (المرأة) ، وفن المسرح فى نماذجه العالية ، هو أجمل الفنون ، لأنه فن (ديمقراطى) يقوم على (الحوار) بين آراء متعددة وشخصيات مختلفة ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يولد فن المسرح فى اليونان ، أول بلد فى الدنيا يكتشف فكرة الديمقراطية ، ويحاول أن يعلمها للإنسانية ، وقد فقدت اليونان بمرور الزمان ، كثيرًا من بريقها ، ولكن بقى لها دائمًا ذلك البريق الذى لا ينطفئ أبدًا ، وهو أنها (أم الديمقراطية) فى هذه الدنيا ، وأنها هى التى اكتشفت بعبقريتها الفريدة ونزعتها الإنسانية النادرة ، أن الحياة تقوم أساسًا على الحوار بين وجهات نظر مختلفة ، وأنها تقوم على التعدد والتنوع ، وأن نجاح أى وجهة نظر محددة لا يقوم على القوة ، وإنما يقوم على ما تملكه وجهة النظر هذه من براهين وأدلة تجعلها أكثر قابلية للنجاح منذ اللحظة الأولى ، بل إن النجاح يتحقق بالحوار والأخذ والرد والمرونة والتعديل ، وبعد هذه العمليات جميعها يولد الرأى الناجح القابل للانتصار على غيره ، وانتصار الرأى لابد أن يكون سلميًا ، أى عن طريق الحوار المستمر ، أما النجاح العنيف القائم على القوة وإلغاء الآراء الأخرى ، فهو انتصار مؤقت لايدوم ، ولذلك انتصرت آراء وعقائد كان أصحابها فى الأصل ضعفاء ، مثل المسيحية والإسلام، وانهزمت آراء أخرى مثل الفاشية والنازية والاستعمار ، وكانت هذه الآراء مسنودة بالدبابات والطائرات والغواصات ، وبعضها كان مسنودًا بالقنابل الذرية.

اليونانيون اكتشفوا الحوار وآمنوا به ، وكان أول فلاسفتهم وهـو (سقراط) لا يكتب حرفًا أو كلمة ، بل كان يمشى فى الأسواق ويحاور النـاس ويجادلهم ، ويساعدهم ويساعد نفسه بهذه الطريقة على الوصول إلى الحقيقـة ، وجـاء بعـده تلميذه (أفلاطون) فكان أهم كتاب قدمـه منـذ حـوالى ألفين وثلاثمائـة سنة هـو كتابه (محاورات أفلاطون) فالحقائق التى يسعى هذا الكتاب الرائـع لاكتشافها لم تكن (قرارات نهائية) بل كانت حوارات بين آراء متعددة تسـعى إلى المعرفـة عن طريق الاختلاف فـى الـرأى ، بحيـث يستطيع كـل رأى أن يقـدم برهانـه وحجته، وفى النهاية ينتصر البرهان الأقوى والحجة التى تستطيع إقناع العقل ويستريح إليها الضمير .

هذه الروح المتسامحة الديمقراطية المؤمنة بتعدد الألوان فى الحياة والطبيعة، هى التى استطاعت أن تقدم للإنسانية هدية جميلة هى : فن المسرح . وهو فـن الديمقراطيـة والحـوار والتنـوع والبحـث عـن الحقيقـة مـن خـلال آراء تحسـن الخلاف فيما بينها .

وبذلك كله لا يمكن محاسبة (فنان مسرحى) على الآراء الـواردة علـى لسـان أبطال مسرحيته ، فالفنان المسرحى الناجح المؤثر على الناس هو الذى يسـتطيع أن يعرض بصدق وأمانة الآراء المختلفة حتى لو كـان هـو نفسـه معترضًـا عليـها ناقدًا لها ، والفنان المسرحى الـذى لا يستطيع أن يفعـل ذلـك عليـه أن يـترك المسرح فورًا ، ويبحث لنفسه عن عمل آخر ، يتيح له أن يعبر عن آرائه بصورة مباشـرة لا تنـوع فيـها وليـس فيـها الاختـلاف بـين وجـهات النظـر المتعـددة والمتعارضة ، إن الفنان المسرحى الحقيقى الموهوب عليه أن يعرض الآراء التى لا يتعاطف معها بنفس الأمانة والدقة التى يعرض بهما آراء أخرى يتعاطف معها.

وعلى هذا الأساس فإن الآراء التـى أعلنتـها (المـرأة) فـى مسـرحية (الدكتـور اسلامى) ليسـت آراءه وليسـت آرائـى ، ولكنـها آراء (امـرأة) غريبـة إنجليزيـة متحررة لها وجهة نظر فى الحياة والعالم الحديـث عـبرت عنـها أجمـل تعبير

فيما سميته فى الفصل السابق باسم (جمهورية العشاق) أنها ترى أن السعادة على هذه الأرض لن تتحقق إلا فى (جمهورية العشاق) أى فى تلك الجمهورية الخيالية التى تعيش فى رأسها وحدها ، والتى يكون فيها الحب هو أساس كل العلاقات الإنسانية الأخرى ، لأن الذين لا يحبون لا يستطيعون أن يتحمسوا لشئ ، ولا يستطيعون أن يبتكروا شيئًا ، ولذلك ففى (جمهورية العشاق) هذه تكون هناك عقوبات ومحاكمات لكل من لا يحب ، حتى تتخلص الإنسانية من العاجزين عن الحب، وتعطى قيادتها بإرادتها للمحبين والعشاق .

فكرة خيالية ، ولكنها مع ذلك تفيدنا وتلفت نظرنا إلى معنى عام جميل هو أن الحب قوة كبرى من قوى الحضارة والتقدم ، وأن المجتمع الخالى من الحب، أو الذى يحارب الحب ويضيق عليه الخناق ويطارده ويعاديه .. مثل هذا المجتمع لا أمل فيه ، لأنه سوف يتحول إلى مجتمع للحقد والخمول والدسائس وعدم الحماس لشئ والتفتيش المستمر عن العيوب والأخطاء فهو مجتمع فاسد من أوله إلى آخره .

وأذكر هنا قصة سجلها تاريخنا العربى عن أحد علماء الدين المسلمين القدماء. وهى قصة تدل على ذوق روحانى رفيع ، فقد كان هذا الفقيه الكبير يملك دارًا واسعة لها عدة أبواب ، وكان من عادته أن يدخل إلى داره من باب واحد معين ، وذات يوم عاد إلى داره فوجد شابًا وفتاة يتناجيان فلما رأياه أصيبا بالذعر ، وانصرف كل منهما فى طريق ، وأسرعا بالاختفاء ، ومن يومها قرر الفقيه ألا يدخل إلى داره من هذا الباب الذى تعود على الدخول منه ، ولاحظ الناس ذلك فسألوه فقال لهم :

لا أدخل من باب فرقت فيه .

ولم يدخل الفقيه الكريم من هذا الباب بعد أبدًا . وموقف الفقيه هنا كما قلت هو موقف من مواقف (الذوق الروحانى الجميل) فالحب فى نظره طاهر ،

وهو اعتراف بأكبر نعمة لله على الإنسان ، تساعده على تحمل متاعب الحياة، وتملأ قلبه بالحماس للعمل فى سبيل غاية نبيلة .

ونعود إلى ما قالته بطلة (الدكتور اسلامى) عن الحب .. أنها تحلم وتتخيل وتتصور أن الدنيا تكون أجمل لو أصبحت (جمهورية للعشاق).

أهلاً وسهلاً بهذه الجمهورية ، وأهلاً وسهلاً بتمجيد الحب ورفعه إلى حيث يكون أول دافع للإنسان فى العمل والأخلاق والتعامل مع الآخرين .

هذه هى الفكرة الرئيسية عند بطلة المسرحية ، ولكن هذه البطلة الخيالية اندفعت لتقديم تفاصيل أخرى عن الحياة فى (جمهورية العشاق) حسب تفكيرها ورؤيتها الأوروبية للحياة . فهى تدعو إلى العلاقات الحرة قبل الزواج ، وتفرض أن يكون سن الزواج للرجل أربعين سنة وللمرأة خمسًا وثلاثين سنة ، وهى نفسها تقبل أن تعيش حياتها فى (حرية كاملة) ولا بأس بأن تتعدد فى حياتها علاقتها مع الرجال .

فدعوتها إلى (جمهورية العشاق) فكرة جميلة ومقبولة . ولكن (دستور) هذه الجمهورية كما وضعته هذه المرأة لا يمكن التسليم به فى سهولة ويسر ، فالحب الحقيقى لابد أن تقيده أخلاق قوية والتزامات لا فكاك منها. ونحن هنا – فى الشرق – لا نقبل هذا الدستور (الأوروبى) ولا نوافق عليه ، ولا نخجل من حرصنا على ربط الحب بالمسئولية ، ولا من رفضنا لأى فوضى فى العلاقات العاطفية ، ونحن لا نتحمس لفكرة (الزواج) المتأخر إلى سن الأربعين عند الرجل والخامسة والثلاثين عند المرة .. إلا فى الأحوال الضرورية .

هذه آراء يتحملها الذهن الأوروبى ولا نتحملها نحن . ونحن فى هذا الخلاف بيننا وبين الأوربيين أفضل منهم وأكثر حرصًا على كرامة الإنسان ، وسلامة الحياة ، واستقامة المجتمع .

فالفكرة الرئيسية (لجمهورية العشاق) رائعة ، والتفاصيل (فيها كلام) وأعتقد أن (الدكتور اسلامى) مؤلف المسرحية يقف الموقف نفسه ، ولكنه أراد أن

يعرض رأى المـرأة الأوروبيـة بأمانـة كاملـة كمـا فهمـه وتصوره . ولعلـى بـهذا التوضيح أكون قد قدمت ردًا على الذين ثاروا على العشاق و(جمهورية العشـاق) وأوضحت أننى فى هذه الجمهورية من دعـاة الحـب المسئول ، وليـس الحـب القائم على الفوضى والتحرر من أى التزام .

على أن من الإنصاف لهذه المسرحية البديعة أن نقول أنها لم تقم على فكـرة (جمهورية العشاق) فقط ، ففى هذه المسرحية أفكار أخرى رائعة ونافعة ، ومـن أهم هذه الأفكار ما جاء على لسان الوزير الإنجليزى وهو أحد أبطـال المسـرحية الرئيسيين ، فهذا الوزير ينتقد (السياسة) الغربية و(ينتقد) العالم الثـالث الـذى نحن منه انتقادًا عنيفًا وشديد القسوة . وعندمـا أعـرض بعـض آراء هـذا الوزيـر الإنجليزى ، فإن ذلك لا يعنى أننى أوافق عليها، ولكننى أطرحها لأنها تمثـل رؤية نقدية لنا ، جديرة منا بأن نفكر فيها ، ونـأخذ منـها مـا ينفعنـا ، ونـرد على ما يسئ إلينا ويجرحنا ، والمسرحية بالمناسبة مكتوبة قبل انـهيار الاتحـاد السوفييتى سنة ١٩٢٢ ، أى عندما كانت (الحرب الباردة) قائمـة علـى أشـدها بين (الغرب) و(الشرق) .

يتكلـم هـذا الوزيـر عـن (الكـذب) بالطريقـة الغربيـة القائمـة علـى الفلسـفة النفعية ، والتى يسميها الغربيون باسم (البرجماتيزم) وخلاصتها أن كل شئ لـه هدف نافع فإنه مفيد حتى لو كـانت وسـائله سيئة وغـير أخلاقيـة . المـهم أن تصل إلى هدفك الأساسى ولو بالكذب . يقول الوزير أثنـاء زيـارة (للمـرأة) التـى يذهب إليها سرًا ليستريح عندها بضـع سـاعات كـل أسـبوع – والحديـث هنـا موجه إلى (قط) تلك المرأة ، فكأن الوزير يحدث نفسه .

(.. ألا تعرفنى ؟ أننى السيد نفسه الذى يأتى هنا ليالى الثلاثـاء والجمعـة ، ويكـذب علـى زوجتـه ، يكـذب بيسـر وسـهولة وكأنـه يشـرب المـاء ، والمـرأة المسكينة – زوجتى – ليست حمقاء ، لابد أنها فهمت لكنها تتجاهل الأمـر .. أننى لا أكذب على زوجتى فقط ، ولكننى أكذب على آخريـن أيضًـا .. ولكـن

أفى الكذب عيب ؟ ألا تصير الحياة صعبة بدون كذب؟ .. لنأخذ السياسة على سبيل المثال . أليست السياسة هى الكذب ؟ .. أليست خداعًا من طرف لطرف آخر ؟ إن خلاصة السياسة هى : الغش .. وفى السياسة عندما يقال الصدق فهو يقال من أجل الغش . أى أن الهدف واحد من الصدق والكذب ، أو بعبارة أخرى يلعب الصدق دور الكذب تمامًا .. انظر إلينا (فى أوروبا) .. تقال دائمًا أكاذيب فظيعة لنيل بعض المصالح العظيمة .. فما المشكلة فى أن تقال أكذوبة من أجل أمر صغير خاص مثل أكذوبتى على زوجتى فى سبيل أن أحصل على ساعات من الراحة مع امرأة أخرى؟) .

هذا هو كلام الوزير البريطانى .. وهو كلام طريف وظريف وحقيقى ، ولكنه غير أخلاقى، ولا يستطيع الذين يرفضون مذهب "المنفعة" الذى يقوم على ما يسمى بالفلسفة (العملية) أو (البرجماتية) أن يقبلوه . والذين يرفضون هذا الكلام وهذه الفلسفة كثيرون ،لأنهم يرون أن (النجاح) بلا أخلاق ليس نجاحًا، وأن النجاح الحقيقى ينبغى أن تكون وسائله طاهرة وشريفة ، على أن لهذا الوزير الواقعى آراء أخرى مثيرة أنقلها كما هى (من ترجمة الدكتور شتا) وأترك التفكير فيها والحكم عليها للقارئ . من هذه الأراء رأيه فى دول العالم الثالث، حيث يقول فى حديث مع المرأة التى يذهب إليها سرًا بدون علم زوجته :

(حدثنى سفير دولة (برندستان) اليوم هاتفيًا وقال لى أنه تلقى تعليمات من دولته ليدخل معنا فى مباحثات بشأن شراء تسع عشرة مقاتلة نفاثة .. تعلمين بأية شروط ؟ على أقساط لمدة تسعة وتسعين سنة.. أى بالمجان. وعلينا أيضاً أن نرسل معها الطيارين والخبراء . وبعدها بمجرد أن يركبها أحد الطيارين المحليين ، يأتى بها فوق المدينة مباشرة ، ويتركها فوق أحد الأحياء ، ويقضى على نفسه وعلى الطائرة وعلى عدد من الناس . الواقع أن بعض هذه الدول (فى العالم الثالث) تتجاوز الحدود وتنسى الحساب ، ثم أننى إذا أجبت بالرفض، فإن جناب السفير يجعل صوته فى نعومة القطيفة ، وبلهجة شديدة الأدب

تفيض بالتهديد من فرط أدبها وجفافها وبرودها يقول : (حسنًا جدًا .. فإن بلدى سوف يضطر للتفكير فىحل آخر) . والآن : ماذا يعنى بالتفكير فى حل آخر ؟ .. هذا الحل هو أن يذهب ويشترى النفاثات من روسيا السوفيتية . فكرى بالله عليك فى الأمر . هذه أيضًا صيغة لا تملها الدول (المتأخرة) أن لم تفعلوا فسوف تفعل روسيا السوفيتية ، والله لو استطاع الروس، أن يتعاملوا مع هذه الدول ليومين اثنين لتعرضوا للدمار التام ، ولوقعوا فى كوارث لا حد لها بسبب هذه الدول ، إن دولتنا ذات الثلاثمائة عام قد ضاقت بأمور هذه الدول تمامًا ، ولو كان الأمر ممكنًا لحملت هذه الجزيرة (أى إنجلترا) وأخفيتها فى ركن من أركان الدنيا من أجل ألا يجد الشرقيون طريقًا إليها ، وليكفوا عن مضايقتنا وأكبر عداوة نستطيع ارتكابها فى حق الروس هى أن نحول إليهم عددًا من هذه الدول لعدة أيام ليذوقوا طعمها .. ولكن .. خسارة أن أصدقاءنا الأمريكيين لا يوافقون) .

هذه هى نظرة الوزير إلى السياسة وإلى الكذب ، وإلى دول الشرق المختلفة كما يقول .

وهى نظرة تستحق التفكير والتأمل ، ولابد من التأكيد مرة أخرى أن هذه الآراء ، ليست آراء الدكتور إسلامى مؤلف المسرحية .. ولكنها نظرة بطل من أبطال المسرحية .. وهو وزير إنجليزى معاصر .

وهى آراء نستطيع أن نرفضها بل ويجب أن نرفضها لأن فيها كثيرًا من التجنى وعدم الإنصاف .. ولكن ما الذى يمنعنا من الاستماع فيها والتفكير فيها، وطرح آراء أخرى مخالفة لها ؟!

فنان يحب وامرأة بلا قلب

فى سنة ١٩٦١ أتم الكاتب الروائـى الأمريكـى (ارفنج والاس) روايتـه التـى حملت اسم (الجائزة) وموضوع هذه الرواية هو (جائزة نوبل) السـويدية العالميـة والتى فاز بها سنة ١٩٨٨ أديبنا الكبير نجيب محفوظ .. وقـد أصبحـت روايـة (الجائزة) من أشهر الروايات فى القـرن العشرين ، بـل أن شـهرة الروايـة قد فاقت شهرة مؤلفها ، خاصة بعد أن ظهر جـزء مـن الروايـة فـى فيلـم معـروف بنفس الاسم ، أى (الجائزة) وإن جاء الفيلم أقـل بكثـير فـى قيمتـه الفنيـة مـن الرواية . والرواية نفسها ضخمة ، حيث تقع فـى حـوالى ألـف صفحـة ، وقد قضى مؤلفها خمسة عشر عامًا فى الإعداد لها وجمع المادة والوثـائق والتفـاصيل والأسرار التى أصبحت فيما بعد مادة لروايته الرائعة . فقد بدأ فى الإعداد لهذه الرواية سنة ١٩٤٦ ولكنه لم ينته من كتابتها إلا سنة ١٩٦١ .

وهذا الجهد الشاق يقدم لنا نموذجًا حيًا من بين نماذج كثـيرة أخـرى تؤكـد أن الموهبة وحدها لا تكفى لإبداع أعمال فنية كبيرة وخالدة ، فلابد مـن الإرادة القوية والعمل الدائب المستمر فى البحث والدراسة وجمع المادة الأساسـية التـى يمكن بعد ذلك أن تخلق فنًا يولد ليعيش .

وقد ترجمت رواية (الجائزة) إلى العربية سنة ١٩٦٣ وقامت بترجمتها لجنـة أطلقت على نفسها اسم (لجنة كتب جوائز عالمية) وأشرف على الترجمـة وقدم لها الأستاذ أنيس منصور .

ورواية (الجائزة) هـى تصوير رائـع ودقيـق للمؤامـرات والصراعـات الأدبيـة والفكرية والسياسية والشخصية التى تحيط بجائزة نوبـل وتتحكـم فـى لجانـها المختلفة ومن يقرأ هذه الرواية الكبيرة الممتعة يخرج بفكرة أساسـية واحـدة هـى أن (جائزة نوبل) رغم شهرتها العالمية التى جعلت منها أكـبر جـائزة دوليـة ، إنما تنطوى فـى أسرارها الحقيقيـة علـى كثـير مـن الصغـائر والمنافسـات غـير الشريفة ، بل وتنطوى على كثير من الفضائح أيضًا . وبالطبع فإن هذه الأسـرار

والفضائح التى يكشفها مؤلف الرواية ، (ارفنج والاس) لا يمكن أن تسقط جائزة (نوبل) نهائيًا من عرشها الذى تتربع عليه كأهم جائزة عالمية فى هذا العصر ، ولكن الرواية تؤكد أن (جائزة نوبل) مثلها مثل الكثير من الأعمال الإنسانية الأخرى، لم تصل إلى الكمال أو النزاهة المطلقة ، وأن هذه الجائزة إذا كانت قد ذهبت لعدد ممن يستحقونها من كبار الأدباء والمفكرين والعلماء ورجال السلام، فقد ذهبت فى أحيان كثيرة أخرى إلى غير من يستحقها ، ونالها فى بعض السنوات من تساندهم دول كبرى ، أو جهاز مخابرات عالمى ، أو قوة اقتصادية تسعى إلى تحقيق هدف من الأهداف الخاصة ، بل لقد نال هذه الجائزة أحيانًا بعض الذين عقدوا علاقات شخصية قوية بأعضاء لجان التحكيم فى جائزة نوبل بفروعها المختلفة وعلى رأسها : الأدب والكيمياء والطب والسلام .

والرواية مليئة بالقصص الكثيرة التى يولد بعضها من البعض الآخر ، تمامًا كما يحدث فى قصص (ألف ليلة وليلة) وسوف نتوقف هنا أمام قصة واحدة من قصص هذه الرواية البديعة ، لما تحمله هذه القصة من مغزى كبير حول رسالة الفن الحقيقى الصادق ، فالفنان الأصيل قد يتساهل أو يفرط فى أى شئ إلا فنه ، لأن الفن هو عرضه وشرفه ، ولو تنازل فى الأمور التى تتصل بفنه، فإن هذا الفنان الذى يتنازل يسقط ويصبح مثل المرأة التى تبيع شرفها من أجل مصلحة خاصة أو هدف مادى يبدو أمام الشرف رخيصًا حتى ولو كان غاليًا .

والبطل الرئيسى فى الرواية هو الكاتب الأمريكى (أندرو كريج) وهو الذى فاز بجائزة نوبل الأدبية فى ذلك العام الذى تدور فيه أحداث رواية (الجائزة) وبالطبع فإن هذا الاسم ليس اسمًا حقيقيًا ، فهو شخصية ابتكرها مؤلف الرواية من خياله ، ولكن هذه الشخصية تحمل كثيرًا من الملامح الواقعية لبعض الشخصيات الأدبية المعروفة ، فكاتب الرواية يقدم لنا خيالاً مستمدًا من الواقع وليس غريبًا عليه.

و(كريج) فى الرواية هو رجل مضطرب الشخصية يحمل فى داخله همومًا كثيرة تمزقه ، ويحاول التغلب عليها بإغراق نفسه فى الخمر ، وكأنه يحاول أن يقضى على حياته وينتحر انتحارًا بطيئًا ، كذلك فهو شخص شديد الشغف بالنساء ، وخاصة بعد أن ماتت زوجته فى حادثة سيارة وكان يتصور دائمًا أنه هو المسئول عن هذه الحادثة ومسئول عن مقتل الزوجة ، مما زاد من اضطرابه النفسى وقلقه الدائم .

ولكن (كريج) رغم هذا كله كان ينطوى فى أعماقه على إنسان مخلص لفنه وصادق مع نفسه .

وقد نال (كريج) جائزة نوبل وهو فى حوالى الأربعين من عمره ، وكان عليه أن يذهب إلى السويد لتسلم الجائزة ، وفى الأيام التى قضاها (كريج) فى السويد ، تعرف على ممثلة عالمية اختار لها المؤلف اسم (مارثا نورنبرج) وقد أعجب الكاتب كريج بالممثلة (مارثا) إعجابًا شديدًا ، فهى جميلة وذكية ومشهورة وثرية ، وقد تمنى الكاتب أن ينشئ لنفسه علاقة مع هذه الممثلة الرائعة ، وكان مستعدًا لأن يفعل أى شئ يستطيعه حتى يصل إلى قلبها بعد أن فتنته هذه الممثلة بشخصيتها البديعة وجمالها الساحر .

وفهمت الممثلة (مارثا) ما يدور فى ذهن (كريج) الذى لم يخف مشاعره نحوها بل صارحها بهذه المشاعر العنيفة .

وقبل أن ينتهى (مولد) جائزة نوبل بأيام قليلة ويضطر (كريج) إلى أن يعود إلى بلده أمريكا بعد حصوله على الجائزة وعجزه عن الوصول إلى قلب الممثلة (مارثا) فوجئ بالممثلة الكبيرة تدعوه إلى زيارتها ، وذهب إلى قصرها ، تلبية لدعوتها ، لتستقبله فى حمام سباحتها المغلق ، حيث لم يكن معهما فى قصرها أحد سوى الخدم .

استقبلته (مارثا) وهى تلبس (المايوه) وفوقه معطف من الحرير اليابانى الأحمر ، وأدهشه هذا الاستقبال الذى يحمل الكثير من الإغراء له ، ويثير فيه

التساؤل والفضول ، فهو لم يستطع أن يلتقى بالممثلة (مارثـا) إلا فـى الحفـلات العامة ، ورغم محاولاته المستمرة لاستمالتها إليـه ، حيـث تسـتجيب لمشاعره المشتعلة نحوها ، فإنه كان يشعر أنه لم يفلح فى أن يحقق شيئًا مما كان يرغب فيه ، وها هى الممثلة الساحرة تدعوه فجأة إليـها ، وتستقبله وحدهـا ، وهـى تلبس المايوه وفوقه المعطف اليابانى الأحمر ! !

شئ مريب حقًا .

هل استجابت له أخيرًا وتجاوبت مع عواطفه وإن كانت قد أخفت ذلك فـى أول الأمر ؟

ربما .

وفى البداية اتجه حديثها معه إلى أشياء شخصية بسيطة وحميمة، ثم دعتـه إلى التسابق معها فى السباحة ، حيث دار بينهما هـذا الحـوار بعـد أن أقنعتـه بأن يخلع ملابسه ويختار لنفسه أحد (المايوهـات) الموجـودة فـى غرفـة صغـيرة ملحقة بحمام سباحتها الخاص .

(قالت له وقد تـألق وجهـها السـويدي المستطيل بحبـات المـاء: إنـك تبـدو جميلاً فى هـذا الثـوب أيـها الشـاب .. تبـدو طويـلاً كـالصور التـى تنشـر فـى الإعلانات ، ماذا كانت الرياضة التى مارستها فى المدرسة .. كرة السلة ؟

بل كرة القدم .. جناح أيسر .

فقالت له : إنى لم أذهب إلى المدرسة إلا لسنوات قليلة ، لأن أسرتى كانت فقيرة جدًا ، واضطررت للتخلـى عـن التعليـم فـى المرحلـة الابتدائيـة . ولكنـى تلقيت العلم فيما بعد حينما سمحت لى حالتى المالية باستخدام المعلمين . وفـى هذه الفترة مارست الألعاب الرياضية ، التزحلق على الجليد فى الشتاء ، ولعب التنس فى الصيف .

كانت لهجتها طفولية ، ولذلك زاد حب (كريج) لها .

سألته : أتحب أن نتسابق ؟

فقال : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. هيا .

واندفعا يسبحان بقوة إلى الطرف الآخر من حمام السباحة ، وبعد أن لمساه استدارا ليسبحا فى الاتجاه الآخر ، وسبقته بحوالى ثلاثة أمتار .

ثم سبحا على مهل ، بلا سباق ، وكانا يسبحان على الظهر وعلى الصدر بغير أن يتبادلا أى حديث . وبعد عشرين دقيقة من السباحة على هذا النحو ألفيا نفسيهما وجهًا لوجه ، لاهثين ، يمسكان بحافة الحمام عند القسم الضحل بجانب السلالم المعدنية) .

كان ذلك اللهو البرئ السهل شيئًا مثيرًا للراحة والسعادة عند (كريج) .

ولكن الشك كان يتحرك فى نفسه ، فليس من المعقول أن تدعوه (مارثا) إلى قصرها لمجرد أن يشاركها فى اللهو البرئ ، وينتهى الأمر .

ولم يطل الوقت فقد قالت (مارثا) فجأة :

هل اكتفيت يا كريج ؟.

على وشك الاكتفاء .

كفى لهوًا هل تريد أن نتحدث عن العمل ؟

لست أدرى أى عمل تقصدين ؟

عمل هام .. هام بالنسبة لكل منا .

وأمسك بحافة الحوض ورش صدره بالماء قائلاً : هات ما عندك . فقالت (مارثا) لن أكثر من الكلام بلا طائل .. لقد اتصلت بوكيل أعمالى فاتصل بدوره بوكيل أعمالك ، وبعدئذ اتصل وكيل أعمالى بالاستديو فى هوليود ثم اتصل بى قبل وصولك بدقائق .

قال لها : أن التليفون يلعب دورًا كبيرًا فى حياتك ، فتجاهلت قوله ، وكانت علامات الاهتمام والتركيز بادية على وجهها بعد أن انقشعت عنه جميع علامات البهجة والمرح بل والأنوثة أيضًا) .

ما هو العمل الذى تريد (مارثا) أن تشترك فيه مع الكاتب (كريج) ؟

أنه يريدها ، فقد أعجب بها ، ووقع تحت تأثير فتنتها ، وكل ما كان يفكر فيه هو أن يقيم معها علاقة عاطفية ، ولم يكن فى ذهنه أنه يستطيع أن يساهم معها فى أى عمل مشترك .

ولم تتركه (مارثا) فى حيرته طويلاً فقد قالت له :

(لدينا اتفاق نريد أن نعرضه عليك ، اتفاق راسخ ليس فيه مكان لـ (إذا) أو (ربما) .. إنى أريد شراء قصتك الجديدة ، لإخراجها فيلمًا ألعب فيه دور البطولة . ونظرًا لأنك لا تزال تكتبها فقد وافق الاستديو على أن أعرض عليك عشرين ألف دولار مقدمًا ، ومائتى ألف دولار عندما تنتهى من كتابة القصة . أنه مبلغ طائل يا (كريج) وخاصة عندما يكون رصيدك ضئيلاً فى البنك ، وأنى أعرف أن هذا الرصيد ضئيل ، عرفت ذلك من أخت زوجتك ، وعرفته من وكيل أعمالك ، وعرفت كذلك أنك لا تكاد تسدد ديونك من نقود (جائزة نوبل) وتعيش بما تبقى فترة من الوقت ، حتى تعانى من الفقر والإملاق مرة ثانية .. فما رأيك ؟

فوجئ كريج بهذه الأنباء ، وبالعرض الذى قدمته إليه (مارثا) بحيث تعذر عليه الكلام فى بادئ الأمر .. ودار رأسه.

سألها بعد قليل : كيف تنفقين مثل هذا المبلغ الطائل على كتاب لم يكتب ولم تقرئيه ؟

قالت : أعرف ما تدور القصة حوله ، فقد حكت لى أخت زوجتك التى ترافقك هنا قصة الرواية كلها ليلة أمس وهى بالضبط القصة التى ظللت أبحث

عنها سنوات طويلة ، وأنك تعلم بالطبع من وجهة نظر الاستديو على كل حال أن نيلك جائزة نوبل يرفع من قيمة الحصول على الرواية .

وكانت أخت زوجة (كريج) تلازمه ، وتقوم بدور السكرتيرة معه منذ وفاة زوجته ، وقد كتبت الصفحات الأولى من هذه القصة على الآلة الكاتبة ، وألمت بشخصيتها وبحبكتها الروائية .

وأخذ (كريج) يحدث نفسه فى صمت : (إن أخت زوجته لم يكن لها أدنى حق فى إذاعة القصة على الملأ بغير علمه أو موافقته ، وفى الوقت ذاته كان انعدام فطنتها وحذرها معجزة ، وكان التوقيت ممتازًا ، فإن فى استطاعته الإفادة من هذا المال الذى هبط عليه من السماء ، ولم يزعج نفسه بالتفكير فيما إذا كان مستطيعًا إنهاء الرواية ، فإن الحرية التى سيحققها المال له سوف تجعل عملية الإبداع الفنى عنده سهلة وممكنة .

قال (كريج) لمارثا : اتعنين أنك تعرفين تفاصيل القصة كلها ؟

قالت له : نعم أنى أعرف القصة بجميع تفصيلاتها .

ثم صمتت لتتيح له فرصة التفكير والتأمل . وطافت بذهنه سحابة غريبة معتمة من الشك فاقلقته .

وقال ببطء :

إذا كنت تعرفين القصة فلا ريب أنك تعلمين أنه لا يوجد دور حقيقى لك فيها ، لأن القصة كلها تدور حول البطل .. حول رجل ، ورجل واحد . وجميع النساء اللائى يظهرن فى القصة إنما يلعبن أدوارًا محدودة الوقت . فى القصة ست نساء ، وهن يجئن ثم يذهبن ويلعبن أدوارًا قصيرة ، فماذا ستفعلين؟.

قال له : سألعب دور (ديزمونا الغجرية) التى يتزوجها البطل .

قال لها : ولكن (ديزمونا) لا تظهر إلا فى ثلاثة فصول ثم تموت مقتولة ، هذا كل شئ بالنسبة لها .

فقالت (مارثا) ببساطة : لن أجعلها تموت مقتولة .. سأتخلص من النساء الخمس الأخريات فى الرواية ، وأبقى (ديزمونا) على قيد الحياة .

وهنا يبدأ الصراع بين الكاتب (كريج) والممثلة (مارثا) .

إن الإغراء أمام (كريج) كبير ، فهو سوف يحصل على ثروة لم يحلم بها ، بالإضافة إلى ما يتيحه له العمل مع (مارثا) من أن يكون قريبًا منها وأن يكون مصدر رضاها عنه وسعادتها به ، وهو ما كان يتمناه ويسعى إليه . وكل ما تطلبه منه ممثلته الساحرة هو أن يغير فى شخصيات الرواية التى لم يكملها بعد، بحيث يتيح لها أن تقوم بالدور الذى تتمناه .

ولكن (كريج) يقطب حاجبيه ويقول لها :

(يا آنسة مارثا .. أنى احترم عبقريتك كممثلة ، بل أنى أعشقك إلى حد العبادة .. ولكنك لست كاتبة ، أما أنا فكاتب ، وهذا كتابى أنا ، وفيه تموت (ديزمونا الغجرية) فى مرحلة مبكرة من الرواية، فبغير ذلك لا يكون للقصة معنى) .

وترد عليه "مارثا" فى هدوء وإغراء :

(لا تكن جامدًا على هذا النحو المضحك ، يمكن أن تجرى تعديلاً على الرواية . إنك لم تكتب منظر موت (ديزمونا) حتى الآن ويمكن أن تحوره إلى حادث أو ما يشبه ذلك وأن تجعلها تصاب فى هذا الحادث ، ومن رأيى أن هذا سيكسب قصتك قوة وعذوبة . وبعدئذ يمكن إعادة صياغة بقية حوادث القصة) .

لقد بدأت المواجهة الصعبة بين الكاتب الحائز على جائزة نوبل والممثلة التى تقف أمامه .

ومن الطريف أن هذا الحوار كله كان يدور بينهما فى حمام السباحة وهما يلبسان (المايوهات)ويمسكان بحافة السلالم المعدنية للحمام ويتكئان عليها .

قال لها : (هل تقترحين .. تقترحين فعلاً ، شراء قصتى التالية إذا — فقط — أجريت فيها تعديلات تتفق مع فكرتك عما ينبغى أن تكون البطلة عليه؟) .

قالت له :

(نعم .. إنك كاتب مبدع ومن ثم فإن إبقاءك لإحدى الشخصيات على قيد الحياة لإرضاء أحد العملاء ومن أجل موازنة رصيدك فى البنك لن يجعلك كاتبًا تافهًا أو يقضى على مستقبلك وإنما سيؤكد لك أنك قد كبرت ونضجت) .

وهناك قال (كريج) :

(وما رأيك إذا أجبتك بكلمة لا .. لا تعديل ؟ هل ستستمرين فى عرضك ؟).

قالت : (بالطبع لا ، فكما قلت أنت لن يكون لى دور فى الرواية).

وهنا واتت (كريج) فكرة (عملية) ، فقال لها :

(يمكن إدخال التعديل الذى تريدينه فى هوليود فلن يضرنى ذلك فى شئ).

فقالت له الممثلة الكبيرة على الفور :

(مستحيل ، لأن الكتاب نفسه سيلقى رواجًا كبيرًا وسيعرف القراء محتوياته، كما سيلقى شهرة فى المسلسلات ونوادى الكتب والطبعات التجارية والصحف وأنا أريد بناء هذه البطلة بالطريقة التى اقترحتها عليك ليتحدث الناس عنها ويحبونها قبل أن أجعل الحياة تدب فيها على الشاشة ، فهل ستفعل ذلك ؟) .

وهنا حاولت (مارثا) أن تضرب ضربتها الحاسمة قبل أن تسمع رد (كريج) وكانت تثق أن هذه الضربة لن تخطئ أبدًا . فهى تعلم أن الكاتب (كريج) يميل إليها ميلاً جارفًا ، وقبل أن تسمع إجابته الأخيرة على عرضها بشراء روايته بعد تعديلها قالت له : (قبل أن تتكلم هناك جانب آخر من العرض الذى

قدمته إليك تعمدت إخفاءه عليك . كنت سأحدثك عنه فيما بعد .. في .. في ظروف أكثر ملاءمة لذلك . ولكنى أشعر أنك شديد الاضطراب ، فيحسن أن أفضى إليك الآن بما أخفيته . أن المائتى ألف دولار كانت مجرد جزء من عرضى عليك ، وهناك جزء آخر أكثر قيمة ، بل أنه يساوى أكثر كثيرًا من ذلك ، فهل تعلم ما هو هذا الجزء ؟

كلا :

إنه أنا .. مارثا نورنبرج .. أننى جزء من الصفقة وأنا حينما أتعاون فأننى أتعاون على طول الخط . إن الأمر سهل .. أنا بحاجة إلى ما لديك ، وأنت بحاجة إلى ما لدى ، وهذا هو جوهر الموضوع ، ولكنى سأضيف إليه ما يلى : إن ما يجعل الصفقة أكثر قبولاً أننى أراك جذابًا ، وإنى لواثقة أنك ترانى كذلك. وحتى إذا لم تكن رجلاً جذابًا ، فسيظل العرض قائمًا) .

ثم قدمت الممثلة تفاصيل العرض بعد ذلك فقالت : (ستبقى هنا فى السويد فترة أطول ، وستقيم هنا حيث نعمل معًا لإتمام القصة على النحو الذى يرضينا كلينا . إذا كنت تفضل شيئًا آخر فسأذهب بك إلى (فيلتى) فى (الريفيرا) أو حتى أرافقك إلى (نيويورك) حيث أملك شقة مجهزة بكل شئ ، وهناك سوف نعمل بالنهار ونتفرغ للحب فى الليل) ، وظنت الممثلة بعد هذا العرض الساحق أنها كسبت الجولة ، وأن الكاتب (كريج) سوف يسقط أمامها راكعًا على قدميه معلنًا استسلامه ورضاه فليس من المعقول – فى نظرها – أن يرفض الكاتب هذا العرض السخى بالحب والمال معًا .

لقد دخلت المعركة بكل أسلحتها .. الدولارات وسحر أنوثتها الفاتنة التى لا يمكن أن يقاومها أحد ، وخاصة (كريج) الذى تعرف جيدًا أنه يريدها بجنون . ولكن (كريج) يفكر قليلاً ثم يفاجئها بقوله :

(دعينا نتظاهر بأن هذا العرض الصريح بهرنى إلى درجة أننى قبلته . فماذا سيحدث ؟ سأحظى بمتعتى فى الفراش ، وستحصلين على الرواية التى

تريدينها . وعلى الدور الذى ستعودين به إلى الأضواء ، أعده لك بدقة وإحكام رجل يصلح اسمه فى الوقت الحاضر للاستغلال (بعد فوزه بجائزة نوبل) . ولكن ما الذى يحصل عليه كل منا ؟ ستحصلين على قصة مفككة ، وسأحصل أنا على ماذا ؟ .. ذكرى انتصار فى الحب ، فكيف استطيع أن اقول أنه كان انتصارًا ، فى حين أنه لم يكن فى الحقيقة سوى فقرة دموية فى عقد من العقود القانونية (بين مؤلف وممثلة) أو ذكرى وصال مجرد من الحب ، تم فيه دفع ثمن باهظ ، فهو وصال اشتريته أنا ولن يلبث أن يصبح كريهًا فى النهاية، لأنه كان نوعًا من الشذوذ على الإطلاق) .

لقد رفض الفنان أن يؤلف كتابًا (مزورًا) للحصول على مال وفير يحتاج إليه، وللحصول بالإضافة إلى ذلك على (امرأة) اهتز قلبه إعجابًا بها ، ولم تشعر هى نحوه بأى حب حقيقى ، ولكنها تقدم إليه نفسها مقابل قصة (زائفة) تريد منه أن (يؤلفها) على هواها ، وليس كما يحس بها ويفكر فيها، وقد أدرك (كريج) أن هذه الممثلة الكبيرة لا تقدم إليه نفسها عن حب ولكن عن مصلحة فهى لم تعد قادرة على حب إنسان آخر غير نفسها ، ولم تعد مشغولة إلا بمجدها وشهرتها ونجاحها الكبير ، أى أنها باختصار امرأة بلا قلب ، ولذلك فقد شعر الكاتب الفنان أن هذه المرأة عندما تقدم إليه نفسها بهذه الطريقة ، وبهذا الثمن فإنما تحرجه وتهينه ، فهى لا تحبه وإنما تشتريه .

وهنا أدرك أنه ليس أمامه سوى أن يرفض ، ليحافظ على كرامته واحترامه لنفسه كإنسان وفنان ، وكانت آخر كلماته لها قبل أن يتركها ويرحل ، هى هذه الكلمات الجميلة المضيئة الصادقة :

(إنى أسف يا مارثا ، فإنما ينبغى أن أكتب لإرضاء نفسى لا لإرضائك ، وهذا هو السبب فى أن إجابتى الصريحة على طلبك هى (لا) يا مارثا .. لا . إننى لست قلقًا عليك . فسوف تستطيعين العثور على خمسين رواية أخرى ملائمة لك .. وتستطيعين أن تطلبى اصطناع روايات كثيرة تلائمك . وستجدين

رجالاً لا تضطرين إلى حبهم حتى تستحوذى عليهم ، ولعلك تجدين يومًا رجلاً تحبينه بأمانة ، وبغير هذه المقايضة ، وإن كنت أرتاب فى ذلك .. أما أنا فأننى سأحتفظ ، لن أقول بنزاهتى ، وإنما بأعصابى واحترامى لنفسى ، وسأشعر بالأسف دائمًا لأننى جعلتك تحتفظين بنقودك ، وبمهارتك الأنثوية الفاتنة ، نعم يا (مارثا) أننى لا أشك مطلقًا فى أنك ستجدين رجالاً آخرين يستحقون نقودك وفتنتك ، وتبيح لهم نزاهتهم التساهل فى قدر بسيط من الفساد ، أما أنا فلست بقادر على ذلك ، كما أننى لا استطيع أن أمنحك ما تريدين الآن ، لأننى إذا منحتك الجزء الضئيل الذى تبقى لى ، فلن تساعدنى أية مكافأة تقدمينها على أن أعيش كرجل ، لأننى سأكون حينذاك مفلسًا إفلاسًا تامًا) .

وقام (كريج) بارتداء ملابسه فى الغرفة الملحقة بحمام السباحة ، ثم ألقى على الممثلة نظرة أخيرة وخاطفة ، واتجه بعد ذلك إلى الفندق الذى يقيم فيه ، وهو يقول لنفسه عن المرأة التى كان يهواها ويتمناها :

يا لها من تاجره .

أنها تاجره فى الأسواق ولا شئ غير ذلك .

كان فنانًا يحب وكانت امرأة بلا قلب .

العبقرى الملعون

يقول الكاتب المسرحى الكبير (ابسن ١٨٢٨-١٩٠٦) :

(إننا معشر البشر مخلوقات ممتدة النظر من الناحية الروحية ، نرى الأشياء أكثر وضوحًا على بعد ، فالتفاصيل تربكنا ، وعلينا أن نبتعد عما نريد أن نصدر فيه حكمنا ، فخير وصف للشتاء إنما يقدمه المرء فى الصيف) .

ولا شك أن فكرة (ابسن) هى فكرة صحيحة . فالاقتراب الشديد من الأشياء يفسد معرفتنا بها واستفادتنا منها ، فلو اقتربنا من النار أكثر من اللازم فإنها تلسعنا أو تحرقنا بدلا من أن تقدم إلينا الدفء الجميل، ولو اقتربنا من النور أكثر من اللازم فإن عيوننا تعجز عن الرؤية ويصيبها اضطراب شديد فى النظر إلى الأشياء . وهذا الكلام ينطبق على العلاقات الإنسانية مثل الحب والصداقة وغيرهما من العلاقات التى تربط البشر بعضهم ببعض ، فلابد من الحرص الشديد هنا على وجود مسافة بين الناس ، تحفظ لكل إنسان استقلاله ، أما الإنسان الذى يقترب من صديقه أو حبيبه اقترابًا يصل إلى حد (الالتصاق) ويحرص على معرفة التفاصيل ويغرق فيها ، فإنه يصبح عبئًا لا يطاق ، ولابد أن ينتهى الأمر بفقدان الصداقة والحب وغيرهما من العلاقات الإنسانية الحميمة.

وأذكر أننى عندما جئت من قريتى فى محافظة المنصورة (الدقهلية) إلى القاهرة لأول مرة فى أواخر سنة ١٩٥١ لأدخل الجامعة ، كان خيالى ممتلئًا بالصور غير الواقعية للأدباء والفنانين الذين كنت غارقًا فى القراءة لهم وأنا طالب صغير . فقد كنت أتصور هؤلاء الأدباء والفنانين الذين أحببتهم من قلبى (ملائكة) وأن كل واحد منهم هو (سوبر مان) أو (مثل أعلى) فى أخلاقه وسلوكه ومواقفه المختلفة .. ثم تعرفت على هؤلاء الأدباء والفنانين فصدمنى أن أجد فيهم أشياء لم تكن تخطر ببالى على الإطلاق ، هم أدباء وفنانون مبدعون، نعم ، ولكنهم بشر أيضًا . فهم يغارون ويتخاصمون ويتنافسون على المصالح،

وبعضهم يسيطر على مشاعره ، ولكن بعضهم الآخر لا يملك قدرة للسيطرة على ما يحس به ويريد تحقيقه لنفسه فيترك لمشاعره الخاصة - وبعضها سيئ - أن تتحكم فيه ، وقد أدهشتنى هذه الصورة الواقعية وأذهلتنى فى أول الأمر ، فالملائكة الذين كنت أحلم بهم من الأدباء والفنانين قد ظهروا أمامى بصورة واقعية لم أحسب لها حسابًا ولم أتصور أنها موجودة فى واقع الحياة .

والحق أن الخطأ كان من جانبى أنا ، وليس من جانب هؤلاء الأدباء والفنانين . فقد كنت قليل الخبرة والتجربة فى شئون الحياة ، وكنت أعيش فى خيالى أكثر مما أعيش فى الواقع . وكنت ضحية لذلك الخطأ الكبير الذى نبهنا إليه (ابسن) وهو محاولة الاقتراب من الأشياء أكثر من اللازم . فقد كنت أريد أن أعرف تفاصيل حياة الأدباء والفنانين الذين أحبهم ، وكنت أسعى لمعرفة كل صغيرة وكبيرة فى حياتهم ، وأحاول أن أقيس أى تصرف لهم وأى كلمة تخرج من أفواههم بنفس المقياس الذى كنت أقيس به أعمالهم الأدبية والفنية . وهنا كان الخطأ الفادح الذى وقعت فيه ، فالأديب أو الفنان إنما يحتشد بكل إمكاناته وقدراته فى عمله الفنى ، وبعد هذا الاحتشاد فإنه يحتاج إلى أن يعيش حياة عادية مثله مثل سائر خلق الله ، يجامل أحيانًا ، ويشعر بالغيرة أحيانًا، ويجرى وراء رزقه ومصلحته ، ويحب أن يتفوق على غيره ويسعى إلى ذلك. وكلها أمور طبيعية لا يجوز أن نعتبرها من الأخطاء والانحرافات ، فهناك مواقف أساسية فى حياة كل إنسان ينبغى أن نحاسبه عليها ، وهناك مواقف ثانوية ينبغى أن نمر عليها مروراً عابراً ولا ندقق فيها أو نحصيها ونحاسب الناس عليها، وكأننا مندوبون من الله - سبحانه وتعالى - لكى نجعل الناس يتصرفون على هوانا ويخضعون للمقاييس التى نفرضها عليهم، وأذكر أن الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين (١٩٢٧-١٩٩٧) كتب مرة يقول ما معناه أن زوجته السيدة (ديزى) وهى سيدة عالية الثقافة والذوق قد قالت له يومًا : أنها بعد أن تزوجته وتعرفت معه على كبار الأدباء

والفنانين أصابتها صدمة ، لأنها وجدت صورتهم الواقعية غير صورتهم فى خيالها . وتمنت أنها لم تكن قد تعرفت على هؤلاء الأدباء والفنانين واحتفظت بصورتهم القديمة الجميلة فى خيالها.

والحقيقة أن المسألة تعود فى نهاية الأمر إلى المبدأ الذى ينبغى أن نأخذ به أنفسنا دون تهاون ، وهو ضرورة خلق مسافة بيننا وبين الناس والأشياء ، والحرص على الاحتفاظ الدائم بهذه المسافة ، حتى لا نغرق فى التفاصيل ونسئ التقدير ونصل إلى أحكام خاطئة ، إن القمر الذى نراه جميلاً جداً من بعيد ، قد رآه (ارمسترونج) الذى هبط فوق سطحه فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٦٩ مجموعة من الصخور والبراكين والأتربة الخالية من الصفاء والجمال ، ذلك لأنه اقترب جدًا من القمر ، فلم يجد ذلك الجمال الذى نحس به من البعد .

ويتفرع من هذا المبدأ ، وهو (ضرورة الابتعاد بمسافة معقولة) عن الأشياء التى نحبها ونريد أن نتعامل معها أو نحكم عليها مبدأ آخر مهم وهو محاسبة الإنسان عن عمله الأساسى قبل أى شئ آخر ، فإذا كان يتقن هذا العمل ويؤديه بصورة سليمة ، فقد أدى ما عليه نحونا جميعًا ، أما إذا كان مقصرًا فى عمله الأساسى فيمكن لومه ومحاسبته .

وهناك قول يفيدنا فى هذا المجال قاله (عبد الكريم النهشلى) أحد أدباء تونس القدماء ، وقد وضع (ابن خلدون) هذا الأديب على (رأس أدباء القرن الثالث الهجرى) فقد قيل لهذا الأديب يومًا : إن بعض الناس يقولون عنه أنه (أبله) أو (عبيط) فرد عبد الكريم متسائلاً : (هل أنا أبله) أو عبيط فى صناعتى وهى الشعر ؟ فقالوا له : (لا .. فقال عبد الكريم : (ليس على الصائغ أن يكون نساجًا) ! !

وهذا معنى جميل وكريم ، فليس من الصواب أن نطلب من كل إنسان أن يكون (درجة أولى) فى كل شئ يكفى أن يكون (درجة أولى) فى صناعته الرئيسية وعمله الأساسى . أما بقية جوانب حياته الأخرى فهو حر فيها ومن

حقه أن يكون (عاديًا) و(طبيعيًا) مثل بقية خلق الله . فالأديب أو الفنان ليس مطلوبًا منه أن يكون أديبًا أو فنانًا فى كل لحظة من لحظات حياته ..، ولو فعل ذلك فلا شك أنه سوف يصاب بالجنون ، ويفقد القدرة على الحياة مع الناس.

وهناك قصة جميلة جدًا كتبها الكاتب الإيطالى (جيوفانى بابينى) وترجمها إلى العربية الأستاذ (نظمى خليل) هذه القصة اسمها (العبقرى الملعون) وبطلها شخص كان يحب كاتبًا فنانًا من خلال قراءاته لقصصه الجميلة . وكان يقول عن نفسه) .. كنت أحب هذا الأديب ، وكنت متشبعا بكلامه وأفكاره ، حتى أخذت أحلم أحلامه وأغنى أغانيه وأتابع تيارات تفكيره وأتمثل نفسى أحد أبطال قصصه . لم أخضع لرجل من قبل كما خضعت لذلك الرجل الغريب الذى يزداد تأثيره على يومًا بعد يوم ، حتى لم أعد أفكر فى أى رغبة فى الخلاص منه . كنت أعتقد أنه أعظم رجل أنجبته أوروبا) .

وقد ظل هذا الشخص يسعى إلى مقابلة أديبه المفضل ونجمه المثالى حتى تحقق له ما أراد . فماذا وجد ؟

(شعرت بخيبة الأمل عندما وقع نظرى على غرفة ذلك الأديب الذى أعشقه، وكانت غرفة عادية لم تكن تختلف عن سائر الغرف المألوفة ، وكنت أنا أتخيل أن كاتبى المفضل يعيش فى صومعة قديس أو عرين أسد ، لا فى مكتب لأحد المحامين . وأخذت أسائل نفسى : أحقًا هذا بيته وتلك غرفته ؟ أم أنا فى بيت أحد أقربائه ؟ ولكنى لم أطل التفكير فى هذا ، إذ رأيت أمامى رجلاً ضئيلاً فى حوالى الخمسين ، يحيينى بلغة فرنسية صحيحة ، فارتعدت لمرآه. أيعقل أن يكون هذا هو رجل أحلامى ؟ .. هذا الرجل الضئيل الذى يرمقنى بعينين صغيرتين وتنفرج شفتاه عن ابتسامة هى أقرب إلى ابتسامات البلهاء والسذج ؟ أيعقل أن يكون (نجم أحلامى) هو هذا الرجل الذى يرتدى ثوبًا أسود ويضع يديه فى جيبه كما يصنع ضابط أو موظف (على المعاش)؟. هل هذا هو الرجل الذى جعل قلبى يخفق بروعة آثاره وقوة أسلوبه؟ وهل يمكن

أن تكون تلك الأفكار العظيمة التى حيرتنى وجعلتنى أقطع الليل ساهرًا قد نبعت من تلك الرأس الصلعاء الصغيرة ؟ . لم أكن لأصدق هذا ، بل كنت كلما أمعنت النظر فيه ازددت دهشة وعجبًا ، حتى لم أستطع أن أخفى دهشتى فقلت : أأنت الكاتب الذى أبحث عنه ، والفنان الذى كتب (نفسى) و(الله) و(مشاكل نصف الليل؟) فأجابنى فى هدوء وابتسام : نعم . وكأنه لم يشعر أننى أهنته بسؤالى فدعانى إلى الجلوس وسألنى حاجتى).

(لم أكن أعرف مكانى ولم أكن أستطيع التفكير فى شئ أقوله ولاحظ على بعض هذا الارتباك فدنا منى متلطفًا وقال : أراك أحد المعجبين الأجانب الذين يأتون لرؤيتى ، أن هذا أمر يسير ، فأنى أستطيع أن أقدم لك ما تريد ، ثم أسرع إلى مكتبه وأخرج ورقة ومجموعة من الصور وعاد ثانية يستأنف حديثه : هذا بعض تاريخ حياتى مدونًا بالفرنسية ، وهذا فهرس كامل بجميع مؤلفاتى . أى صورة تعجبك ؟ أننى أظن أن أحسن صورى ما كان جانبيًا . ولكن لك الاختيار . ثم قدم لى كتابًا صغيرًا وقال لى : هذه أشهر المقالات التى نشرتها كبرى الصحف عن مؤلفاتى . ثم مضى فى حديثه قائلاً : أليس هذا كل ما تحتاج إليه ؟ أنك تريد أن تعرف كيف أكتب؟ سوف أخبرك : أنى أعمل أربع ساعات فى اليوم ولا أكتب أكثر من خمسين صفحة فى جلسة واحدة . أنى لا استعمل الكتب القديمة ولا المعاجم البالية . لأنى صنفت كل مواد الكتابة تصنيفًا جديدًا . فى هذا الصندوق تجد الصفات ، وفى ذلك الصندوق تجد التشابيه والاستعارات ، وفى الثالث تجد المتناقضات ، وفى الأخير تجد أوصاف المناظر الطبيعية ، وفى ذلك الذى عن يمينه تجد الأوصاف الغريبة لجميع الناس ، أما الذى عن يساره فقد جمعت فيه كل عناوين القصص والمسرحيات . أظنك الآن تستطيع أنت تفهم أن عملى ليس شاقًا جدًا بفضل هذا التنظيم ، أنا أكتب بدون تفكير كأنى آلة ، فإذا أردت أن أكتب شيئًا فما

على ألا أن أمد يدى وأخرج ما أحتاج إليـه ، أنـى لست أحـد أولئك البلـهاء الذين ينتظرون الوحى والإلهام ، فأننى أكتب بانتظام وفى أوقات معينة .

هذه هى الصورة الواقعية التى رآها ذلك (المعجب) لكاتبه المثالى ، فلم تسعده هذه الصورة طبعًا ، فقد وجدها مخالفة تمامًا للصـورة التـى رسمـها فـى خيالـه (لنجمه المفضل) أو أديبه الذى كان يعشقه من خلال القراءة له . وتحـت تأثير الصدمة انتهز هذا المعجب فرصة انشغال الأديب بحديث تليفونى وفر هاربًـا ، ويصف نفسه بقوله (اندفعت نحو الباب وتدحرجـت علـى السلم ، وبـدون أن أشعر وجدت نفسى خارج المنزل ، وما كدت أصل إلى بيتى حتى ألقيت جميع مؤلفات ذلك الملعون إلى النار) .

أين الخطأ هنا ؟

الخطأ فى المعجب ، وفينا جميعًا حينما نرسم صورة خيالية ، ثم نحاول أن نجد هذه الصـورة كمـا رسمناهـا فـى الواقـع . والخطـأ أيضًـا هـو فـى محاولـة الاقتراب الشديد من الأشياء التى نحبها ، بينمـا كـان علينـا أن نـترك مسـافة كافية بيننا وبين هذه الأشياء وأن يقـول كـل منـا لنفسـه : ابتعـد .. أحسـن ، فالاقتراب الشديد من الأشياء التى نحبها يفسدها ، والبحث عن كل التفـاصيل الصغيرة يؤدى بنا إلى الغرق فيها ونسيان أهدافنا الأصلية . فليس من المفيد لنـا أن نعيش كما يقول الشاعر على محمود طه عن نفسه : (.. أنـا مـن ضيـع فـى الأوهام عمره) .

إن المعجب الذى ذهب إلى كاتبه قد أخطأ كثيرًا عندما أفسد على نفسه متعة قراءة الكتب الجميلة بإصراره على أن يذهب إلى مؤلف هذه الكتب فـى بيتـه ، وإصراره على معرفة تفاصيل حياته وعمله ، وتصوره بأن الخيال هو صورة طبق الأصل من الواقع ، ثم وقع فى خطأ كبير عندما صدق أن كاتبه المفضـل يكتـب مثل الآلة ، فهذا الكلام لا يمكن أن يكون حقيقيًا ، ذلك لأن (النظـام والآليـة) إنما يتصلان (بصنعة) الكاتب وليس بروحه وإحساسـه ، وكـل أديـب أو فنـان

مطالب بالنظام والآلية فى عمله ، ولكن ذلك لا يتصل مطلقًا بما فى قلبه من المشاعر والانفعالات ، فتلك هى الموهبة التى تفيض على العمل الأدبى أو الفنى فتعطيه القوة والحياة .

وهكذا . فنحن مطالبون بأن نبتعد قليلاً عن الأشياء التى نحبها ، أو الأشياء التى نريد أن نحكم عليها ، وألا نجرى وراء التفاصيل غير المفيدة وغير النافعة لنا ، وبذلك نضمن أن تبقى مشاعرنا وأحكامنا متجهة إلى الأشياء الرئيسية فى الحياة ، وليس الأشياء الثانوية التى إن حرصنا على الجرى وراءها أزعجتنا وشوهت أمامنا كل شئ نحبه ونهواه .

مطلوب منا أن نكون مثل الطيور التى تلتقط الحب ثم تطير فى الفضاء وترفرف بجناحيها فى الهواء الطلق ، أما إذا التصقت دائمًا بالأرض وغرست منقارها فى الطين فسوف نفقد كل شئ .

الحياة بحاجة منا إلى التركيز على الأشياء الأساسية والجوهرية والمرور على التفاصيل الكثيرة والصغيرة وغير الضرورية مرورًا عابرًا ، ولو فعلنا ذلك فإن الحياة تعطينا أجمل ما فيها ، وتحفظ لنا الأشياء التى نحبها فلا تضيع من أيدينا أبدًا ، كما أن هذا الأسلوب الذى يدفعنا إلى خلق مسافة معقولة بيننا وبين ما نحب ، يمكن أن يجعل حياتنا خفيفة رشيقة ، فتصبح بذلك طيورًا بشرية وليس زواحف تقضى حياتها فى بطء وتثاقل شديد!

ضد الحظ والمصادفة

يتعرض الإنسان فى حياته لأمـراض نفسـية وجسمانية عديـدة ، وقـد كـان الناس يتصورون فـى المـاضى أن الأمـراض النفسـية أقـل خطـورة مـن الأمـراض العضوية ، وكانوا يتصـورون أن الـذى يشـكو مـن المعـدة أو الكبـد أو الرئـة هـو المريض ، أما الذى يشكو مـن القلـق أو الاكتئـاب أو التوتـر أو الحـب الـذى لم ينجح ، فهو إنسان مدلل ، وليس بـه مـرض مـن أى نـوع ، وعليـه أن يعـالج نفسه بنفسه ، فليس ما يشكو منه بحاجة إلى طبيب .

ثم تطورت الإنسانية فى القرن العشرين وربما قبلـه بقليـل واهتمـت بـالطب النفسى ، فأصبح فرعًا معترفًا به من علـوم الطـب ، بـل أصبـح مـن أهـم هـذه الفروع على الإطـلاق . ثـم اكتشـفت الإنسـانية اكتشـافًا آخـر هـو أن الأمـراض النفسية والأمراض العضوية مرتبطة ببعضها البعض أشـد الارتبـاط ، فالاكتئـاب مثلاً قد يكون ناتجًا عن مرض فى المعدة ، أو العكس صحيح ، فـأمراض المعـدة قد تنتج عن الاكتئاب، لأن المكتئبين يمتنعون عن الطعام أحيانًـا ، أو يتنـاولون طعامهم بسرعة وفى مواعيد غير منتظمة ، أو يشربون فناجين من القـهوة أكـثر مما يجب ، أو يفقدون القدرة على النوم الصحى، ويؤدى كل ذلك إلى اضطراب فى المعدة وغيرها من أجزاء الجسم وهو اضطراب لا نجاة ولا فرار منه.

والمعروف عن أمراض الكبد ، وهى فى الأساس أمراض عضوية ، أنها تؤدى بأصحابها إلى العصبية وسرعة الغضب والانفعال والميل الشـديد إلى التشـاؤم فـى النظر إلى الأشياء .

وهكذا تكون الأمراض العضوية مؤثرة على النفس ، كما أن الأمراض النفسية شديدة التأثير على الجسم ، ومن أصدق مـا قـرأت فـى هـذا المجـال مـا كتبـه الكاتب العربى الكبير أحمد أمين حيث يقول فى فصل ممتع له عنوانه (اسـتفد من تجاربى) :

(من الدروس الأولى التى تعلمتها ، أننى لم أخرج إلى هـذا الوجـود صحيفـة بيضاء ، كما كان يظن القدماء بل كثير مـن صفـات أبـى وأمـى وأجـدادى ومـا حدث لهم قد نقشت فى صحيفتى ، سواء فى ذلك الصفات الجسمية أو العقلية أو الأخلاقية ، ولأضرب لك مثلين كان لهمـا أثـر سيئ فـى حيـاتى، أحدهمـا وأنا فى بطن أمى كانت لى أخت، فتاة فى الثانية عشرة مـن عمرهـا ، كلفتـها والدتى أن تصنع قـهوة لضيوفـها فمـا أن أشعلت النـار فـى (السـبيرتو) حتـى أمسكت فيها النـار، وأصابتـها فـى شـعرها ثـم فـى وجهـها ثم فـى ملابسـها وجسمها فصرخت ثم أدركوها وهى شعلة مـن نـار ، ولم ينفـع فيـها إنقـاذ ولا طب ، وأسلمت روحها لخالقها ، فقضيت – أنا – أشهرًا تعيسة فى بطن أمى أتغذى بدمها الحزين ، وتتكـون أعصـابى مـن أعصابـها المحطمـة ، ويتحـول بعض جسمى إلى دموع مسفوحة ، وأهات مضنيـة ، ثـم ولـدت فـى هـذا الجـو الحزين ، لم أشاهد أول ما شهدت ضحكة ولا ابتسامة . بل كان حزنًا وسـكونًا ودموعًا وضنى) .

(هل كان لهذا الحادث أثر فى نفسى ؟ وهل كان ما أجد فى كل حياتى من حزن عميق ،وميلى إلى الغناء الحزين ، والمنظر الحزين ، وتفضيل المأساة علـى الملهاة .. هل كان مرجع ذلك كله إلى هذا الحادث ؟ قد يكون . وقد يكون أحد الأسباب ، غذته الأحداث والتربية التى لم تمح أثره ولم تصلح فاسده . ولذلـك كان القدماء على حق فى أن ينصحوا المرأة الحامل أن تنظر إلى الصور الجميلة، وأن تحيط نفسها بالمناظر السارة والأحاديث المفرحة) .

هذه هى الحادثة الأولى التى أثرت فى نفسية أحمد أمين وهو فى بطن أمه ، وكلام أحمد أمين يذكرنا بعبارة للأديب الفرنسى (أناتول فرانس) يقول فيـها : (إن الإنسان يولد عجوزًا) ومعنى هذه العبـارة أن الطفـل فـى يـوم ميـلاده إنمـا يحمل صفـات آبائـه وأجداده ، فكأنـه عنـد مولـده يحمـل عمـر هـؤلاء الآبـاء والأجداد معه .

ونقف بعد ذلك أمام الحادثة الثانية التى يرويها لنا أحمد أمين أيضًا فيقول: (أما الحادثة الثانية فهى أننى ورثت من والدتى رحمها الله قصرًا فى النظر أتعبنى فى حياتى ، وقد عالجته بالمنظار (النظارة) فلم يكن فيه الكفاية، وكم أضاع على (قصر النظر) من فوائد ، وأوقعنى فى مآزق ، وأخجلنى فى مواقف ، وأربكنى فى التصرف ، وكانت له أثر فى أخلاقى) .

ويخرج أحمد أمين بعد ذلك بنتيجة مهمة ينبغى أن نفكر فيها كثيرًا ، لأنها نتيجة صحيحة ، ورغم أن أحمد أمين قد كتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧، أى منذ أكثر من خمسين سنة ، إلا أنه للأسف لا يزال ينطبق على كثير من جوانب حياتنا الراهنة ، وإن كان هناك اختلاف فهو اختلاف محدود .

يقول أحمد أمين : (.. وزاد الحادثتين اللتين وقعتا لى ، حادث وفاة الأخت وأنا فى بطن أمى ، وحادث (قصر النظر) الذى ورثته من أمى، إن التربية عندنا كانت ولا تزال متروكة للمصادفة ، ولو كانت تربية صحيحة لدرسنا شئون كل طفل وشئون أسرته ، وعرفنا أمراضه ومنشأها ، ووضعنا طرق العلاج الصالحة لها . لو كانت تربيتى صحيحة لاكتشفت أسرتى أعراض الحزن فى الحالة الأولى وعالجتها من الناحية النفسية علاجا صحيحًا، ولاستطاع المشرفون على تربيتى أن يعودونى على تذوق السرور كما أتذوق الحزن) . وأن أنعم بالحياة كما ينعم بها صحيح الأعصاب ، صحيح النفس ، ولو كانت تربيتى صحيحة لتم علاج (قصر نظرى) من أول الأمر ، كما يقتضى العلم ، فخفف من حدة المرض أن لم يستطع أن يذهب المرض كله) .

ويواصل أحمد أمين حديثه فيقول :

(كم تستطيع التربية أن تصلح من فساد وتعالج من مرض ، ولكن كل شئ عندنا متروك للمصادفة ، زراعة الزارع ومالية التاجر وسياسة الأمة . القاعدة عندنا هى (كل شئ حيثما اتفق) وعند غيرنا (كل شئ حسبما وصل إليه العلم الحديث) .

وأخيرًا يقول أحمد أمين هذا الكلام الصافى الجميل :

(من تجاربى أن تؤمن بقانون الوراثة فتسير فى عملك على أساسه، فلا يصح أن يتزوج قصير النظر من قصيرة النظر ، ولا مريض بصدره من مريضة بصدرها، ولا ضعيف القلب من ضعيفة القلب .. وأن تؤمن بالبيئة وأثرها فى الإنسان، لتحيط نفسك بخير بيئة ما أمكنك ، وأن تؤمن بالتربية فتعالج بها المرض ، وتكمل بها النقص، فلكل داء دواء من التربية متى أجيد فهمها . وأن تؤمن بالعلم وتحله فى حياتك محل المصادفة وترك الأمور حيثما اتفق ، فقد أصبح بناء كل شئ على العلم هو دعامة المدنية الحديثة وشعار التقدم الإنسانى) .

والحق إن هذا التحليل الذى يقدمه أحمد أمين – من خلال تجاربه الواقعية – هو تحليل صادق فليس أخطر على الإنسان والمجتمع والحياة كلها من ترك الأمور للصدفة ، تتصرف فى كل شئ وتعبث بكل شئ وتقود حياة الناس بلا إذن ، وتتصرف فى هذه الحياة بدون أى خطة ، وإذا تركنا أنفسنا لها فإنها على الأغلب تسئ إلينا ولا تنفعنا . وكثير ما يشعر الإنسان فى لحظة من اللحظات ببعض الألم الخفيف فى صدره أو فى ساقه ثم يذهب بعد ذلك ، ليعود بين الحين والحين .

هذه مصادفة خفيفة جدًا تدخل حياتنا ، ولكننا فى الغالب نهملها ولا نحسب لها أى حساب . وهذا نوع من الاستسلام للمصادفة ، وترك الأمور فى يدها لتحل نفسها بنفسها . والواقع إن هذه الآلام البسيطة التى نشعر بها تقتضى منا تصرفًا آخر هو المسارعة إلى الطبيب والعمل على معرفة مصدر هذه الآلام البسيطة ، لأنها قد تكون إنذارًا للإنسان بإصابته فى قلبه ، رغم أن خطورة المرض لن تظهر إلا بعد سنوات ، وربما لو التفتنا إلى هذا المرض وهو يدب فى أجسامنا على أطراف أصابعه لنجونا من نفس المرض الذى ينشب أظافره فينا عندما يتمكن منا .

وأعود هنا بذاكرتى إلى أيام طفولتى وكان ذلك فى حوالى سنة ١٩٤٠ ، وكنت أيامها فى السادسة من عمرى ، وكان أخى (وحيد) فى الثالثة . وفى يوم من أيام هذا العام سقط أخى مريضًا بصورة خطيرة ، ولم أكن أعرف شيئًا عن مرضه ، ولا عن المرض بصورة عامة . ولكننى رأيت أمى وقد احمرت عيونها من كثرة البكاء ، وفهمت أن أخى فى خطر ، وأنه معرض للموت بسبب مرضه المفاجئ، ونجا أخى بعد ذلك وتغلبت قوة الحياة فيه على قوة المرض. ولكن أحدًا من أسرتى لم يخرج بالنتيجة الطبيعية من هذه التجربة . فقد كان أخى مريضًا (بالصفراء) بعد أن هاجمت كبده هجومًا عنيفًا بسبب البلهارسيا التى لم يفلت منها أحد من أمثالنا ، نحن الذين ولدنا فى الريف ونشأنا فيه . ورغم أن والدى رحمه الله كان مدرسًا وشاعرًا وكان رجلاً متعلمًا إلا أنه اكتفى بأن يحمد الله على شفاء ابنه ونجاته من الأزمة . ولم يلتفت أحد إلى نوع هذا المرض وأنه مرض خطير وهو مرض بطئ ، حيث يقول الأطباء إن الكبد يمكن أن يؤدى وظيفته الأساسية فى الجسم بأى جزء منه ولو كان صغيرًا ، ويمكن أن يتعرض جزء كبير من الكبد للتلف ، ويبقى مع ذلك فى أداء عمله ، ولكنه عندما يتلف بصورة كاملة فإنه يقضى على الإنسان ؟ وهذا ما حدث لأخى (وحيد) فقد نسى ما أصابه وهو طفل صغير ، حيث هاجمه المرض بعنف شديد ، مما يعنى أنه ترك أثرًا أدى إلى ضعف الكبد ، وكان الأمر يقتضى متابعة هذا المرض بدقة وعناية حتى لا يتطور ، ولكننا تركنا الأمر للمصادفة ، وفوجئنا فى سنة ١٩٧١، بأن المسألة قد أفلتت من أيدينا ، وكان أخى يعد الدكتوراه فى باريس، ودخل المستشفى هناك ، فمات وهو فى الرابعة والثلاثين وكان مليئًا بالأحلام والوعود الكثيرة . وأنا دائمًا أقول إن الأعمار بيد الله ، وهذا حق لا جدال فيه، ولا يصح لنا أن نقول بأى شئ سواه ، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يدعونا إلى الإهمال وترك أمورنا للصدفة ، ومن واجبنا أن نعمل ما علينا وألا نترك للصدفة أن تتحكم فينا ، وأن نستجيب لكل

(الإنذارات) التى تظهر فى حياتنا حتى لو كانت صغيرة ومحدودة . فهذه الإنذارات لو تركناها وأهملناها فإنها تكبر مع الزمن وتصبح خطرًا لا تستطيع له ردًا ، ولا نملك أمامه أى قدرة على تجنبه ، بينما لو انتبهنا منذ البداية ، وبذلنا جهدًا ، وأخذنا بالعلم وما يفرضه علينا من تفكير صحيح ، فإن من المؤكد أننا نستطيع بذلك أن نتجنب كثيرًا من المخاطر ، أو نؤجلها على الأقل ونخفف من آثارها القاسية .

ولو أننا راجعنا حياتنا بشئ من التأنى ، فسوف نكتشف أننا نترك باب (المصادفة) مفتوحًا دون أن نهتم بإغلاقه على قدر ما نستطيع ، حتى نتجنب أمراض الجسم وأمراض النفس معًا .

وهذا الباب هو الذى تأتى منه الأخطار التى تهب علينا ، وتعصف بنا، وتفاجئنا ، وتقضى على سعادتنا وتسيل الدموع فى عيوننا بغير رحمة .

ونمضى مع هذه الفكرة لنقف أمام تجربة إنسانية أخرى تختلف عن التجارب السابقة ، لأنها تجربة لم يترك صاحبها فيها نفسه للمصادفة ، ولكنه انتبه إلى أن استسلامه للمصادفة كان كفيلاً بالقضاء على مستقبله ، فصمد للظروف التى أحاطت به ، وقد ساعده والده على أن يتنبه ويستيقظ ويصبر على ما تعرض له ، ولولا ذلك لما حقق النجاح الذى حققه فى الحياة . وأحب أن استطرد هنا لأقول إلى أننى من عشاق القراءة للتجارب الإنسانية الحية ، فأنا أتعلم منها أكثر مما أتعلم من الأفكار النظرية المجردة ، أو المواعظ المباشرة التى تقوم على الإرشاد والنصيحة ، فالتجربة الحية تعلم الإنسان أكثر من الأفكار والمواعظ ألف مرة . والتجربة الحية ، مهما كانت بسيطة ومحدودة ، فإنها تؤثر فى الإنسان وتنير الطريق أمامه وتهديه إلى الصواب .

هذه التجربة الناجحة التى أحب أن أشير إليها هى تجربة سياسى مصرى من الجيل السابق هو (عبد المجيد بدر باشا) الذى تولى مناصب وزارية متعددة بين سنة ١٩٤٥و ١٩٤٨ ، ومنها منصب (وزير الشئون الاجتماعية) ومنصب

(وزير التجارة والصناعة) ومنصب (وزير المالية) وكان من رجال السياسة البارزين فى الأربعينات ، وهذه التجربة تمثل نوعًا من التحكم فى المصادفات التى تعترض حياة الإنسان وعدم الاستسلام لهذه المصادفات ، ولو أن (عبد المجيد بدر) لم يفعل ذلك لانتهت حياته إلى أن يصبح موظفًا صغيرًا بلا أهمية ، ولكنه نجا من هذا المصير ، ووصل إلى أعلى مناصب الدولة ، لأن الظروف ساعدته على أن يتحكم فى المصادفات التى اعترضت حياته ، ولطرافة هذه التجربة وقوة مغزاها فإننى أقدمها هنا كما كتبها (عبد المجيد بدر) نفسه سنة ١٩٤٨ وكان يومها وزيرًا للمالية حيث يقول :

(كان لى منذ طفولتى غرام بالآلات الميكانيكية ، ولذلك اتجه تفكيرى إلى اختيار مهنة الهندسة واخترت السبيل المؤدية إليها بالتحاقى بالقسم العلمى بمدرسة طنطا الثانوية فى سنة ١٩١٦ ، ولما حصلت على البكالوريا . (الثانوية العامة الآن) سنة ١٩١٨ ، تحقق أملى فى اللحاق بمدرسة الهندسة الملكية (كلية الهندسة الآن) غير أنى لم أكد أنتظم فى سلكها حتى بدأت حركة الجهاد الوطنية فى ١٣ نوفمبر من تلك السنة ، وأعقبتها حوادث الثورة المصرية التى اضطرب بسببها سير الدراسة ، ثم تعطلت الدراسة إلى أكتوبر سنة ١٩١٩ ، وصارت بعد ذلك متعسرة بسبب الأحداث السياسية المتصلة بالحركة الوطنية ، مما حمل بعض إخوانى فى الدراسة على التفكير فى السفر إلى ألمانيا للالتحاق بجامعاتها بعيدين عن ذلك الجو المضطرب ، واستهوتنى الفكرة ، فكتبت إلى والدى عليه رحمة الله لأرجوه الموافقة على السفر مع إخوانى لاستكمال دراستى العالية فى ألمانيا . فعارض هذه الفكرة معارضة شديدة ، بحجة أن الحالة فى أوروبا لم تكن فى ذلك الوقت باعثة على الاطمئنان ، وسافر كثيرون من زملائى ، وبقيت فى مصر خضوعًا لمشيئة والدى ،وبشاء الحظ أن يصطدم القطار الذى كان يقل هؤلاء الزملاء إلى ألمانيا بقطار آخر فى أحد بلاد إيطاليا ، وضاع فى هذا الحادث بضعة عشر زميلاً ، كان لفقدهم رنة

حزن عميق فى قلوب المصريين كافة ، وما زالت الدراسة فى مصر تتعثر بين حين وآخر ، وفى خلال هذه الفترة وسوس لى بعض إخوانى الذين زاملونى فى الدراسة منذ الطفولة ، ووقفوا عند حد شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) والتحقوا بخدمة الحكومة .. وسوس لى هؤلاء بترك مدرسة الهندسة والالتحاق معهم بخدمة الحكومة . وكان مما زينوا لى أننى أستطيع إذا دخلت معهم قبل أن أتخرج فى مدرسة الهندسة ، ما دام جو الدراسة يلازمه هذا الاضطراب) .

(واستمالنى هذا الإغراء وقدمت طلب الخدمة فعلاً إلى وزارة الحربية والبحرية) وزارة الدفاع الآن ، وتقررت لياقتى الطبية أمام القومسيون ، وعندئذ كتبت لوالدى أكاشفه باتجاهى الجديد . وكنت أعتقد أنه سيوافقنى فى هذه المرة . ولكن دهشتى كانت عظيمة جدًا عندما تلقيت خطابه ردًا على كتابى إليه ، وقد جعله فى شكل احتجاج صارخ ، أشرك معه فى التوقيع عليه كل أخوتى الأربعة ، وهم جميعًا يتبرأون من انتسابى إليهم ويقطعون صلتى بهم ، ويقول والدى : (إن فى طى خطابه حوالة على بريد القاهرة بمبلغ ستة جنيهات هى مقدار الراتب الذى أغرانى ، أنفقها فى مدة الشهر الأول حتى أقبض أول راتب لى من الحكومة ، وأنه سيسألنى بين يدى الله عن خطئى فى أنه أراد أن يستكمل تعليمى ، ولكنى تحولت من عز العلم إلى ذل الوظيفة الحقيرة) وقد اهتزت نفسى اهتزازًا عنيفًا لهذا الاحتجاج ، وعدلت فورًا عن خطتى ، وكتبت لوالدى أشكره وأستغفره ، وأقبلت على دراستى بكل قواى ، وما زلت بها حتى نلت دبلوم الهندسة فى سنة ١٩٢٤ ، وكانت لى فى خلال هذه الفترة وقفات فى الحركة الوطنية ، ظفرت فيها بشرف النيابة عن زملائى الطلبة ، مما لم يتيسر أو يجوز لى مثله فى عالم الموظفين).

(وفى اعتقادى أنه لولا حكمة والدى رحمة الله عليه ، لما تيسر لى فى ظرف عشرين عامًا أن أصل إلى أرقى مناصب الدولة ، وأنه ليؤسفنى أن يكون أخوانى الذين أغرونى بالخدمة فى ذلك الوقت، راسخين فى قيود الوظائف وهم جميعًا

– بلا استثناء – لا يزالون رغم هذه المدة فى الدرجة السادسة التى بدأت بها حياتى عقب تخرجى فى مدرسة الهندسة ، فهذا الدرس الذى تلقيته عن والدى هو الذى لا أنساه، وهو الذى أثر فى مجرى حياتى وأتاح لى ما نلته من مستقبل سعيد لا يسعنى فيه إلا أن استمطر الرحمات على الوالد الكريم ، وأن أكرر قوله تعالى : (إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرًا) .

ذلك ما كتبه عبد المجيد بدر عن تجربته مع الحظ والمصادفة .

وهذه التجربة وغيرها هى مجموعة من التجارب المتنوعة المختلفة التى لو فكرنا فيها جيدًا ، لخرجنا من ذلك كله بأننا لا يصح أن نترك المصادفة تتحكم فى حياتنا وتسيطر عليها ، ومهما كانت قوة المصادفة، ولها قوتها الكبيرة التى لا شك فيها، فإن علينا أن نقوم بقدر ما نستطيع حتى نخفف من أثر المصادفات السيئة، ونزيد من قوة المصادفات الحسنة والطيبة، وقد لا نحصل بعد المقاومة على ما نريد ، وفى هذه الحالة على الأقل لن نقعد ملومين محسورين بسبب تقصيرنا فى حق أنفسنا وتسليمنا للمصادفات بكل أمورنا، على أن الحياة لها قاعدتها الذهبية التى لا تخطئ فى معظم الأحيان ، وهى أن الاجتهاد الحقيقى لابد أن تكون له ثمرات ناضجة ونتائج طيبة ،ـ وأنه من النادر أن يضيع جهد حقيقى صادق لا زيف فيه .

وفى النهاية لابد أن يخوض الإنسان حرب تحرير مستمرة ضد الحظ والمصادفة، خاصة إذا كان الحظ غير سعيد أو كانت المصادفة غير مواتية، فهذه الحرب الدائمة هى التى يمكن أن تساعد الإنسان بمرور الوقت على أن يحقق أحلامه ويصل فى رحلة الحياة إلى كل ما يتمناه، أو بعضه على الأقل .

مع السلامة ..!

كثيرًا ما نلتقى فى حياتنا اليومية بهؤلاء الذين نسميهم باسم (الأدعياء) وقد يخدعنا بعض هؤلاء الأدعياء ، ونتصور حين نستمع إليهم أو نراهم فى مظهرهم الحسن ، أن فيهم خيرًا ، وأن (وراء القبة شيخًا) كما يقول المثل الشائع .. ولكننا سرعان ما نكتشف أن هؤلاء الأدعياء كذابون مزيفون لا يحملون من فضائل الإنسان الحقيقية شيئًا ، ولا يتحملون أى مسئولية جدية ، ولا يعرفون معنى الخير ، ولا يحبون أحدًا ، وكل ما يتميزون به هو مظهر خارجى ولمعان سطحى ، فلسانهم يقطر عسلاً ، وملابسهم أنيقة وهى (على) آخر (موضة) تعرفها (باريس) أو غيرها من عواصم الأزياء العالمية .

وعندما يتكاثر (الأدعياء) فى مجتمع من المجتمعات فلابد أن يكون ذلك دليلاً على أن هذا المجتمع يتعرض من داخله لخطر شديد . فالأدعياء لا يستطيعون إنجاز شئ حقيقى ، وليس لديهم أى حافز لأن يقوموا بعمل مفيد، ولكن المهم عندهم هو أن يكونوا فى المقدمة ، وأن يكونوا دائمًا فى الصفوف الأولى التى يمكن تسليط الأضواء عليها . وهم – كما يقول طه حسين – عنهم – (لا يعملون ولا يرضى نفوسهم أن يعمل الناس) . والأدعياء دائمًا يمثلون قوة لا هدف لها إلا شن الحرب على المتواضعين المخلصين القادرين على العمل فى هدوء وأمانة ودون أى ضجيج أو ضوضاء . والمجتمعات التى تمر بأزمات كبيرة تعطى الفرصة الواسعة للأدعياء لكى يحتلوا الصفوف الأولى، ولكى يكونوا دائمًا فى الضوء الساطع . أما المجتمعات الجادة التى تحمل هم حاضرها ومستقبلها، وتحس بالمسئولية العالية نحو كل إنسان يعيش فيها ، حتى لو كان طفلاً صغيرًا لا حيلة له ، أو شيخًا اتعبته الأيام فأصبح غير قادر على العمل ومن حقه مع ذلك أن يصون كرامته، أو امرأة عملت فى بيتها وفى الحياة العامة فأنهكت نفسها وأصبح من حقها أن يمد لها المجتمع يديه فى حنان دافئ، يشعرها بأنها كانت على صواب فى كفاحها وصبرها واحترامها لنفسها، وأن

مجتمعها لم يخذلها بعد أن عانت ما عانت من التعب والكدح .. فمكانها الكريم بعد هذا كله محفوظ لها .. وهى بعد رحلتها الصعبة على الرأس والعين بالنسبة للجميع.

الأدعياء بلاء شديد تصاب به الحياة ، ويصاب به المجتمع .. ولعلى لم أقرأ فى وصف هؤلاء الأدعياء أجمل ولا أبدع مما جاء فى مسرحية (الإنسان والسوبرمان) (لبرناردشو) حيث يقول على لسان إحدى شخصيات المسرحية :

(.. إن أصدقاءك هؤلاء هم أشد الكلاب التى أعرفها خمولاً وكسلاً ، فهم لا يتميزون بالجمال ، وإنما هو (يزوقون) أنفسهم وحسب. وهم ليسوا نظيفين، وإنما هم حليقو الوجوه ، وهم ليسوا أنيقين ، ولكنهم يرتدون آخر ما وصلت إليه (الموضة) وليسوا مثقفين ولكنهم خريجو كليات من الناجحين وحسب، وهم ليسوا متدينين ، وإنما يذهبون إلى دور العبادة ، ولا يمتازون بأية أخلاق، وإنما هم يسايرون التقاليد الشائعة ، وليسوا من الذين يتمسكون بالفضيلة، وإنما هم جبناء ، وليسو أغنياء ولكنهم يملكون ثروات فقط ، وليسوا سادة ، وإنما هم يملكون السلطة والسيطرة ، وليسوا من الذين تعنيهم مشاعر الآخرين وإنما هم مؤدبون أو متظاهرون بالأدب ، وليسوا أذكياء وإنما هم يحملون آراء ويكررونها، وليسوا كرماء ولكنهم يحاولون أن يكسبوا مودة الناس . وليسوا صادقين على الإطلاق ، لأن كل واحد منهم هو كذاب .. وكذاب إلى آخر ذرة فى أعماقه) .

هذا هو ما يقوله (برنارد شو) فى مسرحيته (الإنسان والسوبرمان) وهو فى هذه العبارات القاسية المريرة يكشف (الأدعياء) ويعريهم من (الأقنعة) التى يحاولون وضعها على وجوههم . وكلام (برنارد شو) دقيق وأمين ، وفيه تحذير لنا ، ونحن نحس بصدقه كلما أوقعنا سوء الحظ فى التعامل مع أحد من هؤلاء (الأدعياء) .

والأدب الإنسانى ملىء بالنماذج الحية التى تصور لنا هؤلاء الأدعياء وتحضنا على رفضهم والانصراف عنهم وعدم التعامل معهم، لأنهم يمثلون خطرا كبيرا

على الحياة والإنسان والمجتمع. وللأديب الإنسانى الروسى العظيم أنطوان تشيكوف (١٨٦٠-١٩٠٤) قصص عديدة تناول فيها ظاهرة (الأدعياء) هذه بالتحليل لها والهجوم عليها . ومن أشهر هذه القصص قصة (الجرادة) وهى قصة لا تفارق ذاكرتى لعمق دلالتها وقوة تأثيرها وروحها الإنسانية الصافية، ومن هنا فأنا أعود إليها كثيرًا ، وفى هذه القصة يحدثنا (تشيكوف) عن امرأة يصفها بأنها (جرادة) وهذه (الجرادة) كانت سيدة جميلة تتميز باللباقة والحديث الناعم والمظهر الجذاب ، وكانت هذه المرأة تريد أن تشعر بأهميتها فحولت بيتها إلى صالون تجتمع فيه مع رجال مشهورين من الرسامين والموسيقيين وغيرهم من أهل الفن ، وكانت (أولجا) وهذا هو اسم السيدة (الجرادة) تقول لأصدقائها وهى تشير إلى زوجها : (انظروا إليه ، إن فى طلعته شيئًا .. أليس كذلك؟) . وكان يبدو عليها وهى تقول ذلك حرصها الشديد على أن تبرر لمن يعرفونها لماذا قبلت الزواج من شخص عادى ليس فيه أى صفة تدفع به إلى صفوف الممتازين .

كانت هذه المرأة تحب المشهورين اللامعين فى أى شئ حتى لو كانوا تافهين وزائفين ، وكانت تشعر وهى إلى جانب هؤلاء الأدعياء بأنها ممتازة ولامعة ، أليست على معرفة وصداقة مع ألمع الناس وأشهرهم ، ألم تكن معرفة المشهورين هى موهبتها الرئيسية والوحيدة ؟.

أحد هؤلاء المشهورين أخذ يعلمها الخطابة ، وآخر كان يلقى عليها دروسًا فى الموسيقى ويقول لها فى صوت حزين : إنك موهوبة ، ولكنك على وشك أن تقبرى نفسك إن لم تستغلى مواهبك لتصبحى مغنية رقيقة . وثالث كان رسامًا، وهو أيضًا يقول لها إنها موهوبة ، لولا الكسل .. ولولا ارتباطها بزوج عادى مغمور .

كان أصدقاؤها من الأدعياء ، الباحثين عن الشهرة ، والذين يلبسون مسوح الفن، ويتظاهرون بالتفكير العميق ، وكانت تصدقهم وتسعد بهذه الحياة التى

تتصور أنها حياة عبقرية وهى .. حياة المواهب والموهوبين .

وأخيرًا استسلمت لحب واحد من هؤلاء العباقرة المزيفين وهو الرسام ، وكان هذا العبقرى الزائف يلتقى بها فى بيته ، وأحيانًا على صفحة الماء فى قارب يسبح فى ضوء القمر، وكان يقول لها: وهى فى أحضانه :- ما أروع السماء والماء والقمر والحب !

ولكن العبقرى الزائف الذى انساقت وراءه تركها بعد فترة وسئم منها ، فهو الآخر يحب أن تكون فى حياته امرأة جديدة تطارده لتؤكد له ذاته وعبقريته وقدرته على خطف قلوب النساء .

وظلت (أولجا) أو (الجرادة) تجرى وراء سراب الأضواء والصخب بدون عمق أو فهم صحيح ، وهذه الرغبة هى التى قادتها إلى الخيانة ، وقادتها الخيانة إلى الإحساس بالتفاهة والتعاسة .

وجاء يوم ..

مرض زوجها الطبيب لأنه امتص الصديد من حنجرة غلام صغير مصاب بالدفتيريا.

واشتد المرض على الزوج ، وأصبح من الواضح أنه سوف يفارق الحياة .

وفوجئت الزوجة بأن عددًا كبيرًا من الناس قد جاءوا إلى البيت يزورون المريض ، وكان الحزن الشديد واضحًا فى عيونهم جميعًا .

وبدأت الزوجة تلتفت إلى شئ غريب لم تلفت إليه من قبل فقد اكتشفت أن زوجها رجل عبقرى ومهم ومحبوب جدًا من الناس .

كان أحد زملائه يقول عنه : (ما أفدح خسارة العلم فيه .. فقد كان على خلافنا جميعًا رجلاً ممتازًا .. وأى موهبة .. وأى أمل كان يشيعه فينا هذا الرجل) .

وفوجئت الزوجة بأن هذا هو ما كانت تبحث عنه طيلة حياتها ، لقد كانت دائمًا تريد أن ترتبط برجل عظيم له وزن وأهمية ، وكان زوجها عظيمًا دون أن

تدرى ، ولكنه لم يكن من الأدعياء ، وها هى تكتشف الحقيقة ، ولكن فى آخر لحظة .. وزوجها على فراش الموت !!

إنها لم تكن تفهم شيئًا . كانت مخدوعة بأصدقائها الأدعياء المزيفين وكانت غافلة تمامًا عن القيمة الكبيرة التى كان يخفيها تواضع زوجها العظيم ، لم تحاول أن تفهم الأمور بشئ من العمق ، وكان البريق الخارجى يثيرها ، وأدى هذا كله إلى تشويش كبير فى نفسها وأفكارها ، لم تعرف لمن تعطى قلبها وحياتها فكانت تنتقل بين عدد كبير من الرجال ، تحب هذا فترة، وفى فترة أخرى تحب غيره ، ثم تضيق به وبنفسها .

هذه الحياة المشوشة جعلت هذه المرأة عاجزة عن الشعور بأى عاطفة حقيقية عميقة ، وكانت النتيجة أنها عجزت عن تحقيق حلمها وهى أن ترتبط برجل ممتاز .. بينما كان هذا الهدف أقرب إليها من أى شئ آخر ، فقد كان زوجها رجلاً مهمًا ، ولكنه كان متواضعًا بعيدًا عن الإدعاء والغرور ، فعجزت عن فهمه وتقديره .

وبقدر ما يكشف لنا (تشيكوف) فى قصته البديعة عن تفاهة هذه المرأة وعجزها عن الشعور بعاطفة عميقة تجاه رجل واحد ، فإنه يكشف لنا أيضًا أن الشئ الجميل العميق إنما هو شئ بسيط متواضع ، أما الأدعياء الثرثارون المتظاهرون ، فهم نوع من التفاهة الأنيقة الملفوفة بالسلوفان .

ونترك هذا النموذج الذى يقدمه لنا تشيكوف ، لنقف أمام نموذج واقعى حى يقدمه لنا الكاتب الفرنسى (رينيه بنجامان) فى مذكراته التى كتبها عن تجاربه فى الحرب العالمية الثانية ، والتى قدم لها تلخيصها وافيًا دقيقًا الأديب والصحفى الكبير الراحل أحمد الصاوى محمد فى كتابه الجميل (الرقص على البارود) .

كانت ألمانيا توشك أن تغزو فرنسا فى صيف ١٩٤٠ ، وكان الكاتب (بنجمان) مريضًا فى باريس ، فنصحه الأطباء بأن يذهب إلى إحدى القرى الفرنسية حتى يسترد عافيته باستنشاق هواء نقى ، بعيدًا عن الضجيج

والضوضاء . وذهب (بنجمان) إلى قرية تقع على نهر (اللوار) وسكن فى بيت يملكه فلاح يعيش فيه مع زوجته . وفى أثناء إقامته فى هذا البيت الريفى (جاء إلى بيت الفلاح الذى أعيش معه نعى ابنه الوحيد الذى كان جنديًا فى الجيش الفرنسى الذى يقف على حدود بلجيكا ، ولا أحدثك عن حزن الأم، وصبر الأب ، فقد مضى ذلك الفلاح ليعمل فى حقله دون أن ينطق بكلمة) .

وذات يوم جاءت إلى البيت فتاة من باريس قالت إنها بنت عم لصديق (جوزيف) – الابن الراحل – فقالت الأم بصوت حزين : إن ولدى (جوزيف) أيتها الآنسة قد مات فى ساحة الشرف وهو يدافع عن بلاده ، فقالت الفتاة القادمة من باريس بفتور : (.. أوه) . فأضافت الأم : ولكن هذا – يا ابنتى – لا يغير من الأمر شيئًا .. فلن ندعك على قارعة الطريق .. ادخلى .. إننا جميعًا فى الشقاء سواء بسبب الحرب . فنطقت الفتاة بكلمة شكر مختصرة ، ودخلت إلى البيت) فتأملتها على شعاع الشمس الأخير .. أظافر مخضوبة باللون الأحمر، وكعب عال، وشعر مسرح بعناية فائقة ، سألتها : هل جئت من باريس على القدمين؟ فقالت : كلا .. لقد كنت محظوظة حملتنى بعض السيارات المارة ، وأنزلتنى آخر سيارة على بعد خمسمائة متر من هنا وعندما سألتها : أليس لك أهل ؟ قالت : إنى على غير وفاق مع أهلى ..).

(وفى ظهر اليوم التالى سألتنى ، بلهجة المتضايق ، عن موعد تناول الطعام.. فأدهشنى سؤالها ، ولعلها تصورت نفسها فى فندق ، وتأملتها على نور النهار، فإذا بها من تلك (العرائس) التى (تنتجها) المدن الكبرى بكميات هائلة: زائفة الجمال ، ضئيلة ، عجفاء ، متصنعة ، متناقضة مع كل ما حولها مما هو طبيعى للغاية ، وكانت متأففة من كل ما تراه .. قدمت للفلاحة التى استضافتها إصبعين لتحيتها ، واشتكت من السهاد والأرق طوال ليلها .. وتساءلت : لماذا لا يسرعون بتوقيع الهدنة ونحن فى زمن السرعة الخاطفة ؟ .. وذكرت على المائدة ، أنها نالت شهادتها العليا ، ثم وجهها صاحب لها إلى (الموضة) وصناعة الأزياء . ثم قالت أننى لا أطيق العيش فى حقل .. ولا

أستطيع البقاء طوال النهار فى هذه القذارة ، فنظر إليها صاحب البيت ، القروى ، وقال بألم رغم ما فى صوته من هدوء:

(إذا كنت تجديننا قذرين يا آنستى الجميلة فليس هناك من يرغمك على البقاء .. فهناك قصور تستطيعين أن تنزلى فيها على الرحب والسعة .. بشرط أن تقولى لأهلها كلامًا رقيقًا .

فقالت الفتاة بعد أن هزت كتفيها تعبيرًا عن عدم الرضا :

– أتظنون أننى أقول ذلك ضدكم ؟ ما أتعس سوء الفهم ..! إننى أقول ذلك لصالحكم ، فإنكم إذا جئتم إلى المدينة ، واشتغلتم بالتجارة ، كان ذلك خيرًا لكم!) .

ورد عليها الفلاح صاحب البيت قائلاً :

– نشكرك يا آنسة .. ولكن هذا لا يقال للفلاحين .. فكيف تعيش المدن بلا مزارعين . ومن أين يأكل أهلها ؟

فقالت الفتاة : لست أدرى .. وهذا لا يعنينى ، ولكننى أفضل ألا أجد الطعام أبدًا إذا كان مفروضًا على خدمة الحيوان!) .

(كاد الفلاح يخرج عن طبعه ، لولا نظرة من زوجته .. فقد لاح أن دماغ هذه الفتاة جامد وصغير مثل (رأس الدبوس) .. كانت (تصعر) خدها لكل شئ وكانت كأنها نزلت مؤقتًا لتعيش فى عالم بدائى ، على مدى ألف ميل من حضارة عصرها) .

(وتساءلت الفتاة : أين (الغاز) الذى عليه تطبخون ؟ وأمسكت السكين والشوكة بطرف أصابعها ، وقلبت قطعة اللحم فى الصحن ثم أهملتها.. فسألتها صاحبة الدار : هل أقوم بتحضير بيضة لتأكليها ؟ .. فطلبت زبدة طازجة .. وهنا أخذ القروى بيدها وخرج معها وعاد ليقول : لقد وضعتها على قارعة الطريق وقلت لها : مع السلامة . وسوف .. تذهب إلى حال سبيلها. وهذه هى طريقتهم فى تربية الأولاد منذ عشرين عامًا ! ولابد من تغيير هذا المنهج وتعليم الناس فى فرنسا كيف يحترمون الفلاح ، وإلا فإن الفلاح يميت

فرنسا من الجوع ..) .

تلك هى القصة الواقعية التى رواها الكاتب الفرنسى (رينيه بنجامان) فى مذكراته عن فترة الحرب العالمية الثانية ، وإذا وضعنا هذه القصة الحقيقية إلى جانب قصة (تشيكوف) الخيالية عن المرأة (الجرادة) فسوف نخرج برؤية واحدة واضحة ، هى أن الأدعياء ، رجالاً كانوا أو نساء ، هم خطر على الحياة والمجتمع ، بل هم خطر حتى على أنفسهم ، لأنهم يفسدون الدنيا بالإدعاء والتزوير والأناقة والأزياء والتصرفات التافهة ، وهم يحاولون هدم الطبيعة ، وتخريب الأسس البسيطة الصادقة لكل حياة سليمة منتجة ، ولذلك فإن الحرب على (الأدعياء) واجبة ، والرفض لهؤلاء (الأدعياء) المزيفين ضرورة، فهؤلاء الأدعياء لا يحملون احترامًا حقيقيًا للعمل المخلص الجاد المتواضع . وهم يكرهون الحياة والناس ، ولا يحبون إلا نفوسهم المشوهة .

الأدعياء وباء يصيب المجتمع ويعرضه لكثير من الأزمات والمخاطر والمغامرات الفارغة ، والحياة الناجحة تحتاج إلى الصدق والبساطة واحترام كل عمل جدى منتج قائم على الصبر والتحمل ، وبعيد عن الكذب والثرثرة والزخارف والألوان البراقة الخادعة ، وعلينا أن نفعل مثلما فعل الفلاح الفرنسى الطيب ، فنكنس من حياتنا كل الأدعياء ونقول لهم ونحن نلعنهم فى نفوسنا : مع السلامة ! !

الشيخ الولهان !!

ما أعجب الإنسان فى هذه الحياة . ففى الوقت الذى تظن فيه أنه كائن واضح وبسيط تفاجئنا أحداث وتجارب تؤكد لنا أننا واهمون ، وأن الإنسان أشد غموضًا وتعقيدًا مما نتصور . والذى يقول أنه استطاع أن يفهم النفس الإنسانية بصورة كاملة مخطئ أو مغرور . فالنفس الإنسانية عامرة بالأمواج والتقلبات . والدنيا لغز ، وأكبر الألغاز فيها هو الإنسان . ونحن نستطيع تنظيم حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ونستطيع أن نسن القوانين التى تحكم العلاقات بين الناس وتحدد الارتباطات الدولية المختلفة ، ولكن من يستطيع أن يتحكم فى تقلبات العواطف والأحاسيس والقلب البشرى ؟

فى رواية معروفة للكاتب الفرنسى الكبير أناتول فرانس (١٨٤٤-١٩٢٤) هى رواية (تاييس) نجد راهبًا وهب حياته لله وعبادته الدائمة ، ويصادف هذا الراهب فى طريقه (غانية) أو (راقصة) فيحاول أن يهديها ويدلها على الصراط المستقيم ، فإذا بهذا العابد الخاشع يقع فى غرام (الغانية) ويتحول من عبادة الله إلى عبادة (الجمال الرائع) الذى خلقه الله . وتتمزق نفسه ويضطرب قلبه ، ويشعر بأنه وقع فى الإثم والخطيئة ، وأنه انتقل من القداسة إلى النجاسة وأنه ابتعد من مملكة الله إلى أرض يحكمها الشيطان ، ورغم معرفته بهذا التحول فى شخصيته وعواطف قلبه ، فإن الإرادة تخونه ، لأن هواه للغانية الجميلة كان أقوى من كل شئ فى حياته ، فأصبح تابعًا ذليلاً للغانية بدلاً من أن تكون تابعة له .. كيف وقع هذا التحول المفاجئ . وكيف تحول القديس إلى عاشق مجنون؟! وكيف انتقل القلب الهادئ الراضى ، إلى قلب مشتعل ومشغوف بجمال امرأة رائعة فى جسمها ، ولكنها فى سلوكها غارقة فى الطين ؟!

تلك هى المسألة .. فالإنسان فى جانب من جوانبه لغز كبير ، وفيه أسرار لا يمكن فهمها حسب القواعد الثابتة المعروفة ، والذى يحاول أن يفهم الأسرار

ويقدم لها تفسيرًا نهائيًا ودقيقًا هـو مثـل الـذى يحمـل (محراثًـا) ليحـرث فـى البحر، بدلاً من أن يحرث فى الأرض والحرث فى البحر هباء ولا جدوى منه .

كـل إنسـان يتعـرض فـى حياتـه لبعض اللحظات الحرجـة ، وفـى هــذه اللحظات لا يستطيع أن يتحكم فى مشاعره ، ولا يستطيع أن يستمر فى تنفيـذ الخطط الدقيقة التى وضعها لنفسه ، وقد يتعرض الإنسان لمفاجـأة التغير الـذى يحس به ، فإن لم يكن قوى الإرادة صافى الذهن سليم النفس ، فإنه يتهشـم ، ويستسلم للمفاجأة ، ويمضى حيـث تحملـه الأمـواج ، ويـترك أمـره للمصادفـة العمياء ، واللحظة الحرجة تمر بالكثيرين ، وعلـى الإنسـان أن يكـون مسـتعدًا لها، قادرًا على النجاة منها والإفلات من آثارها السلبية .

وهذه قصة بديعة مؤثرة ، وقعت أثناء الحرب العالمية الثانيـة فـى فرنسـا ، وهى قصة واقعية لا خيال فيها كتبها الفنان الفرنسى الكبـير (رينيـه بنجامـان) فى مذكراته عن فترة الحرب العالمية الثانية ، وهى المذكرات التى أشـرنا إليـها ووقفنا معها فى الفصل السـابق وقـد ترجـم هـذه المذكـرات إلى العربيـة الكـاتب والصحفى الكبير أحمد الصاوى محمـد بأسـلوبه الرقيـق الجميـل تحـت عنـوان (الرقص على البارود) .

وقصة الكاتب الفرنسى (بنجامان) من هذا النوع الذى يثبت أن الإنسان فيـه جانب غامض ملئ بالأسرار ، وأن الإنسان يمكن أن يتغير ويقلب حياتـه رأسًـا على عقب ، إذا لم ينتبه إلى تلك (اللحظة الحرجة) التـى تمـر بـه وتحـاول أن تغلبه على إرادته وتفسد عليه كل شئ .

وقد وقعت أحداث هـذه القصـة فـى صيـف ١٩٤٠ ، وبـالتحديد فـى شـهر مايو، أى قبل غزو الألمان لفرنسا بشهر واحد ، حيث وقع هـذا الغـزو فـى ٢٢ يونيه سنة ١٩٤٠ .

فـى ذلـك الوقـت كـان الكـاتب الفنـان (بنجامـان) يرقـد مريضًـا فـى أحـد مستشفيات باريس ، وهو يصف ذلك بنفسه فيقول : (كنـت طريـح الفـراش ،

أضنتنى أشباح الخيال ، وحاصرتنى حوائط غرفتى البيضاء . فرأيت فى الليل – وأنفاسى لاهثة متقطعة – ذكريات الحرب السابقة ، حرب ١٩١٤ ، التى اشتركت فيها ، كانت هذه الذكريات تمر أمامى على الجدران البيضاء، فوجدت نفسى ثانية بين الجرحى الذين يئنون ويلفظون أنفاسهم . ما الذي أشكو منه الآن .. سنة ١٩٤٠ ؟ أقسم بالله أن مرضى ودائى كان هو الحرب. فقد كانت تجرى فى كيانى المعارك ، وتسرى فى جسمى حمى التقدم والتقهقر، ثم الغياب فجأة عن الوعى بعد نزيف من جرح ، أو مزيد من الآلام، وعندما أقامنى الأطباء على قدمى ، وأعدت اتصالى بالواقع أشاروا على بأن أعوض فى الهواء الطلق ما خسرته فى غرفة مغلقة .. فالتنفس الصحى هو حلم للمريض والسجين والأسير . فاخترت بيتًا ريفيًا على شاطئ نهر (اللوار) جئته فى ٤ مايو ١٩٤٠ ، شاحبًا ، مندهشًا من كل شئ ممتلئ القلب بالأمل والحنين والقلق . كنت حريصًا على الحياة ، ومع ذلك ما كان أقرب الحياة يومئذ إلى الموت) .

وفى هذه القرية التى ذهب إليها الكاتب الفنان (بنجامان) ليستنشق الهواء النقى ويستعيد صحته التقى بطبيب يعيش فى القرية ، وهو طبيب فيلسوف له رأى فى الدنيا والناس ، وقد ظل الطبيب يتحدث إليه فيقول : (إنك رجل مرهف الإحساس ، أجل .. فالطريقة التى تحرك بها يديك ، ثم شحوب لونك يدلان على ذلك . أنك رجل شديد الجزع من الألم ، وممن يسببون الآلم فالحرب هى دواؤك ! ولكنى قد أدهشك إذا قلت لك أننى بدأت أعتقد أن الحرب هى نظام إلهى ، فتقدم العلوم لم يزد على أن يعلمنا النعومة ويضعنا لحمياتنا – كالأطفال – فى (اللغة) فى حين كان ينبغى ألا تكون هناك تربية أفضل من تربية الرجال على أن يعتادوا قسوة الدهر وخيانة الأيام، لكى يواجهوا المأساة.. وإليك طبيبا مثلى، فهو لا يجد فرقا عظيما بين أحداث الحرب وحياته العادية المألوفة ، فأنا رجل تعودت على الألم منذ زمن طويل .

ووصلت إلى نتيجة تقول بأن الألم ضرورى ، مادام هناك كل هذا الألم فى الدنيا.. وعبثًا يبحث الإنسان عن السلام والرقاد والنسيان . إذا لابد من اليقظة دائمًا . فالإنسان يستيقظ كما تعلم، ولو كان بين الموتى، ثم يقول الطبيب الفيلسوف للكاتب (بنجامان) :

(إن هذه القرية التى جئت للاستشفاء فيها هى دنيا كاملة فلا تستهتر بها).

ثم قال الطبيب للكاتب :

(أنظر إلى ذلك البيت الأبيض فى الطرف الآخر من الوادى على الربوة المقابلة ، تجد حريقًا من نوع آخر ، أنه حريق الحب .. وعلى الرغم من أننى أتمنى لو رأيت الناس كلهم سعداء ، فأننى أراهم – على العكس – يبحثون عن حتفهم بأيديهم ، فلا تكاد تخرجهم من حفرة حتى يقعوا فى حفرة أخرى ، مثل ذلك الشيخ المدهش الذى يسكن ذلك البيت الكبير الأبيض الذى يبدو لك على بعد خطوات منك) .

ثم يروى الطبيب قصة ذلك الشيخ :

(إنه شيخ فى السابعة والستين من العمر . وهو سوف يتزوج بعد غد ٩ مايو ١٩٤٠ هى حفلة زواج مشهودة، أما زوجته فهى فتاة حسناء لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها . والشيخ عاشق ولهان والغريب أن هذا الشيخ قد قضى حياته فى الحذر والتبصر ، وهو الآن يطلق لنفسه الحبل على الغارب ، وقد كان أشد رجل عرفته حرصًا ومواظبة على مطالعة الكتب، ولكنه اليوم يغلق صفحات هذه الكتب لأنه لم يعد يحلم إلا بالفراش ، وهو أرستقراطى من الطبقة العالية ، ولكنه سيضم إليه فى الفراش فتاة من عامة الشعب . فأعلم يا سيدى أن فى كل مكان مخلوقات لا تستطيع أن تعيش فى سلام . هذا السلام الذى تطلبه أنت مثلى .. هو أمر مستحيل .. ولكل ركن من الأرض ناره وسعاره) .

(إن هذا الشيخ الولهان هو ديبلوماسى قديم .. وزير مفوض قضى فى الصين عشرين عامًا . وقد عاد من هناك فى سن الخامسة والخمسين ، يحمل طابع الصين من صفرة وجفاف وذهول وسكوت ، عاد من الشرق هادئًا يقول : إن (المحرك الميكانيكى) و(التقدم الآلى) سوف يقضيان على العالم . وقد تزوج أول مرة ، فتاة عانس ليست جميلة ، ولكنها فى سن قريبة من سنه ، عاشت وأمها معه ، إلى أن ماتت فى سبتمبر ١٩٣٩ ، شهر إعلان الحرب العالمية الثانية ، وكانت زوجة عظيمة ، وجيهة ، خائرة مضناة ، فى حاجة كل يوم إلى طبيب ، ولعل هذا هو سر تعلق زوجها بها ، فقد كان يكره الحيوية والضجة ، كان رجل تأمل ، وتشكك ، واسترخاء ، غير أنه لم يلبث أن أحس بالضجر من ذلك البيت المريض ، السقيم ، الصامت ، ولكنه كان من الوجاهة والكبرياء بحيث لا يتدنى إلى البحث عن ملذات خارج بيته).

وتمضى قصة الطبيب عن الشيخ الولهان . فقد دخلت بيته قبل وفاة زوجته الأولى فتاة ريفية اسمها (كارولين) لتكون وصيفة لزوجته المريضة ، و(كارولين) التى أطلقوا عليها من باب التدليل اسم (كارو) هى (ابنة فلاحين بخيلين من القرى المجاورة) .. وكانت (كارو) فائرة الجسم ، وساحرة الجمال . وفى يوم من الأيام استدعاها الشيخ لقطف (عناقيد العنب) من حديقة البيت . وهناك وقف أمامها (وقد شحب وجهه ، وقال : يا بنيتى ! ما أجملك ! .. أننى أتوسل إليك أن تدعينى أقول لك كما ينبغى .. كم أنت جميلة ، ثم انتهز فرصة عجزها عن الحركة ، وأخذها من خصرها ، وكان عليها ثوب مهلهل ، يكشف عن ثديين يحيران الألباب ، وأصبح صدرها سجين اليدين الطويلتين للشيخ الولهان) .

وماتت الزوجة الأولى بعد اشتعال الحرب العالمية الثانية بخمسة أيام ، فقد اشتعلت الحرب فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وماتت الزوجة فى ٨ سبتمبر من نفس العام .

وبعد أن ماتت الزوجة أصبح الشيخ (عبدًا بـالقلب والعقل والجسد ، لتلك الفتاة الفلاحة كارولين أو كارو).

وأصرت كارولين بنت السنة ١٦ على الزواج من الشيخ ابن السابعة والستين (فلما قال لها الشيخ الارستقراطى خشية كلام الناس : أنك من زمن طويل فى أحلامى ، وفى جميع الصور التى تعرض على فكرى أو فؤادى .. أنت بـالروح زوجتى وغرامى (فردت عليه (كارولين) قائلة : إذا كان هـذا صحيحًا فتكفيك الخيالات والأحلام .. بدونى) وكان الشيخ يرمى إلى الحـب المستور ، وكـانت كارولين تلح على الزواج المشروع والمشهور . وكـان حـب شخصين مـن طبقتين متفاوتتين ، وعمريـن مختلفين لا يذكـره أحـد فـى تلـك البـلاد بالسوء ، أما زواجهما فى هذه القرية الفرنسية الصغيرة ، فقد كان مجالاً للقيل والقال . ومع ذلك استهان الشيخ بكل شئ وأخـذ يقـول لكـل مـن يتحـدث معـه عـن غرابـة زواجه من الفلاحة الجميلة الصغيرة : أنى لم يعد فى رأسى إلا اسم (كـارولين) وصورتها وجسمها الناصع الرائع .. إن هذه المرأة فى بيتى بمنزلة النهر الصغير فى الوادى المجدب) .

وتمضى أحداث القصة بعد ذلك ، فيموت الشيخ الولهان بعد شهر واحد من زواجه بفتاته الصغيرة الناضرة ، ويعلق طبيب القرية على ذلك فيقـول : (لابـد أن الشيخ قد ظل يتناول طوال هذا الشهر سموم الصين ومخدارتها التى جاء بها من مقامه الطويل هناك) . وكانت الصين فى ذلك الوقت ، وقبل انتصار ثورتها سنة ١٩٤٩ ، معروفة بأنها أرض الأفيون وسائر المخدرات .

وبعد أن مات الشيخ ورثـت زوجتـه (كـارولين) كـل شـئ ومـن ذلـك قصـره الأبيض الكبير ، وكان الألمان قد احتلوا فرنسا ، واقتربوا من القرية القائمة على نهر (اللوار) والتى تجرى فيها أحداث القصة ويجئ الألمـان بـالفعل ، ويذهـب طبيب القرية وصديقه الكاتب (بنجامان) إلى (كارولين) فى قصرها ليعرفها شيئًا عن أحوالها ، من باب الاطمئنان عليها فاستقبلتهما فى مكتبة القصر ، وقـالت

لهما فى طمأنينة : (إن الألمان ليسوا مطلقًا على الصورة التى تصورتها ، فهم رجال ككل الرجال . وعندى منهم ثلاثة ضباط ، لم يأخذوا منى شيئًا ، وكل ما طلبوه أن ينزلوا عندى ، وهم يتحدثون معى بطيبة خاطر ، وهم لا يريدوننى أن أطبخ ، وقد كلفوا جنودهم فقاموا عنى بكل شئ . وهم رجال طوال القامة ، أقوياء البنية ، وهم أيضًا رجال مهذبون .. بل أنى أجدهم على قدر كاف من الجمال) .

ويعلق طبيب القرية على كلام (كارولين) فيقول : (لقد استيقظت المرأة ، ولقد كان الزوج الشيخ المسكين يمهد الطريق حتى يجئ الظافر فى الحرب .. فيظفر بالحب) .

تلك هى خلاصة القصة الواقعية البديعة التى كتبها الكاتب الفرنسى الفنان (رينيه بنجامان) وروى فيها ما حدث له وشاهده بنفسه فى قرية صغيرة فى صيف سنة ١٩٤٠ ، أى فى الوقت الذى بدأ فيه الجيش الألمانى يغزو فرنسا .

وهكذا يمر أمامنا شريط الأحداث ليكشف لنا أن فى أعماق الإنسان أسرارًا عجيبة ، فهذا الشيخ الأرستقراطى المثقف والذى يميل إلى العزلة والانطواء والقراءة والتأمل ، والذى كانت حياته تقوم على الانضباط الكامل .. هذا الشيخ بكل صفاته التى حرص عليها طيلة عمره يجد نفسه فجأة وهو واقع فى غرام شهوانى عنيف مع فتاة فى السادسة عشرة والفتاة نفسها فلاحة جميلة لا تهتم بالثقافة أو التفكير والتأمل . وتفرض الفتاة على الشيخ أن يتزوجها علنًا أمام الناس جميعًا ، فيعجز الشيخ عن التحكم فى نفسه والسيطرة ، ويتزوج الفتاة الصغيرة الجميلة ويقضى معها شهرًا واحدًا ثم يموت .

هل أزمة الحرب هى التى غيرت الشيخ من إنسان عاقل متزن إلى عاشق ولهان لا يرى ما بينه وبين حبيبته من فوارق خطيرة فى العمر ومستوى التفكير والثقافة ؟ هل الشعور بخطر الموت القادم مع دبيب أقدام الجيوش الألمانية

الغازية هو السبب فى ذلك التحول العجيب الذى أفضى بالشيخ الولهان إلى الموت ؟

كل ذلك ممكن ولكن المعنى الأساسى الذى يرفرف على أجواء القصة الواقعية البعيدة عن الخيال هو أن الإنسان وخاصة فى أثناء الأزمات يتعرض لما يمكن أن نسميه باسم (اللحظة الحرجة) وهى لحظة تحاصر صاحبها وتدفعه دفعًا شديدًا إلى (الإنقلاب) على نفسه وتغييرها بصورة مفاجئة وغير قائمة على الحكمة والعقل وتأتى هذه اللحظة بسبب خوف كبير من شئ يطارد الإنسان ، أو بسبب أغراء قوى يجر الإنسان جرًا إلى مغامرة كبيرة قد تقضى على حياته . هذه (اللحظة الحرجة) بسبب الخوف أو الإغراء ، تحتاج من الإنسان إلى استدعاء قوته الروحية والعقلية والأخلاقية حتى يفلت منها وينجو من آثارها . وبدون ذلك فإن هذه اللحظة الحرجة فى حياة البشر لابد أن تتحول إلى عملية تدمير للإنسان ومع ذلك كله فلابد أن نعترف أن الإنسان يحتفظ فى داخله بجانب من الأسرار والألغاز تعمل عملها فى اللحظة الحرجة ، وتشل الإرادة وتعمى العيون ، وعندما تقع المحنة الناتجة عن تلك اللحظة فلا مجال للنصيحة أو التحذير والتنبيه إلى سوء العاقبة) .

على أن العقول الصافية ، والنفوس الراقية ، والأخلاق الحقيقية التى لا افتعال فيها ولا تصنع ، تستطيع كلها أن تنجو بسفينة الإنسان من التحطم أمام أى (لحظة حرجة) تعترض حياته وتجره إلى المغامرة العمياء ، والاندفاع إلى دوامة عنيفة ليس فيها إلا الغرق .

ويبقى الإنسان مهما تقدمت علوم البحث فى شأنه ، كائنًا عجيبًا مجهولاً يتعرض للمفاجآت الكثيرة التى تنبع من نفسه قبل أن تأتيه من الخارج .

والإنسان بهذا المعنى هو أكثر كائنات الله تعرضًا للمخاطر والأزمات والمحن، من داخله وخارجه معًا .. وكان الله فى عون الإنسان .

بين عبد الناصر وفدوى طوقان

فى يوم الجمعة ١٢ ديسمبر سنة ٢٠٠٣ توفيت الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان عن ٨٦ عامًا حيث إنها من مواليد سنة ١٩١٧ فى مدينة نابلس بالضفة الغربية ، وفى نفس هذه المدينة التاريخية ماتت فدوى ، وأصبحت الشاعرة الكبيرة جزءا من مدينتها التى كانت تعشقها ، وكانت تعتبر انتماءها إليها انتماء إلى فلسطين كلها .

وفدوى طوقان شاعرة نادرة وأعتقد أنها أكبر شاعرة عربية فى القرن العشرين، فقد كانت مخلصة للشعر إخلاصًا غير محدود ، وظلت تعبر عن آلامها الشخصية وآلام وطنها بصورة منتظمة ودون توقف طيلة ما يقرب من سبعين سنة متواصلة ، وكانت صاحب موهبة فنية واضحة ولديها لغة شعرية شفافة رقيقة عذبة وهذا هو ما يفسر لماذا أعتبرها أهم شاعرة عربية فى القرن العشرين؟! ولا استثنى من ذلك زميلتها الشاعرة العراقية الرائدة الكبيرة نازك الملائكة ، لأن نازك توقفت عن كتابة الشعر منذ سنوات بعيدة تقترب من ربع قرن ، كما أن نازك معروفة بأنها شاعرة تستخدم عقلها .. كثيرًا فى قصائدها.. مما يجعل أفكارها أعلى من عواطفها ، ونازك تسيطر على مشاعرها الوجدانية وتراقبها كثيرًا ، فتخاف من أن تفصح أو تبوح ، وتفضل الرموز والإشارات الذهنية . أما فدوى طوقان فهى شاعرة الوجدان الحر والعاطفة التى لا تحب القيود ، وكانت فدوى دائمًا مستعدة لتحمل الآلام من أجل أن تعبر بوضوح فنى وصدق وجدانى عن كل تجاربها ومشاعرها الحقيقية ، رغم أن هذا النوع من الصراحة الوجدانية جعل من فدوى (ملطشة) لكل من أراد أن يسئ إليها ، وكثيرًا ما تعرضت للهجوم عليها واللوم لها لأنها كانت إذا أحست بعاطفة فى قلبها كتبت عنها بصراحة ، ومعنى هذه الصراحة هو أنها تحب . وعندما تعلن المرأة عن حبها فى قصائدها ، وبخاصة فى جيل فدوى المحافظ القديم القاسى على المرأة .. فأقل ما يقال عن ذلك أنه فضيحة !

فدوى تعبت وتألمت فى حياتها الشخصية المليئة بالصدمات والأحزان ..

وفى حياتها العامة كمواطنة فلسطينية عاشت المأساة منذ بدايتها مع سنة ميلادها وهى سنة ١٩١٧ كما أشرت ، ففى هذه السنة صدر وعد (بلفور) الإنجليزى بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ولم يكن لليهود فى ذلك الوقت أى وجود فى فلسطين إلا فى حدود أقلية صغيرة جدًا لا يحس بها أحد. وكان وعد (بلفور) هو أول المأساة .

وقد ماتت فدوى عام ٢٠٠٣ وهو عام خريطة الطريق التى لم تقدم للفلسطينيين شبرا من أرضهم ولم تحفظ عليهم قطرة من دمائهم وعبرت فدوى طوقان عن المأساة التى عاشتها تعبيرًا صادقًا يصور جميع مراحلها ابتداء من (الوعد) إلى (الخريطة) وكان تصويرها للمأساة يفيض بالصدق والجمال والعاطفة المتألمة ، فقصائد فدوى هى (تاريخ شعرى كامل) لفلسطين . ومن هنا أقول : إن فدوى طوقان كانت أكبر وأهم شاعرة عربية فى القرن العشرين ، مع الاحتفاظ بكل الإجلال والإعجاب والتقدير لزميلتها الشاعرة نازك الملائكة.

وقد أثير حول فدوى طوقان كثير من التساؤلات الشخصية والأدبية والسياسية، وذلك لأن فدوى رغم أنها كانت تذوب خجلاً فى التعامل مع الحياة والناس، إلا أنها كانت تستجمع شجاعتها الروحية ولا تتردد فى خوض الأحداث العامة والتجارب الشائكة كلما وجدت ضرورة لذلك .

ومن أهم التساؤلات التى أثيرت حول فدوى طوقان تساؤل عن لقائها بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر . وقد قال الذين لا يحبون فدوى ولا يحبون عبد الناصر أيضًا إن فدوى حملت إلى عبد الناصر رسالة من وزير الدفاع الإسرائيلى موشى ديان ، أى أن فدوى – بلغة السياسة – كانت وسيطًا بين إسرائيل وعبد الناصر ، وأن عبد الناصر كان يتفاوض سرًا مع اليهود عن طريق فدوى طوقان .

وهذا الكلام ليس فيه من الصحة إلا شئ واحد هو أن فدوى التقت فعلاً بعبد الناصر ، وسجلت تفاصيل هذا اللقاء فى كتابها الساحر الجميل الذى يحمل عنوان (الرحلة الأصعب) وهو الجزء الثانى من سيرتها الذاتية الصادر سنة ١٩٩٣ .

وقد يقول البعض ما الذى يضمن لنا صحة رواية فدوى طوقان لهـذا اللقاء ؟ وإجابتى عن هذا السؤال هو أننى من الذين يصدقون فدوى طوقـان فـى كـل مـا تكتب أو تقول ، فقد قرأت قصائدها فأحسست أن كل كلمة فيها تقطر صدقًا ، ولا ينطبق على شعرها ذلك القول الشائع من أن (أعذب الشعر أكذبه) فقد كـان أعذب الشعر عند فدوى هو الشعر الصادق . وقد عرفت فدوى شخصيًا فوجدت فيها صدقًا متجسدًا فى شكل إنسانة رقيقة لا تمتلك أى قدرة على الكـذب فـى نظرتها أو ابتسامتها أو دمعتها أو تسليم يدها على أى يد أخرى .

فدوى إنسانة صادقة ، وليس عندى دليل على صدقها إلا قلبـى فقد كـانت فدوى وأدبها يشعان بالصدق العظيم . ومن يطالبنى بالدليل علـى صدق فـدوى فليدخل إلى قلبى ، فليس عندى دليل سـواه .. ومـن يرفـض مثـل هـذا الدليـل فأمرى معه لله ولا حيلة لى بعد ذلك .

ماذا قالت فدوى عن لقائها بعبد الناصر ؟

لقد نفت تمامًا أنها حملت إليه رسالة من موشى ديان ، أو رسـالة مـن تـل أبيب ، وكان لهذا اللقاء قصة خاصة بـه تعـود إلى إعجـاب راسـخ وقديـم عنـد فدوى بعبد الناصر حيث كانت تكرر القول بأن (الله فى السماء وعبد الناصر فى الأرض) وفدوى من ناحية أخرى شاعرة معروفـة علـى نطـاق واسـع فـى العـالم العربى ، فقد كانت (نجمة أدبية) بكل معنى الكلمة ، وهى إلى جانب ذلك من أسرة (طوقان) التى تعتبر من أقدم وأعرق العائلات فى فلسطين ومدينـة نـابلس على وجه الخصوص ، وهى عائلة مشهورة بالأدب والثقافة والسياسة والوطنيـة والتجارة وصناعة الصابون ، حيث كانوا يمارسون هـذه الصناعـة بنجـاح كبـير جيلاً بعد جيل ، مما جعل لصابون نابلس بلد عائلة طوقان شهرة واسـعة فـى العالم العربى كله .

ومنطق الأمور يقول إن فدوى كانت تحب لقـاء عبـد النـاصر والتعـرف علـى نظرته للأمور بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وأن عبد الناصر من جانبه لم يكن يمانع فـى مثل هذا اللقاء تقديرًا لشـخصيتها وقيمتـها الأدبيـة ورغبـة منـه فـى أن يسمع

شهادة حية عن أحوال الضفة الغربية بعد أن ينقل عن طريق فدوى كلمة إلى أهل فلسطين وليس إلى إسرائيل .

كانت فدوى طوقان بعد هزيمة ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل للضفة الغربية قد التقت بوزير الدفاع الإسرائيلى آنذاك موشى ديان ، وقد تم هذا اللقاء بناء على طلب ديان أو بالأحرى بناء على أمر منه فقد كان ديان هو الحاكم العسكرى ، أى موشى ديان . وقصة لقاء فدوى بموشى ديان قصة أخرى لها حديث آخر ، ولكننى أشير إليها هذه الإشارة السريعة لما أثير حولها من ارتباط لها بلقاء فدوى مع عبد الناصر .

ونعود إلى الموضوع الأساسى وهو لقاء فدوى مع عبد الناصر كما ترويه فدوى نفسها حيث تقول فى كتابها (الرحلة الأصعب) صفحة ٤٧ وما بعدها : (..كان من عادتى قضاء بضعة أسابيع فى القاهرة فى فصل الشتاء بين العام والآخر، وكلما تيسرت لى الظروف، لقد ظلت هناك علاقة نفسية قائمة بين القاهرة وبينى، فمن خلال صحافة مصر الأدبية ، وبالذات من خلال مجلة (الرسالة) لصاحبها المرحوم أحمد حسن الزيات انتشرت قصائدى وعرفنى العالم العربى ، مما كان عاملاً مؤثرًا شجعنى على الثبات والاستمرارية فى مسيرتى الشعرية ، ولسوف أظل مدينة لمصر العظيمة حافظة لها جميلاً لا ينسى).

(فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ توجهت إلى مصر فى زيارة استجمام عادية دون أن يجرى فى بالى ولا حسابى السعى للاجتماع بعبد الناصر . كنت قد بدأت بعد الاحتلال الإسرائيلى (سنة ١٩٦٧) فى تسريب قصائدى إلى مجلة الآداب فى بيروت ، وإلى الشاعر فاروق شوشة فى مصر الذى راح يذيعها من خلال برنامجه المسائى الشهير (لغتنا الجميلة) ، كما كانت السيدة سامية صادق كثيرًا ما تنشد قصائدى فى برنامجها (الأسرة البيضاء) . وهكذا تملكتنى وأنا فى القاهرة رغبة فى انتهاز الفرصة للقيام بالتعرف الشخصى عليها وعلى الشاعر العزيز فاروق شوشة الذى أحببت شعره المتميز بالرهافة والصدق والجمال . وفى دار الإذاعة المصرية التقينا ، كما ضمت الجلسة بعض المذيعين

والشاعر المرحوم صلاح عبد الصبور .

(وحدث أثناء زيارتى هذه للقاهرة أن دعانى الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى حفلة عشاء فى بيته ، وفى هذه الليلة سألنى المدعون معى عن قصة لقائى مع موشى ديان ، فسردتها لهم بحذافيرها ، ولم يكد يمضى يومان على حفلة العشاء فى بيت الأستاذ بهاء حتى فوجئت بالسيدة جيهان السادات ترحب بى فى (اتصال تليفونى) عبر الهاتف ، إذ علمت بوجودى فى القاهرة من صديقتها السيدة (ديزى) زوجة الأستاذ أحمد بهاء الدين ، وقد دعتنى إلى تناول فنجان شاى برفقة السيدة (ديزى) ثم أردفت : وهاهو أنور يضم صوته إلى صوتى ويقول لى : لا تكونى أنانية . أنا لذلك أحب أن أراها . فشكرت للسيدة جيهان ترحيبها بى وعبرت لها عن سعادتى بتلبية الدعوة . وفى اليوم التالى مضيت عصرًا برفقة السيدة (ديزى) إلى بيت أنور السادات ، وحول فنجان الشاى دار الحديث عن أوضاعنا فى الضفة الغربية ، وسألتنى السيدة جيهان عما إذا كان قد سبق لى لقاء الرئيس عبد الناصر فأجبتها بالنفى . قالت: هل تحبين اللقاء به . قلت :هذا حلم حياتى منذ حرب السويس وما سبقها من تأميم للقناة بالرغم من عدم محاولتى تحقيق هذا الحلم ، وذلك من منطلق إدراكى أن زعيمًا مشغولاً مثله بقضايا كبيرة ومصيرية ليس فى إمكانه مقابلة كل من رغب فى لقائه . هنا قال أنور السادات : سأقوم بترتيب موعد لك مع الرئيس . فشكرته من أعماقى . ومرت أيام قليلة اتصلت بى بعدها السيدة جيهان السادات لتقول لى عبر الهاتف إن الرئيس عبد الناصر فى انتظارى فى بيته بمنشية البكرى فى الساعة العاشرة من صباح الجمعة وكان ذلك اليوم المحدد هو أول أيام شهر رمضان ، وهو يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وفى بيته البسيط المتواضع ، وفى غرفة الاستقبال الخالية من أى مظهر من مظاهر الفخفخة جلست انتظر فى شوق وتطلع دقيقتين ، وأقبل الراحل العظيم بخطواته الواثقة وإطلالته المهيبة الجميلة ، فنهضت مسرعة إليه ، وحين مددت يدى للمصافحة أخذ راحتى بين راحتيه مبتسمًا ، مرحبًا ، جلس قريبا منى، وبدأ الحديث).

ما قاله عبد الناصر للشاعرة

لم تكن الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣) تسعى إلى لقاء الزعيم الراحل جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٨ لتحمل إليه رسالة من (موشى ديان) وزير دفاع إسرائيل والمهندس الأكبر لحرب ١٩٦٧ . وقد أشيعت قصة هذه الرسالة بقصد الإساءة إلى عبد الناصر وفدوى طوقان معًا . ومن المؤكد والمنطقى أن عبد الناصر لو علم أن فدوى جاءت إلى مصر ومعها رسالة من موشى ديان لكان من الطبيعى جدًا أن يرفض استقبالها أو الاستماع إليها ، فعبد الناصر كانت لديه وسائل كثيرة أهم وأسرع وأكثر تأثيرًا كان يمكنه استخدامها لو كانت لديه أدنى نية أو إرادة للاتصال - سرًا أو علنًا - بالإسرائيليين . ولا شك أن الأمريكان والفرنسيين وربما الروس أيضًا كانوا جميعًا على استعداد تام للقيام بعمل هذه الوساطة لو أن عبد الناصر طلب شيئًا من ذلك وأظهر رغبة فيه أو ميلاً إليه . والذين أرادوا أن يهاجموا عبد الناصر من خلال قصة رسالة (موشى ديان) إليه كان هدفهم اتهامه بأنه كان يجرى اتصالات سرية مع الإسرائيليين فى الوقت الذى كان يقول فيه إنه يستعد لخوض معركة جديدة لتحرير الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ . وبالطبع كانت هذه تهمة باطلة ، فعلى كثرة الذين هاجموا عبد الناصر بعد رحيله لم يستطع أحد منهم أن يثبت وجود أى اتصالات سرية بينه وبين الإسرائيليين . يبقى الوجه الآخر لهذه القصة الملفقة ، وهى قصة رسالة موشى ديان إلى عبد الناصر ، وأقصد به الوجه الذى أراد به البعض الإساءة إلى فدوى طوقان واتهامها بأنها كانت تمثل الإسرائيليين أكثر مما كانت تمثل الفلسطينيين . وفيما أذكر - وأرجو ألا أكون مخطئًا - فقد كان الشاعر الفلسطينى الكبير الراحل "معين بسيسو" أحد الذين أطلقوا هذا الاتهام ، وكانت فدوى تشكو من (معين) شكوى مريرة، ولها قصيدة تعبر فيها عن آلام نفسها من هجوم (معين) عليها. إن شخصية فدوى طوقان الإنسانية هى دليل قوى على سقوط مثل هذه الاتهامات ضدها . فالمعروف عن فدوى أنها لم تكن مغرورة، ولم يحدث أنها أعطت لنفسها حجمًا أكبر من حجمها ، أو أنها

كانت تحب فى أى وقت من الأوقات أن تلعب دورًا سياسيًا أبعد من دورها كشاعرة تعبر عن هموم شعبها . فقد كان هذا هو دورها الذى اختارته وأخلصت له على مدى حياتها كلها حيث وضعت موهبتها الفنية العالية فى خدمة وطنها، وعبرت بصدق وأمانة عما يعانيه أهلها ، وعما تعانيه هى نفسها معهم. ولاشك فى أن فدوى كانت تعانى مرتين وليس مرة واحدة . الأولى كمواطنة فلسطينية تتعرض لما يتعرض له غيرها من سوء معاملة الاحتلال الإسرائيلى وعنصريته وانعدام إنسانيته ، والمرة الثانية هى معاناتها كشاعرة تنقل تجارب الحياة إلى قصائدها ، وربما كانت المعاناة الثانية ، أى معاناة التعبير الشعرى الفنى أكثر مرارة وقسوة .

فدوى طوقان شاعرة وطنية إنسانية موهوبة ، ولم تكن أبدًا شخصية فيها إدعاء أو زهو أو إحساس زائد بحجمها ، بحيث يمكن أنت تنسب لنفسها دور (الوسيط) بين عبد الناصر وإسرائيل ، بل لعل مشكلة فدوى فى أنه كان لديها الكثير من الخجل والحياء والميل الشديد للبعد عن الأضواء . لقد كانت امرأة شديدة التواضع إلى حد كان يقودها أحيانًا إلى عدم الثقة بالنفس والتردد فى الإقدام على أى خطوة عملية من جانبها تجاه أى شخص أو موقف . ولحسن الحظ فإن هذا الجانب الشخصى لم ينعكس على أدب فدوى فقد كانت تعبر عن نفسها فى شعرها بجرأة وشجاعة ، ولا تتردد فى تصوير أى معنى تحس به أو أى موقف تؤمن بصوابه .

وإذا عدنا إلى القصة الأصلية وهى لقاء عبد الناصر بفدوى ، واعتمدنا على أبسط أساليب التحليل السياسى ،فسوف نجد أن عبد الناصر عندما التقت به فدوى كان لديه تركيز شديد على إعادة بناء القوة العسكرية ، وذلك من أجل هدف حدده عبد الناصر بتعبيراته الخاصة هو (إزالة آثار العدوان) بناء على مبدأ نادى به عبد الناصر وحدده بنفسه فى قوله الشهير إن (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) وليس من المنطق المقبول والمعقول أن يقال إن عبد الناصر سنة ١٩٦٨ كان يفكر خارج هذه الحدود ، ولا أظن أنه كان مستعدًا لقبول أى

تحرك فى اتجاه مختلف عن هذا الاتجاه الذى حدده لبلاده ولنفسه فى تلك الأزمة العصيبة .

من هنا فإنى أعتقد أن ما قيل عن أن لقاء عبد الناصر بفدوى طوقان سنة ١٩٦٨ كان هدفه نقل رسالة سرية إلى عبد الناصر من موشى ديان هو قول غير صحيح وغير منطقى . وقد أشرت فى الأسبوع الماضى إلى ما قالته فدوى عن الطريقة التى تم بها ترتيب لقائها مع عبد الناصر ، واليوم نتوقف عند حديث فدوى عما سمعته من الزعيم الراحل فماذا قال عبد الناصر للشاعرة ؟

تم اللقاء فى منزل عبد الناصر يوم الجمعة أول رمضان الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ ، وتقول فدوى فى كتابها (الرحلة الأصعب) صفحة ٥٠ وما بعدها :

(جلس عبد الناصر قريبًا منى فى غرفة الاستقبال ببيته فى منشية البكرى، وبدأ الحديث بالسؤال عن أحوالنا فى الوطن – أى فى الضفة الغربية – فرسمت له صورة شاملة عن تلك الأحوال ، كما حدثته عن تشبث الجماهير به – أى بالرئيس عبد الناصر – وهتافهم فى المظاهرات بترديد اسمه غير خائفين ولا هيابين من الجيش الإسرائيلى الشرس . وهنا ذكر لى عبد الناصر أنه ما كان ليقبل بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لولا حرصه على إنقاذنا – أى الفلسطينيين – من قبضة الاحتلال الصهيونى . كما ذكر عبد الناصر بعد ذلك أن (دين راسك) وزير خارجية أمريكا حينذاك كان قد حثه على الوصول إلى تسوية مع إسرائيل مقابل الانسحاب من شبه جزيرة سيناء ، ولكنه رفض الموافقة رفضًا قاطعًا لخلو ذلك العرض من أى إشارة إلى الضفة الغربية . واستطرد عبد الناصر رحمه الله قائلاً : إن سيناء بكل ما فيها من نفط وثروات معدنية لا تهمنى بقدر اهتمامى بالضفة وسكانها وحين مر بى الملك حسين وهو فى طريقه إلى أمريكا لأول مرة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ قلت له أن يرضى بأى اتفاق مع المسئولين هناك إذا كان فى ذلك ضمان استرجاع الضفة الغربية ولكن أمريكا رفضت التوصل مع الملك حسين إلى أى اتفاق).

ثم تقول فدوى بعد ذلك : (انتقل عبد الناصر إلى الحديث عن همومه الداخلية ، كمشكلة اللاجئين من سكان القنال والأزمة الاقتصادية ، وقال: لقد مرضت بعد الهزيمة ، وقضيت أحد عشر يومًا لم يغمض لى فيها جفن ولم أتناول شيئًا من الطعام أو الشراب ، مضيت إلى الاتحاد السوفييتى للمعالجة ، وطلبت من الروس سلاحًا لإعادة بناء الجيش ، ولكنهم رفضوا طلبى ، وتحت إلحاح منى وافقوا ،وقالوا : نأمل فى ألا يذهب هذا السلاح مرة أخرى إلى أيدى الإسرائيليين – كما حدث سنة ١٩٦٧ – وحين طلبت منهم خبراء عسكريين ، تشدد الروس فى الرفض ، لكنهم استجابوا فى النهاية . والجيش المصرى جاهز الآن ومكتمل – أواخر ١٩٦٨ – إننى انتظر فقط اللحظة المناسبة لضرب إسرائيل . وإسرائيل لديها مشكلات كما لدينا نحن . عندما كنا أطفالاً كنا نلعب لعبة العض على الأصابع ، فيعض الواحد منا على إصبع الثانى والذى يقول (آخ) قبل صاحبه يكون هو المغلوب ، ولو لم يقلها وانتظر لحظة أخرى فإن صاحبه سيقولها حتمًا . إن الإسرائيليين يعانون من متاعب ليست أقل من متاعبنا والمسألة تحتاج فقط إلى بعض الصبر).

وأخيرًا تقول فدوى : (لقد تحدث عبد الناصر أكثر مما تحدثت بكثير . إنه متحدث متدفق ، بارع وصادق ، يشدك إليه ، ويمتلك مشاعرك بما تلمسه من صدقه مع نفسه ، أما موضوع لقائى مع موشى ديان بعد احتلال الإسرائيليين للضفة ومنها مدينة نابلس ، فلا هو تطرق إلى هذا اللقاء ولا أنا ، فما كان فى نيتى أن أحدثه عن هذا اللقاء إلا إذا سألنى عن الموضوع . وكنت على يقين من علمه بأمر هذا اللقاء ، والشئ الوحيد الذى نقلته إليه هو قول موشى ديان لى: (من حقكم أن تكونوا فخورين بعبد الناصر) . وقد استمر اللقاء ساعة وأربعين دقيقة ولم يحضر ذلك اللقاء أى شخص آخر ، وحين نهض كلانا فى نهاية اللقاء قلت له وأنا أصافحه : (ستظل أنت الرمز العظيم ، والأب الحانى للأمة العربية ، أنت كل شئ لنا . وأسأل الله أن يحقق الآمال ويزيح عنا وعنك هذه الغمة). وخرجت من اللقاء مشحونة بالأمل والتفاؤل .

هذه هى رواية فدوى لقصة لقائها مع عبد الناصر ، وليس فى هذه الرواية أى إشارة إلى أنها كانت (وسيطة) أو أنها كانت تنقل رسالة من موشى ديان أو غيره إلى عبد الناصر . ولابد بعد ذلك من التوقف عند ما قاله فدوى على لسان عبد الناصر من أن (سيناء لا تهمه بقدر ما تهمه الضفة وسكانها) ، فأنا أظن أن (صياغة) فدوى لما سمعته من عبد الناصر فى هذه النقطة لم تكن صياغة دقيقة. ولا أتصور أبدًا أن عبد الناصر ، أو أى زعيم وطنى آخر ، يمكن أن يقول: (إن سيناء لا تهمنى .. إلأخ).

والفكرة التى أتصور أن عبد الناصر قد عبر عنها هى أنه كان حريصًا فى سياسته أشد الحرص على الربط بين تحرير سيناء وتحرير الضفة والقدس وغزة، والدليل القوى على أن هذا هو المعنى الذى كان يقصده هو ما ذكرته فدوى نفسها على لسان عبد الناصر من أن (دين راسك) وزير الخارجية الأمريكية عرض عليه أن تنسحب إسرائيل من سيناء إذا ما وافق عبد الناصر على فصل تحرير سيناء عن قضية الأراضى الفلسطينية ، ولم يكن فى سياسة عبد الناصر أى اتجاه إلى فصل تحرير سيناء عن تحرير الأراضى الفلسطينية المحتلة ، وكان عبد الناصر يقول فى خطاباته العلنية بعد حرب ١٩٦٧ : (إن القدس قبل سيناء) وتلك كانت سياسة عبد الناصر الثابتة والمعروفة ، أما عبارة أن (سيناء لا تهمنى .. إلخ) فهى فى صياغتها تلك قد تؤدى إلى التباس كبير . وليس من المعقول أبدًا أن يقول عبد الناصر أو غيره من زعماء مصر : (إن سيناء لا تهمه) مهما كان المقصود من هذه العبارة . وأظن أن فدوى قد صاغت - بحسن نية - فكرة عبد الناصر وحديثه فى هذه النقطة صياغة تحتاج إلى تصويب . أما ما قاله موشى ديان من أن حق العرب أن يفخروا بعبد الناصر فله حديث آخر فى الفصل القادم إن شاء الله .

فدوى طوقان فى بيت (ديان)

تألمت الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣) عندما أطلق البعض حولها إشاعة تقول إنها جاءت إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٩٦٨ مبعوثة من (موشى ديان) وزير دفاع إسرائيل ومعها رسالة منه تحملها إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، وقد تمادى البعض فأخذوا يهمسون بكلمات مسمومة تقول إن هناك علاقة عاطفية نشأت بين (فدوى) و(ديان) بعد احتلال الضفة الغربية سنة ١٩٦٧ ، وكانت فدوى تقيم فى مدينتها (نابلس) فى ذلك الوقت ، ونابلس كما هو معروف هى إحدى أهم مدن الضفة الغربية ، وبعض هذه الاتهامات الموجهة إلى فدوى نشرته صحف عربية مختلفة ، وبعضها الآخر تناقلته الألسن ، والشائعات الشفوية أحيانًا تكون أسرع انتشارًا بين الناس مما تذيعه أو تنشره وسائل الإعلام الأخرى المختلفة .

كانت هذه الاتهامات كلها باطلة ، وكانت فدوى بريئة منها تمامًا ، فلا هى كانت تنقل رسالة من ديان إلى عبد الناصر ، ولا هى قد وقعت فى (غرام ديان) وما كل هذا الكلام سوى نوع من الإثارة عند الذين يحبون لفت الأنظار إليهم بترديد أخبار غريبة وجذابة وملفقة ، وهناك إلى جانب ذلك من يحقدون ويحسدون ويريدون تشويه أى صورة جميلة ، تعبيرًا عما فى نفوسهم من كراهية متأصلة للحياة والناس ، وقد كانت فدوى هدفًا سهلاً لهؤلاء ، لأنها شاعرة لامعة وشخصية عامة محبوبة ، وهى أيضًا امرأة وحيدة لا زوج لها ولا أبناء ، وسمعتها الأخلاقية عالية ، ومجموع هذه الصفات يجعل لها مكانة تغرى البعض بالحقد عليها والحسد لها والتربص بها ، خاصة أنها لا تملك من السلطة أو النفوذ ما يخيف أحدًا أو يحميها ممن يريدون الإساءة إليها ، فكل ما كانت تعتمد عليه فدوى هو مكانتها كشاعرة وسمعتها الطيبة كإنسانة وامرأة بعيدة كل البعد عن العبث والمغامرات ، تم انتسابها إلى عائلة من اكبر عائلات فلسطين القديمة العريقة .

والحقيقة أن فدوى طوقان التقت بموشى ديان بعد احتلال الضفة الغربية ومن بينها مدينتها نابلس سنة ١٩٦٧ ، ولكن القصة الواقعية لهذا اللقاء ليس فيها شئ يدين فدوى طوقان من قريب أو بعيد ، وهى تروى هذه القصة بأمانة وصدق فى كتابها الجميل (الرحلة الأصعب) وهو الجزء الثانى من مذكراتها الرائعة ، والتى عبرت فيها فدوى عن آلامها كفلسطينية ، وآلامها الأخرى كامرأة عربية ولدت وعاشت فى بيئة محافظة تقسو على المرأة وتصادر حريتها خاصة إذا ما كان من سوء حظها أن تكون شاعرة موهوبة ، فالشعر عند المرأة معناه أن تصور مشاعرها وعواطفها وتضعها بين أيدى الناس ، وهذا عند المحافظين هو نوع من الفضيحة ، وقد كان بعض هؤلاء المحافظين يرون أن المرأة لا يصح أن تتعلم القراءة والكتابة حتى لا تكون لديها فرصة لكتابة رسائل عاطفية إلى أحد ، أى أن مجرد تعلم المرأة للقراءة والكتابة كان خطرًا على الأخلاق والتقاليد والأمن الاجتماعى فى تلك البيئة المحافظة القاسية التى ولدت فيها فدوى طوقان سنة ١٩١٧ .

بنفس الصدق والأمانة فى روايتها لقصة حياتها ، كتبت فدوى تفاصيل لقائها بموشى ديان فى أكتوبر سنة ١٩٦٨ ، والقراءة الدقيقة لهذه القصة كما روتها فدوى تؤكد أنها بريئة من كل ما حاول البعض الصاقة بها من الاتهامات ، فهى لم تكن الساعية إلى هذا اللقاء أو الراغبة فيه ، كما أنها لم تقل فى اللقاء إلا ما يمكن أن يقوله كل عربى حر مخلص لبلاده وقضاياه الوطنية . فلا مجال للاتهام أو اللوم أو التشكيك فى هذه القصة أو تحويلها بسوء النية إلى قصة غرامية !

تقول فدوى فى كتابها (الرحلة الأصعب صفحة ٣٩ وما بعدها) : (ذات يوم من أيام أكتوبر سنة ١٩٦٨ جاءنى المرحوم حمدى كنعان رئيس بلدية نابلس فى ذلك الوقت ، ونقل إلى رغبة وزير الحربية الإسرائيلى موشى ديان فى إجراء لقاء معى ، وقد تم فى اليوم التالى تحديد موعد لهذا اللقاء مع مستشار الوزير

(ديفيد فرحى) وفى اليوم المحدد للاجتماع انطلقت بنا بعد الظهيرة سيارة رئيس بلدية نابلس يرافقنا ابن عمى (قدرى حافظ طوقان) فلفت انتباهى اتجاه السيارة غربًا ، وكان توقعى أن تتجه شرقًا حيث الطريق إلى القدس . سألت : إلى أين نحن ذاهبون ؟ قال رئيس البلدية : إلى تل أبيب ، ولم أشك لحظة واحدة فى أن اللقاء سيكون فى إحدى الدوائر الرسمية هناك ، ساعة وبعض الساعة أخذت السيارة تخترق بعض شوارع تل أبيب لنفضى إلى إحدى الضواحى ولنقف أمام إحدى البيوت هناك، وتفاجئني رؤية (ديان) واقفًا أمام الباب وقد بسط راحتيه مرحبًا بالقادمين ، انتفضت أعماقى استياء واستغرابًا فى بيته إذن ؟ يا للتناقض ، ويا للمفارقة ، أنا التى أمثل بقصائدى الرفض ومقاومة الاحتلال ، أمضى إلى ديان فى بيته ، وكأننى أقوم بزيارة خاصة لوزير الحربية الإسرائيلية ممثل الاحتلال والعدوان ؟! ما العمل؟ وكيف اتصرف ؟

هنا تعترف بنقطة ضعف فى شخصيتها وتسجل ذلك بما هو معهود منها ومعروف عنها من صدق وأمانة فتقول : (مصيبتى الكبرى هى هذه الطبيعة الخجول ، وهذا العزوف الغريزى عن اتخاذ المواقف التى قد توهم الآخرين، ممن لا يعرفوننى على حقيقتى ، بأنها مواقف استعراضية بهدف لفت الأنظار، هل أعاند وأصر على رفض الدخول إلى منزل ديان ؟ أو ليس فى هذا ما يحرج رئيس بلدية نابلس ويؤذيه ؟

أشهد هنا أننى كثيرًا ما أجدنى قد ورطت نفسى فيما لا أحب من الأمور، لكى أجنب الآخرين ما قد أسببه لهم من إحراج).

ثم تواصل فدوى بعد ذلك رواية ما حدث بعد أن دخلت بيت (ديان) ومعها رئيس بلدية نابلس وابن عمها قدرى فتقول :

(تقدمنا (ديان) إلى غرفة الجلوس الغاصة رفوفها بالقطع الأثرية ، هناك عرفنى على اثنين من مستشاريه كانا جالسين فى الغرفة هما: دافيد فرحى ودافيد زخريا ، ولم نكد نتخذ مقاعدنا حتى دخلت زوجته وابنته (يائيل)

الكاتبة الروائية لتسلما علينا فى بشاشة وترحيب ، ولم يلبث (ديان) أن بدأ الحديث قائلاً – قبل أن يجلس : أنت تكرهيننا ، لقد قرأت بعض قصائدك مترجمة إلى العبيرية ، إنها تفيض بالكلمات العاصفة ومشاعر الكراهية ، قال ذلك ثم جلس قريبًا منى .

قلت : لست أكرهكم كيهود ، لكنى أكرهكم كمحتلين . إن لليهود حقًا فى حياة حرة كريمة بعد الذى عانوه فى أوروبا ، ولكن هناك حقيقة أخرى وهى أن البلاد العربية سواء منها دمشق أو بغداد أو غيرهما ظلت هى المكان الوحيد الذى أمن اليهود فيه على حياتهم طيلة قرون الاضطهاد والذبح والطرد مما مارسته دول أوروبا عليهم ، نعم لقد عانى اليهود كثيراً ولكن لماذا نكون نحن الفلسطينيين من يدفع الثمن ؟ لقد ذهبت بعد ١٩٦٧ إلى حيفا ويافا وعكا فهزنى ما رأيت من بيوت عربية مهجورة ، ومن ركام الدور المهدمة التى لا تزال أطلالها قائمة منذ ١٩٤٨ ، كما هزنى ما رأيت من سوء حال العرب هناك، وسوء أحوالهم أيضًا فى اللد والرملة والقرى التى زرتها ، فلم أملك إلا التعبير عن مشاعرى تجاه وطنى وتجاه شعبى ، هل تلومنى على ذلك ؟ قال: كلا لست ألومك ، بل أنا أقدرك ، وأتمنى لو أن لدينا شعراء وطنيين مثلك، لكن لو أنكم تنسحبون من أراضينا المحتلة فإنكم ستمهدون بذلك سبيلاً إلى الحل : قال : كيف ننسحب وهناك لاءات جمال عبد الناصر فى الخرطوم: لا صلح ، لا اعترف ، لا مفاوضات؟

قلت : لقد ألغيت هذه اللاءات تلقائيًا بعد أن قبل عبد الناصر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ قال ديان : لقد انسحبنا عام ١٩٥٦ من سيناء ومن غزة ، وبقيت المشاكل قائمة ، لن يجلس عبد الناصر معنا على مائدة مفاوضات .

وعليكم أن تكونوا فخورين به . أننى على يقين من أنه لا يوجد زعيم أو رئيس دولة عربية باستطاعته التأثير على عبد الناصر بهذا الصدد ، ونحن باستطاعتنا التحدث مع بعض الزعماء لو أن فى مقدورهم التأثير عليه .

الفلسطينيون وحدهم هم القادرون على أن يؤثروا على عبد الناصر . هنا التفت أنا (أى فدوى) إلى رئيس بلدية نابلس وإلى ابن عمى قدرى متسائلة : ومن يفعل ذلك ؟ قال ديان : افعلى أنت ذلك . فقال المرحوم حمدى كنعان رئيس البلدية بلهجة حادة : ما الذى سيقوله الفلسطينيون لعبد الناصر بينما أنتم ترفضون الانسحاب من القدس وسيناء والجولان ؟ فأجابه ديان قائلاً: أننى الابن الروحى لدافيد بن جوريون : وأتبنى أفكاره .

ولقد صرح بن جوريون قبل أسبوع فى الكنيست ، وفى مؤتمر صحفى قائلاً: أنه لا يهمه حجم إسرائيل لو ظل صغيرًا ، ولكن كل ما يريده هو حدود آمنة ومعترف بها . عندئذ سألت ديان : وماذا عن اللاجئين؟ قال فى حال عودتهم لن يبقى شئ اسمه إسرائيل، قلت حتى لو وافقتم على عودتهم فلن يرغبوا جميعًا فى العودة قال ديان : نحن نصر على رفض إعادة أى عدد منهم مهما قل ، وعلى فرض الموافقة فسوف نكون نحن من يختار أسماء العائدين .

قبل انتهاء الاجتماع الذى استمر من الثالثة حتى الخامسة مساء سألنى (ديان) هل هناك شئ استطيع أن أفعله ؟ وكان لفدوى طوقان جواب على هذا السؤال ، وقد اشتركت فى الحديث ابنة (ديان) وهى (يائيل) وذلك مانرجو أن نستكمل الحديث عنه فى الفصل القادم إن شاء الله .

وفى كل ما سبق لا يوجد ، فى أى ميزان دقيق وعادل وغير شكلى ، ما يمكن أن يأخذه أحد على فودى طوقان ، فلا هى كانت – والعياذ بالله – على علاقة عاطفية معه ، فكل ذلك هو لون من الاتهامات الباطلة والافتراءات الكاذبة عند بعض الذين لا يحسنون سوى الرغبة فى إيذاء الناس وتشويه صورة الأبرياء.

شاعرة ليس لها فى السياسة !

لا يزال فى حكاية لقاء الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣) مع موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى بعض التفاصيل . وقد التقت فدوى بالوزير الإسرائيلى مرتين ، وفى آخر اللقاء الأول الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق قال (ديان) لفدوى : هل هناك شئ أستطيع أن أفعله ؟ .. وهنا تقول فدوى فى مذكراتها : (لقد رجوته إعادة السيدة زليخة الشهابى التى أبعدها الحكم العسكرى الإسرائيلى من القدس إلى عمان فشقيقها الكبير مريض وليس له من يرعى شئونه سواها) .

هنا قال (ديان) : (أنا لا علاقة لى بالقدس، نعم إن الشعب الإسرائيلى يحبنى ، غير أننى لا أعرف إذا كان لى قوة تأثير على المسئولين فى القدس، لكنى سأحاول المساعدة لإعادتها من عمان إلى بلدها) وقد أعيدت فعلاً إلى القدس بعد نحو عشرة أيام ، وقد حدثته أيضًا عن السجين وليم نصار المحكوم عليه بالسجن المؤبد والذى يحرمون أمه من زيارته فى السجون ،فقال (ديان) بلهجة من يسأل نفسه : أم تريد رؤية ابنها فى السجن ، وماذا فى ذلك؟ وهكذا تم السماح لأم وليم نصار بزيارة ابنها .

وحين تحدثت معه عن موضوع السجينات الفلسطينيات مثل (عبلة طه) و(لطيفة الحوارى) وسواهما وأشرت إلى مدى ما يعانينه من تعذيب ومن ممارسات قمعية رهيبة ، نفى ذلك قائلاً : إن هناك أوامر بعدم التعذيب فى السجون الإسرائيلية ، هنا قالت (يائيل) ابنه ديان : (بل هناك تعذيب .. إنهم يضعون الفتيات العربيات مع السجينات اليهوديات (العاهرات) ولهؤلاء (العاهرات) دورهن حيث يمارسن أساليبهن الخاصة فى تعذيب الفتيات السجينات العربيات).

ثم تقول فدوى بعد ذلك : (قبل مغادرتنا بيت ديان فى تل أبيب قدمت لى ابنته (يائيل) روايتها التى تحمل اسم (الموت له ابنان) مع عبارة إهداء منها

لى، تقول فيها : (على أمل تفاهم أفضل .. على الأقل) فأرسلت إليها بالمقابل إحدى مجموعاتى الشعرية لأننى قدرت لها صدقها وصراحتها فى تصديها لأبيها بشأن تعذيب السجينات الفلسطينيات حين أكدت أمام أبيها أن ذلك التعذيب هو حقيقة واقعة).

وبعد انتهاء اللقاء الأول مع ديان شعرت فدوى طوقان بقلق له ما يبرره .. فهذا اللقاء لا يمكن إخفاؤه ، ولابد أن ينتشر خبره على الجانب الفلسطينى والجانب الإسرائيلى معاً ، وإذا كان الصمت فضيلة فى بعض الأحيان ، فالصمت الآن لا يمكن أن يثير إلا الريبة والشكوك ، ولذلك فإن الصمت هنا ليس فضيلة وإنما هو خطأ كبير يساعد على انتشار الإشاعات والأقاويل والتخمينات وهنا تقول فدوى : (فى طريق عودتنا من بيت ديان فى تل أبيب أخبرت ابن عمى قدرى حافظ طوقان ورئيس بلدية نابلس حمدى كنعان اللذين كانا مشاركين معى فى لقاء ديان أننى لا أحب أن يبقى أمر ذلك اللقاء سرًا مخيفًا حتى لا تثار حوله فى المستقبل شائعات وأقاويل ، إذ لابد من انتشار أخبار اللقاء فى آخر الأمر بطريقة أو بأخرى على غفلة منا ، ولابد من توضيح الأمر على حقيقته ، وكما وقع وهكذا تم لى اجتماع فى صبيحة اليوم التالى مع بعض المهتمين بالشئون الوطنية، حدثتهم فيه عن الحوار الذى جرى بين ديان وبينى ، فلم ير أحد منهم بأسًا فيما جرى فقد سبق أن اجتمع ديان بعديد من رجال الضفة الغربية بقصد الحوار وجس النبض من خلال تبادل الأفكار ، وتتبع آراء المهتمين من أهالى الضفة الغربية بالقضية التى نعيشها ، وبالواقع الجديد بعد احتلال ١٩٦٧) .

جاءت فدوى إلى القاهرة بعد لقائها الأول بموشى ديان ، والتقت بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وقد قالت فدوى عن لقائها بعبد الناصر (إنه – أى عبد الناصر – لم يتطرق إلى لقائى مع ديان، ولا أنا تطرقت إليه، وما كان فى نيتى أن أفتح الموضوع إلا إذا سألنى عبد الناصر عنه ، (ولكنه لم يسأل) والشئ

الوحيد الذى نقلته إلى عبد الناصر هو قول ديان : (من حقكم أن تكونوا فخورين بعبد الناصر) وقد استمر لقائي مع عبد الناصر ساعة وأربعين دقيقة ولم يحضر هذا اللقاء أى شخص آخر.

بعد عودة فدوى من القاهرة إلى بلدها نابلس فى الضفة الغربية تم بينها وبين (ديان) لقاء ثان ، وتروى فدوى قصة هذا اللقاء الثانى فى مذكراتها فتقول : (فوجئت ذات يوم بمستشار ديان) ديفيد فرحي يتصل بى وينقل إلى رغبة ديان فى مقابلتى سألته : أين ؟ قال : فى الحادية عشرة صباحًا من نهار الغد والمكان هو فندق (الملك داود) فى القدس ستجديننى فى انتظارك فى مدخل الفندق .. وفى هذا اللقاء قال لى ديان : عرفت عن اجتماعك بعبد الناصر وليس أطالبك بمصارحتى بكل ما دار بينكما من حديث .. تحدثى فقط بما تشائين الحديث عنه وأمسكى عما تشاءين، فأجبته بالحرف الواحد: لم يدم الاجتماع مع عبد الناصر أكثر من عشرين دقيقة . سألنى خلالها عن أحوالنا فى الضفة وأبدى اهتمامًا بأوضاعنا ، على اهتمامه بنا ذكرنى أنه لولا اهتمامه بالضفة الغربية لما كان قد قبل بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، وفى المقابل فأنه رفض وعد (دين راسك) وزير خارجية أمريكا بإعادة سيناء إلى مصر مقابل تخليها (أى مصر) عن التمسك بالضفة الغربية وبالقضية الفلسطينية العربية، هذا كل شئ ولا أكثر من ذلك".. ثم تقول فدوى: "الذى يبدو لى أن ديان لم يصدق أننى لم أتحدث إلى الرئيس عبد الناصر عند اجتماعى به، فقد نشرت جريدة "جيروسالم بوست" بعد ذلك مقالا كبيرا جاء فيه على لسان "ديان": بعد شهرين قابلت فدوى ثانية، هذه المرة فى فندق "الملك داود" فى القدس ، كانت فدوى قد زارت مصر ورأت جمال عبد الناصر قال لها عبد الناصر إن دين راسك وزير الخارجية الأمريكية قد حثه على الوصول إلى تسوية مع إسرائيل مقابل انسحاب الجيش الإسرائيلى من سيناء انسحابا شاملا، لكن ناصر رفض

ذلك لأن التسوية لا تشمل الضفة الغربية. فدوى قالت إنها أخبرت عبد الناصر بحديثها معى، ولكنه عنفها على ذلك، وهكذا فإنها لم تعد بأخبار إيجابية".

وتؤكد فدوى فى تعليقها على حديث ديان للصحيفة الإسرائيلية أنها لم تقل لديان أبدا أنها أخبرت عبد الناصر بحديثها معه، ثم تضيف فدوى شيئا غريبا فتقول إنه أخبرت عبد الناصر بحديثها معه، ثم تضيف فدوى شيئا غريبا فنقول إنه "قبل نهاية اللقاء الثانى مع ديان حدثنى ديان عن رغبته فى الاجتماع بياسر عرفات" وغرابة هذا الكلام انه تم سنة ١٩٦٨، أى قبل إجراء أى اتصالات معروفة بين ياسر عرفات والإسرائيليين بأكثر من عشر سنين.

تلك هى قصة اللقاء مرتين مع موشى ديان فى أواخر سنة ١٩٦٨ وأوائل سنة ١٩٦٩ كما ترويها فدوى طوقان فى مذكراتها، ومن الواضح أن فدوى كانت فى روايتها لهذا اللقاء تقف فى موقف دفاعى عن نفسها، وذلك لأنها تعرضت للهجوم القاسى عليها بسبب اتهامها من جانب البعض بأنها رضيت لنفسها ان تكون "مبعوثة خاصة لموشى ديان إلى جمال عبد الناصر". واتهمها البعض الآخر بما هو أقسى وأشد عنفا وجرحا لكرامتها الشخصية حين قال هؤلاء إن قلبها قد مال إلى ديان وأنها قد وقعت فى حبه وهواه وقد تردد هذا الإتهام الأخير الجارح السخيف فى همسات مسمومة، ولكنه كان اتهاما مسموعا مع ذلك فى كثير من الأوساط الثقافية والوطنية، وإن لم يجرؤ أحد على كتابته أو نشره علنا وبالطبع فإن مثل هذا الاتهام قد مات فى مهده أى مات سريعا، وإن كان قد ترك جرحا فى نفس فدوى طوقان، وهى نفس حساسة، بل شديدة الحساسية بصورة غير عادية، وكان هذا كله مصدر إزعاج لفدوى طوقان، فحرصت فى مذكراتها على أن ترد على الاتهامات المثارة ضدها، دون ان تتعرض بالطبع للتلفيق والافتراء والكذب فيما يتصل بعلاقة عاطفية لها مع ديان، فما كان باستطاعة فدوى، نفسيا، أن تعالج الموضوع الشائك، وإن كنت أعرف أن هذه الشائعة الساقطة كانت من أسباب حزنها العميق، أما الشئ

الذى حرصت عليه فدوى فهو إثبات براءتها الوطنية والسياسية من تهمة القيام بدور "المبعوثة الخاصة من موشى ديان إلى جمال عبد الناصر".

على أن رواية فدوى للقائها مع ديان فيها نقطة تثير التساؤل، فمن خلال هذه الرواية تحكى فدوى أنها قالت لديان إن لقاءها مع عبد الناصر لم يدم أكثر من عشرين دقيقة، بينما قالت هى نفسها فى حديثها عن لقائها مع عبد الناصر إن اللقاء دام ساعة وأربعين دقيقة ، فما هو سر هذا التناقض؟ أعتقد أن هناك تفسيرًا واحدًا محتملاً لذلك ، وهو أن فدوى أرادت أن تعطى لديان إحساسًا بأنها لن تنقل شيئًا إليه مما سمعته من عبد الناصر فلا عبد الناصر طلب منها ذلك ، ولا هى تحب لنفسها أن تتطوع للقيام بدور الوسيطة التى تنقل آراء عبد الناصر إلى موشى ديان أو العكس .

والخلاصة أن فدوى طوقان لم تكن تلعب دورًا سياسيًا ، ولم تكن تحب أو تستطيع أن تلعب مثل هذا الدور ، فهى لا تملك أى تجربة أو معرفة بالعمل السياسى وأساليبه المختلفة ، فالسياسة لها أهلها الذين يعرفون كيف يعملون فى ميدانها الصعب العسير ، والسياسة لا تقل تعقيدًا عن الحرب ، ولابد للعاملين بها أن يكونوا قادرين مدربين تدريبًا كاملاً دقيقًا . وفدوى طوقان كانت شاعرة فنانة تعبر عن نفسها وقضيتها الوطنية دون دهاء أو التواء أو مكر . فهى – كما نقول بالعامية – (مالهاش فى السياسة) ومن يطالبها بأن تكون سياسية محترفة أو يحاسبها على هذا الأساس يظلمها ويخرج بها عن نطاق الموازين العادلة . وما فعلته فدوى مع عبد الناصر كان تعبيرًا عن إعجابها الوطنى به ، وما فعلته مع ديان كان تعبيرًا عن كراهيتها للاحتلال ، وكل ما حدث لفدوى فى هذا المجال كان وضعًا اضطراريًا ساقتها الظروف إليه بسبب مكانتها العالية كشاعرة عربية فلسطينية كبيرة . ومثل فدوى من الشعراء والأدباء والفنانين قد يظهرون أحيانًا على مسرح السياسة ، ولكنهم لا يصلحون أبدًا للعمل السياسى الذى يحتاج إلى أساليب أخرى غير أساليب أهل الفن .

شاعرة مغلوبة على أمرها !

قصة لقاء الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣) بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر بعد لقائها مع وزير الدفاع الإسرائيلى السابق موشى ديان هى قصة لا تزال فيها بعض السطور التى تضع لها النهاية والخاتمة . وقد كانت هذه القصة بفصولها المختلفة مصدر قلق وحزن عميقين فى الشاعرة الكبيرة نفسها . فقد هاجمها البعض ، ومنهم فلسطينيون من أهل بلدها ، واتهموها بأنها رضيت بأن تكون مندوبة أو مبعوثة لموشى ديان إلى القاهرة وإلى جمال عبد الناصر بالتحديد وكان هذا هو الاتهام السياسى ، أما الاتهامات الشخصية فكانت أسوأ وأضل سبيلاً ، إذا أنها كانت تدور فى همس مسموم وفاجر وملفق من الألف إلى الياء حول ميل عاطفى عند الشاعرة الفلسطينية الكبيرة إلى الجنرال الإسرائيلى المشهور بقسوته ودمويته وأستاذيته لشارون وهو موشى ديان.

وهنا تعود بى الذاكرة إلى الفترة التى كنت فيها رئيسًا لتحرير مجلة (الدوحة) من سنة ١٩٨١ إلى سنة ١٩٨٦ ، فقد كنت أسمع وأقرأ ما يقال عن فدوى طوقان ، ولأننى كنت أعرفها وأعرف براءتها وتعففها وطهارة يدها وضميرها وسيرتها العامة والخاصة من أى تهمة وطنية أو شخصية فقد كتبت إليها أطلب منها أن تروى القصة بنفسها وأن تشرح للرأى العام ما حدث بالتفصيل، فاستجابت وكتبت روايتها لما كان بينها وبين موشى ديان من لقاء اضطرت إليه لأنها كانت تعيش تحت الاحتلال الإسرائيلى بعد ١٩٦٧ ، فى مدينتها نابلس بالضفة الغربية ، وكتبت فدوى أيضًا روايتها لما كان بينها وبين عبد الناصر ، وهو لقاء لم تسع الشاعرة إليه ، وإنما تحقق بالصدفة ، وقد سعدت فدوى باللقاء واعتبرته من أحسن ما حدث لها فى حياتها كلها .. فقد كانت من المحبين لعبد الناصر والمؤمنين بوطنيته وصدقه وصلابته ، وكانت تجد فيه الأمل فى تحرير فلسطين وتحرير العرب جميعًا رغم نكسة ١٩٦٧ ،

هذا ما كانت تراه فدوى فى عبد الناصر ، وقد ظلت على عقيدتها تلك حتى وفاته فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، حيث كتبت بعد موته فى مذكراتها تقول:

(بعمق كبير أحسست بموت جمال ، وبعمق كبير تألمت . لم أستطع احتمال أن ينساب جمال إلى عالم الظلمات والفناء الشامل ، هو الذى نشر ضياء الحرية فى السماء العربية ، كنت أقول دائمًا إن وجوده على الأرض العربية هو الأمل. الله فى السماء والأمل على الأرض . جمال الأمل . جمال العظمة والرمز والمعنى بكل المقاييس . بذل من نفسه للآخرين . أنكر على نفسه الراحة فيما هو يعانى حالة مرض خطير انتهى به إلى الموت مقتولاً من التعب).

تلك هى المشاعر والأفكار التى كانت تملأ نفس فدوى طوقان حول عبد الناصر . ويمكن للبعض أن يختلفوا معها فى نظرتها إلى عبد الناصر وثقتها به وأملها فيه ، فعبد الناصر كان فى حياته وبعد رحيله شخصية يختلف الناس فيها بين مؤيد ومعارض يكرهه وينسب إليه ما أصاب العرب من خسائر وهزائم فالخلاف حول عبد الناصر حقيقة قائمة ، ولا مجال لإنكارها . وقد كانت فدوى حتى آخر يوم من حياتها تقف إلى جانب المؤيدين لعبد الناصر والمحبين له والحريصين على أن يذكروه دائمًا بالخير والإعجاب والتقدير .

هل أراد الذين يكرهون عبد الناصر ويعارضونه أن ينتقموا منه فى شخص الشاعرة فدوى طوقان ، المحبة له والمعترفة بفضله ومكانته فى تاريخ العرب الحديث ؟؟ ربما . فبعد لقاء فدوى بعبد الناصر فى أواخر سنة ١٩٦٨ بدأت الاتهامات تنهال على رأسها ، وكان أسوأ هذه الاتهامات أنها تعمل لحساب موشى ديان وزير دفاع إسرائيل فى ذلك الوقت ، وأنها كانت متعاطفة معه وفى نفسها ميل إليه ، وأنه من جانبه استطاع تجنيدها للعمل بتوجيه منه . وهذه الاتهامات لم تتردد إلا بعد لقاء فدوى بعبد الناصر ، مما يرجح أن هذه الاتهامات كانت هجومًا غير مباشر على عبد الناصر نفسه ، وكانت محاولة

لإلحاق الأذى والعقاب بفدوى ، لأنها تعلن تأييدها الدائم لعبد الناصر وإعجابها به .

والاتهامات التى تعرضت لها فدوى كانت باطلة ، ولكنها على بطلانها كانت جارحة ، ولو أدرك الناس جميعًا أن الكلمات يمكن أن تجرح كما تجرح الخناجر أو السكاكين الحادة المسنونة ، لترددوا كثيرًا وراجعوا أنفسهم طويلاً قبل أن يطلقوا كلمات تحمل اتهامات إلى الناس بغير برهان ولا دليل .

وقد أشرت فى الأسابيع السابقة إلى وجهة نظر فدوى فى بعض ما تعرضت له من اتهامات، وكان دفاعها عن نفسها منطقيا وصادقا، ولا يستطيع أحد أن يرفضه إذا كان حسن النية وليس لديه غرض يريد أن بخدمه على حساب الحقيقة والصدق.

عندما طلبت من فدوى أن تكتب قصة لقائها مع ديان وعبد الناصر استجابت، وكتبت القصة فعلا ونشرتها كما وصلتنى منها فى مجلة "الدوحة" فى عدد يناير ١٩٨٦. وقد أعادت فدوى نشر هذا الفصل فى الجزء الثانى من مذكراتها الذى يحمل عنوان "الرحلة الأصعب" وقد صدر فى طبعته الأولى سنة ١٩٣٣ .

ومع الفصل الذى أرسلته لى فدوى طوقان تلقيت منها رسالة شخصية اعتقد إن نشرها الآن يلقى ضوءا على ما أثير حول فدوى من اتهامات، وما كان لهذه الاتهامات من تأثير شديد القسوة على نفسية الشاعرة الكبيرة حيث تقول فى رسالتها:

"الأخ الكريم ـ تحياتى الطيبة ـ تلقيت رغبتك فى أن أكتب مقالا لمجلة الدوحة عن لقائى بالزعيم الراحل الخالد جمال عبد الناصر رحمه الله، وها أنذا وقد فعلت أوافيك بالمقال مع الاعتذار عن اضطرارى للحديث المطول عن اجتماعى بوزير الدفاع السابق "ديان" لما لذلك الاجتماع من علاقة بالموضوع، إذ لا مفر من توضيح وقائع القصة التى راح بعض الغوغائيين والمزايدين ينسجون

حولها شبكة من الشائعات نشرتها الصحف وصدقها الناس ورددوها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة، مما أقنعنى فى النهاية بأن الصحافة هى لعنة هذا الزمن، إذ سرعان ما يصدق العاديون من الناس ما تزودهم به من أقاويل وتهاويل مثيرة يتم نشرها لاجتذاب القراء على حساب الحقيقة، ألم يقولوا عنى، إفكا وزورا، إننى سافرت إلى القاهرة مبعوثة من ديان؟. ولست أنسى تلك الحملة الرهيبة التى شنها على وعلى الصديق سميح القاسم المرحوم معين بسيسو عفا الله عنه، وما كنت أنا يومئذ إلا ضحية خصومة مريرة كانت بينه وبين سميح. هذا الحديث الخاص والمتعلق بقصتى مع معين لا أدرى لماذا يدفعنى الآن إلى موافاتك بقصيدة كتبتها فى تلك الفترة العصيبة تحت عنوان "مطاردة" تنعكس فيها حالة الأزمة النفسية التى أصابتنى آنذاك.

هناك من القصائد ما لا يتم للقارئ تذوقها وتفسير ما تتضمنه من إشارات ودلالات إلا إذا عرف الدوافع الخفية لنظم هذه القصائد".

تلك هى رسالة فدوى التى تلقيتها منها عندما كنت رئيسا لتحرير مجلة الدوحة وهى تحمل تاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٨٥ ، وقد كتبتها من "عمان".

أما قصيدة فدوى التى كتبتها تعبيرا وتصويرا لأزمتها النفسية بسبب ما تعرضت له من شائعات واتهامات فهذا بعض ما جاء فيها:

لأنك عارية القلب

والوجه عار

لأنك لا أنت حوت،

ولا أنت "ثور" صراع

لأنك أنت، لأنك أنت الحزينة

تظلين عزلاء فى غابهم

مطاردة فى ملاعب صيدهمو..

تولول فيك البراءة

ترجف ـ مفجوعة ـ تحت أنيابهم

وتظمأ فيك الحقيقة

تظمأ حتى جفاف العروق

وتصرخ من قاع معبدها:

يا رجالى، افتدونى، افتدونى،

افتدونى، بقطرة ماء

فتسقى بخل التشفى

وتذبح فوق صليب العقوق

لأنك عارية القلب

فى ليل هذا الضياع

لأنك أنت الحزينة

تظلين فى غابهم

أنت وحدك

كبش الفدا.. فى الصراع

تلك هى أهم مقاطع قصيدة فدوى طوقان المتألمة وفيها كما هو واضح عزف حزين على أوتار من الإحساس بالقسوة المحيطة بحياة الشاعرة وسمعتها وقلبها، وفى القصيدة تتكرر صور "المطاردة" و"الضياع" و"الظمأ" و"الجفاف" و"الصراخ" و"الغابة" و"الصليب" وما إلى ذلك مما تتكون منه موسيقية شعرية مليئة بالأسى والحزن وعذاب النفس.

وهكذا تبدو فدوى طوقان شاعرة موهوبة فى فنها، ولكنها فى الحياة مغلوبة على أمرها، سواء كان ذلك فى الجانب الشخصى، أو فى الجانب العام الذى

يتصل بالمجتمع والعلاقات العملية المختلفة، أما فى الميدان السياسى فإن فدوى تبدو بعيدة كل البعد عن النجاح فيه، لأنها لا تتقن أساليب العمل السياسى ولا تنتمى إلى تنظيم أو حزب، بل تنتمى فقط انتماء مباشرة، ودون أى واسطة إلى وطنها وقضيتها.. وللأسف فإن هذا النوع من الانتماء المباشر، ودون الاحتماء بمنظمات ومؤسسات، إنما يتيح الفرصة لبعض الأشرار أن يطلقوا الاتهامات وينهشوا الأعراض ولا يجدون من يردعهم ويردهم إلى الحق والصواب.

على أن الإنسان المغلوب على أمره إذا كان صاحب موهبة فنية عالية مثل فدوى طوقان، فإن هذه الموهبة تحقق لصاحبها الانتصار فى النهاية رغم خسائره، فالفن الجميل الصادق هو - فى حد ذاته - انتصار للإنسان على هزائم الحياة، حتى لو كانت هذه الهزائم كبيرة وقاسية. وقد انتصرت فدوى طوقان بفنها وقصائدها الجميلة الصادقة المتألمة على كل ما لحق بها من خسائر، حيث كانت فى حياتها العملية مغلوبة على أمرها ولكنها بفنها حققت نصرها الذى لا شك فيه. ولا أحد يذكر الآن هؤلاء الذين اتهموا فدوى وأساءوا إليها وجرحوها، أما فدوى وقصائدها الجميلة الصادقة فهما حديث الناس، وسوف يبقيان قوة محركة ضد الظلم، ومن أجل الحق والعدالة وحماية الكرامة الإنسانية من العدوان المستمر عليها.

رسالة إسرائيلية إلى عبد الناصر

أشرت فى الفصلين السابقين إلى قصة لقاء الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان "١٩١٧-٢٠٠٣" مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٨، وما سبق ذلك من لقاء لها مع الجنرال موشى ديان وزير دفاع إسرائيل فى ذلك الوقت، وقد روت فدوى طوقان بنفسها قصة هذين اللقاءين وما دار فيهما من أحاديث فى الجزء الثانى من مذكراتها والذى يحمل عنوان "الرحلة الأصعب".

وفيما كتبته فدوى عن هذين اللقاءين أنكرت الشاعرة الكبيرة تماما أنها قامت بنقل أى رسالة من موشى ديان إلى عبد الناصر، كما أنكرت أن عبد الناصر فى لقائها معه قد سألها عن حديثها مع موشى ديان. فعبد الناصر لم يظهر فى لقائه مع الشاعرة أى اهتمام بما قاله موشى ديان، أو بما طرحه هذا الجنرال الإسرائيلى من أفكار تقوم على دعوة عبد الناصر إلى الاتصال المباشر مع الإسرائيليين.

وفدوى فى تقديرى صادقة فيما كتبته عن لقائها مع عبد الناصر ومع ديان. فلم يكن هناك ما يمنع من قول الحقيقة أو ما يدعوها إلى إخفائها والتردد فى إعلانها. خاصة أنها كتبت عن هذين اللقاءين سنة ١٩٨٥، فى مقالين لها نشرتهما مجلة "الدوحة" القطرية عندما كنت رئيسا لتحريرها، ثم أعادت نشر هذين المقالين فى الجزء الثانى من مذكراتها وهو الجزء الذى صدر سنة ١٩٩٣.

عندما كتبت فدوى ما كتبته فى مذكراتها كان قد مضى وقت طويل عن لقائها بعبد الناصر وديان. وكانت الأوضاع السياسية قد تغيرت بصورة نهائية خاصة بعد اتفاقيات الصلح بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٨ و ١٩٧٩. وفى هذا المناخ الجديد لم يكن هناك ما يمكن أن تخشاه فدوى طوقان إذا قالت إنها نقلت رسالة من موشى ديان إلى عبد الناصر. وفى دليل أولى على أن فدوى كانت صادقة عندما قالت إنها لم تنقل إلى عبد الناصر أى رسالة من ديان.

من ناحية أخرى فإن باستطاعتنا أن نفهم موقف فدوى عندما ندرك أنها لم تكن شخصية سياسية، ولم تكن تعمل بالسياسة، بل إننى أقول أكثر من ذلك إنها لم تكن تميل إلى العمل السياسى أو تفهمه أو تجد فيه ما يتفق مع طبيعتها الشخصية وهى طبيعة فنانة تحب أن تعبر عن نفسها بوضوح وصراحة ودون التواء أو غموض.

كما أنها كإنسانة كانت شديدة الخجل. وكانت حساسة جدا لأى كلمة أو تصرف من جانب الآخرين، وهذه كلها صفات تجعل صاحبها غير مؤهل لأى عمل سياسى ولو كان محدودا أو بسيطا، لأن السياسة تحتاج إلى جرأة وصبر وقدرة على تحمل الصدمات والتحكم الشديد فى عواطف الإنسان ومشاعره وأعصابه.

ولهذه الأسباب كلها يمكننا أن نقول ونحن مطمئنون إن فدوى كانت صادقة كل الصدق عندما أكدت أنها لم تنقل أى رسالة سياسية من ديان إلى عبد الناصر، فهى شاعرة فنانة لديها إحساس وطنى عميق وقوى، ولكنها ليست سياسية أو مؤهلة للعمل السياسى، لأنها لو كانت تعمل بالسياسة وتعرف أساليبها لما أحست بالانزعاج الشديد والألم العميق عندما اتهمها بعض الفلسطينيين بأنها قامت بنقل رسالة من ديان إلى عبد الناصر.

والحقيقة مع ذلك كله أن الرسالة التى أراد ديان توصيلها إلى عبد الناصر قد وصلت إليه بالفعل، ولكن عن طريق شخص أخر غير فدوى طوقان، وقد وصلت الرسالة بوضوح ودقة وتفصيل عن طريق شخصية فلسطينية معروفة. فعندما التقت فدوى طوقان بموشى ديان، كان يشاركها فى نفس اللقاء ابن عمها الكاتب والمفكر العربى الكبير الراحل قدرى حافظ طوقان، "وقدرى" هو مفكر من أبرز المفكرين العرب فى القرن العشرين، وله كتب عديدة ومهمة تتصل بتاريخ العلوم عند العرب، وله كتاب مشهور ومهم جدا هو "مقام العقل عند العرب" ولم يشتغل قدرى حافظ طوقان.. بالفكر والعلم والثقافة فقط ولكنه

اشتغل بالسياسة أيضا ووصل إلى منصب وزير خارجية الأردن عندما كانت الأردن مسئولة عن الضفة االغربية قبل ١٩٦٧، ولأن قدرى حافظ طوقان كان سياسيا صاحب تجربة فقد استطاع أن يتعامل مع قصة "رسالة ديان" دون أن يتعرض لأى اتهام فى وطنيته. فمن يجرؤ على اتهام مثل هذا السياسى الوطنى الكبير ومؤسس أحد أهم الجامعات الحديثة فى فلسطين وهى جامعة النجاح فى نابلس. بالإضافة إلى ذلك كله فقد كان قدرى حافظ طوقان معروفا على نطاق واسع فى الأوساط السياسية العربية، مما كان يجعل اتهامه فى وطنيته نوعا من العبث لا يمكن أن يأخذ به أحد.

وهنا نعود إلى المصدر الأساسى والوحيد ـ فيما أعلم ـ والذى روى قصة نقل رسالة ديان إلى عبد الناصر عن طريق قدرى حافظ طوقان ابن عم الشاعرة فدوى طوقان. هذا المصدر هو كتاب "محاوراتى مع السادات" للكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين "١٩٢٧ – ١٩٩٧" وهو كتاب بالغ الأهمية والقيمة والمتعة، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٨٧ "عن دار الهلال". وقد يكون من المفيد أن أقول هنا إن قراءة هذا الكتاب الرائع تفسر كثيرا من الأحداث الكبرى التى تعيش فيها مصر والعالم العربى حتى الآن، لأن الكتاب فيه الكثير من الإشارات والتنبؤات المدهشة، وهو كتاب يعتمد على التجارب الواقعية وليس على التفكير المجرد، مما يزيد من قيمة الكتاب وتأثيره فى إلقاء الأضواء على ما جرى حتى بعد صدوره بسنوات طويلة.

يقول أحمد بهاء الدين فى كتابه "محاوراتى مع السادات" ـ صفحة ١٦٣ وما بعدها": "تلقى عبد الناصر، بعد هزيمة ١٩٦٧، رسالة شفوية من موشى ديان، وقد عرفت قصة هذه الرسالة من ناقل الرسالة شخصيا وهو المرحوم قدرى حافظ طوقان من زعماء الضفة الغربية فى ذلك الوقت ووزير خارجية الأردن سابقا ومؤسس كلية النجاح فى نابلس "جامعة نابلس حاليا". كان المرحوم قدرى حافظ طوقان عضوا فى المجمع اللغوى بالقاهرة، وبعد الاحتلال

وهزيمة ١٩٦٧ ، ظل قدرى مواظبا على حضور جلسات المجمع اللغوى سنويا فى مصر، وكان إلى جانب ذلك يجد فى هذا حجة وجيهة ليطلب إذنا بالخروج من الأراضى المحتلة والسفر إلى القاهرة. المهم أنه لكى يحضر إلى القاهرة كان لابد له أن يحصل على إذن خاص من الحاكم العسكرى الإسرائيلى للأراضى المحتلة، وفى آخر مرة جاء فيها إلى القاهرة طلب الإذن كالمعتاد، وإذا بهم يساعدونه لمقابلة الجنرال موشى ديان الحاكم العسكرى الأعلى للمناطق المحتلة بوصفه وزيرا للدفاع. وما إن جلس "قدرى" ـ كما روى لى ـ أمام موشى ديان، حتى بادره ديان قائلاً: أنت طبعا عندما تذهب إلى القاهرة ستقابل جمال عبد الناصر! ورد عليه قدرى قائلا: إنه ذهب قبل ذلك ولم يقابل جمال عبد الناصر لأنه الآن يشتغل بالتعليم فقط لا بالسياسة. ورد عليه ديان قائلا: ولكننا نريد منك أن تقابل جمال عبد الناصر وأنت سياسى مخضرم ولك وزنك، وتعرفه من قبل، لأننا نريد منك أن تنقل إليه رسالة مهمة. فماذا كانت هذه الرسالة؟. كانت فحوى الرسالة بدقة وإيجاز قول ديان ما معناه: قل لجمال عبد الناصر أننا نؤكد له أن الروس لن ينفعوه وأن الأمريكان أيضا لن ينفعوه. الروس لن يعطوه سلاحا يتفوق على السلاح الأمريكى ويمكنه من هزيمة إسرائيل.

وأمريكا لم يعد لديها قوة ضغط على إسرائيل كما يتوهم. ومهما فكر عبد الناصر فى تنازلات يعطيها لها ـ أى لأمريكا ـ وأن إسرائيل تعرف تماما أن القوتين العظميين لا مصلحة لإحداهما فى إيجاد حل سلمى ينهى الصراع فى الشرق الأوسط وأن أمريكا وروسيا على السواء، تحاول كل منهما استخدام إسرائيل ومصر لتحقيق مصالحهما فى إطار صراعهما على المستوى العالمى وفى أكثر المناطق حساسية.

وأن متاعب إسرائيل وشكوكها فى أمريكا لا تقل عن متاعب عبد الناصر وشكوكه فى روسيا. إذن؟ بعد هذه المقدمة كان جوهر رسالة ديان هو: قل

لجمال عبد الناصر أن يجربنا مرة واحدة! نحن نعترف أن لديه - ماضيا وحاضرا - ألف سبب للشك فينا كإسرائيليين، ولكننا تعلمنا الكثير كما تعلم هو الكثير.. إننا ندعوه بكل قوة وصدق أن يجرب التفاهم مباشرة معنا دون أى وسيط ، سرا أو علنا، على مستوى عسكريين أو مدنيين!.

على مستوى وزراء أو سفراء بل على مستوى أصغر موظفين فى أبعد سفارتين لنا فى العالم! المهم أن يحاول أن يجربنا مباشرة وبجدية. أمريكا وروسيا معا لن تعطياه شيئا. لن ترغمانا على أى شئ . نحن وجدنا الذين يمكن أن نعطيه ما يشاء! ولا سبيل إلى ذلك إلا الاتصال المباشر بدون أى طرف ثالث.

ثم يقول أحمد بهاء الدين: "تلك هى الرسالة التى أعلم يقينا أنها وصلت إلى عبد الناصر "عن طريق قدرى حافظ طوقان" ومعنى ذلك أنه لا شك تلقى رسائل وإشارات أخرى بهذا المعنى وبوسائل شتى لا أعرف عنها شيئا". ثم يقول الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين بعد ذلك: "من واقعة هذه الرسالة كان لدى استنتاج مهم هو إن إسرائيل لابد أن تكون قد وصلت الرسالة نفسها إلى أنور السادات، وفى تقديرى بناء على هذا الإستنتاج أن الرئيس السادات قد اقتنع بهذا القول".

وهكذا، واستنادا إلى هذا المصدر الموثوق به وهو كتاب أحمد بهاء الدين "حواراتى مع السادات" تكون رسالة إسرائيل قد وصلت إلى عبد الناصر عن طريق قدرى حافظ طوقان ابن عم الشاعرة فدوى طوقان.

فتوى لها تاريخ

كان الإمام محمد عبده ١٨٤٩ - ١٩٠٥ مشـهورا ومعروفـا فـى مصـر والعـالم الإسلامى كله بأنه شخصية دينية قوية، بل وجبارة، وأنه كـان يريـد أن يقـود أمته إلى النهوض ويسمو بعقلها وتفكيرها عن التوقف عند الشكليات والخرافات وأمور السطحية، وكان يحض هذه الأمة على أن تـهتم بـالأمور الجـادة الكبـيرة والتى بدونها لا ينهض الناس ولا يتقدمون، ولكنهم يظلون واقفـين فـى مؤخـرة الصفوف غارقين فى الهموم والمتاعب. وقد عاش محمد عبده بـالفعل فـى عصـر كان المسلمون فيه أقل شعوب الأرض حظا من العلم والثقافة وكانوا أكـثر النـاس فقرا وحاجة، وكانت معظم بلاد المسلمين، والعرب فى المقدمـة، بـلاد خاضعـة للاستعمار الإنجليزى أو الاستعمار الفرنسى، وهما أكبر استعمارين معروفين فـى العصور الحديثة، وذلك حتى نهاية القرن العشرين، حيث بدأت أمريكا تجـدد شباب الاستعمار القديم وتحل محله وتعيدنا إلى عصر من الضغط علـى الشعوب وقهرها كنا نظن أنه انتهى وأن صفحته قد انطوت بنهاية القرن الماضى.

فى عصر التخلف والفقر الذى عم العـالمين الإسـلامى والعربـى خـرج محمـد عبده إلى ساحة التفكـير والدعـوة إلى التغيـير، واعتمـد فـى ذلـك علـى معرفتـه العميقة الصحيحة بأمور الدين وحرصه الواعى على ألا يتوقف عند ظاهر الأمـور بل إنه يتجاوز ذلك ليضع يده على الجراح الحقيقية والأمراض التـى لابـد لهـا من علاج، حتى يفتح الباب للعرب والمسلمين من أجل أن يخرجوا مما هم فيـه من فقر وضيق وحرمان وخضوع للغالبين. وقـد تـرك محمـد بعـده أثـره الواسـع القوى فى كل ميدان من ميادين النهضة والتقدم، فـهو أستاذ قاسـم أمـين فـى الفكر الاجتماعى الذى نـادى بتحريـر المـرأة، وأستاذ سـعد زغلـول قـائد ثـورة الاستقلال سنة ١٩١٩، ولا شك أن طلعت حرب الـذى أنشأ أول بنـك وطنـى فى مصر والعالم العربى كان تلميذا مخلصا للأجواء التى خلقها محمد عبده فـى أوائل القرن الماضى، والتى كانت كلها تدعو الناس إلى النهوض والوقـوف علـى أقدامهم واسـتعادة الثقـة بأنفسـهم ورفـض أى إسـاءة إليـهم أو اسـتغلال لهـم،

وتدعوهم كذلك إلى الجد والاجتهاد والفهم الصحيح لأمور الدين حتى يتمكنوا من خوض معركة الحياة وهم عليها قادرون.

وفى مجال الفكر الدينى فإن محمد عبده هو النبع الأكبر الذى خرجت منه روافد الخير والنور على يد العلماء الأعلام فى القرن العشرين ومن جاء وراءهم بعد ذلك من أمثال المراغى ومصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق وشلتوت ومحمد المدنى والباقورى وخالد محمد خالد والغزالى وغيرهم ممن كان لهم فضل النهوض بالفكر الدينى وتجديده وتلخيصه مما كان غارقا فيه من ركود وجمود.

وإذا أردنا أن نلخص شخصية محمد عبده فى كلمات قليلة قلنا إنه كان مقاتلا لا يهدأ ضد الشكلية فى التفكير وضد الانسياق وراء صغائر الأمور والانصراف عن القضايا الرئيسية المؤثرة فى حياة المجتمع والناس.

وكان محمد عبده داعية لا يتردد فى تأكيد أن العلاقة بين الإسلام والعصر الحديث ليست علاقة خصومة، وان مثل هذه الخصومة هى اختراع لأصحاب العقول الصغيرة والأفكار الجامدة الضيقة الذين هم أخطر على شعوبهم من الاستعمار نفسه.

ولولا محمد عبده لاشتدت قوة الأحزاب الفكرية التى تقول لك باسم العقيدة:

الفن حرام، والتماثيل أصنام، وعزف الأوتار أول الطريق إلى النار، أو تقول لك إن كروية الأرض بدعة وإن الهبوط على القمر أكذوبة وخدعة وما إلى ذلك من أقوال لا يزال البعض يرددونها إلى الآن، وإن كان صوتهم قد انخفض، وأصبحوا هم أنفسهم لونا من ألوان الطرائف التى تظهر فى مساحة محدودة من حياتنا الفكرية، كل ذلك لأن النور الذى أضاءه محمد عبده فى عقولنا جيلا بعد جيل كان أقوى من أن يطفأه أى ظلام.

تلك هى خلاصة محمد عبده التى يمكننا أن نضعها أمامنا لنستنير بها وننتفع. ولا بأس من أن نقرأ بعض كلمات محمد عبده نفسه لنعرف تصوره لنهجه الفكرى، وهذه الكلمات كتبها الإمام قبل مائة سنة، وعندما نقرؤها

فإننا نحس كأنها مكتوبة اليوم وليس بالأمس البعيد. يقول الإمام: ما الذى يحرر الأفكار من رقها وينزع عنها السلاسل والأغلال، لتكون حرة مطلقة من القيود؟.. إن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور. ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع إليها كل ما يقال فى هذا المجال، وهذه الكلمة هى الشجاعة. الشجاع هو الذى لا يخاف فى الحق لومة لائم، فمتى لاح له الحق فإنه يصرخ به ويجاهر بنصرته، وإن خالف فى ذلك الأولين والآخرين واستعمال الفكر والبصيرة فى الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة القلب، ويحتاج إلى أن يكون طالب الحق صابرا ثابتا لا تزعزعه المخاوف.

هذا بعض ما قاله محمد عبده فى دعوته إلى الشجاعة الفكرية وعدم الخوف من إعلان ما هو حق عند الذين يؤمنون بذلك.

وعلى أساس هذا المنهج كان الإمام محمد عبده يقدم الفتاوى للناس معتمدا على علمه الراسخ بالدين وشجاعته فى الحق، وإيمانه بضرورة تخليص أهل وطنه واتباع عقيدته من الشكليات والأوهام التى تقف فى وجههم وتقيد حركتهم وتجعلهم واقفين على رصيف الحياة الحديثة، وعلى هامش هذا العصر الذى يموج بالأفكار الجديدة والتغيرات المسامرة كل يوم، بل كل ساعة.

وهذه فتوى يمكن أن نقول عنها أنها فتوى لها تاريخ لما أثارته من ردود فعل عنيفة، ومن تأييد لها بشدة، واعتراض عليها بشدة أيضا، دون أن يغير ذلك كله من موقف الإمام فى فتواه أن يدفعه للتراجع عن حرف واحد منها. والفتوى معروفة باسم الفتوى الترنسفالية نسبة إلى الترنسفال وهو الاسم القديم لجنوب أفريقيا. فقد أرسل أحد المسلمين فى الترنسفال أو جنوب أفريقيا إلى الشيخ محمد عبده يسأله فى ثلاثة أمور هى:

أولها: هل يجوز للمسلمين لبس البرانيط؟

وثانيها: هل يجوز للمسلمين أكل اللحوم التى يذبحها المسيحيون من أهل جنوب أفريقيا على غير طريقة المسلمين، إذ إنهم يضربونها بالبلطة ولا يذكرون عليها اسم الله؟

وثالثهما: هل يجوز لأتباع المذهب الشافعى أن يـأدوا صـلاة العيديـن خلـف إمام من أتباع مذهب أبى حنيفة رغم اختلاف المذهبين فـى التكبـيرات وبعـض الأمور الأخرى؟

تلك هى الأسئلة التى تلقاها محمد عبده من مسلم فى جنوب أفريقيا، ولعـل فى هذا دليلا على مكانة محمد عبده عند مسلمى العـالم، فقد كـان منـذ أكـثر مائة سنة، وفى عصر كانت أجهزة الاتصـال فيـه محـدودة، يتلقـى أسـئلة مـن المسلمين فى أفريقيا والهند وإندونيسيا وأبعد بقاع الأرض.

لم يتردد الإمام فى الإجابة على السائل، ولم يكن فى إجابته أى غموض بل كانت الإجابات واضحة محددة، وكانت إجابة محمـد عبـده هـى: أن كـل مـا سأل عنه المسلم الأفريقى جائز وليس فيه أى مخالفة للعقيدة الإسلامية، فيجوز للمسلم أن يلبس البرانيط إذا كان يعيش فى مجتمـع يلبـس هـذه الـبرانيط، ولا يوجد ما يفرض على المسلم الظهور بمظهر شاذ فى أى مجتمع مـن المجتمعـات إذ لم يكن هناك مبرر قوى لذلك. وإذا كانت البرنيطة عائقا فى الصـلاة فيمكـن خلعها فى أثناء أداء هذه الفريضـة الدينيـة، وليـس في ذلـك أى صعوبـة. أمـا السؤال الثانى وهو جواز أكل اللحوم التى يذبحـها المسيحيون على غير الطريقـة الإسلامية فقد أعتمد الإمام فى ذلك على قول القرآن الكريم فـى سـورة المـائدة: "اليوم أحل لكم الطيبـات وطعـام الذيـن أوتـوا الكتـاب حـل لكـم". أمـا صـلاة أصحاب المذهب الشافعى وراء إمام من أتباع أبى حنيفة فى العيدين فقد أباحـها الشيخ الإمام برغم أن هناك بعض الفوارق بين المذهبين، وفى هذا ما يسـد بـاب الانشقاق والاختلاف بين أهل العقيـدة الواحـدة لأسـباب ثانويـة لا علاقـة لهـا بجوهر الدين.

على أن الذى أثار أكبر ضجة حول هـذه الفتـوى وجعلـها بحـق فتـوى لهـا تاريخ، هو الموضوع الثانى فيها، أى ما قال به الإمام مـن جـواز أكـل المسـلمين اللحوم المذبوحة على طريقة بعض المسيحيين، فقـد تعـرض الإمـام بسـبب هـذا الجزء من فتواه إلى هجوم عنيف واعتراض شديد كما يقول الدكتور محمد محمد

حسين فى الجـزء الأول مـن كتابـه المـهم عـن الاتجاهـات الوطنيـة فـى الأدب المعاصر، ولعل بعض رجال الدين المعاصرين لا يزالون رافضين ومعـترضين علـى هذا الجزء من فتوى الإمام إلى اليوم. على أن المهم هنا هو ما ينبغى أن يقال من أن محمد عبده لم يكن يقدم فتواه بغير علم، فهو بشـهادة كـل أصحـاب الحـق فى مثل هذه الشهادة، واحد من اكبر علماء الدين فى تاريخ الإسلام منذ ظهوره إلى الآن. ولا أريد مع ذلك أن أخوض فى التفـاصيل الدينيـة للمجـادلات التـى تتصل بهذه الفتوى، فالفتوى قديمة ومعروفة، ومن حـق الجميـع أن يناقشـوها ويقفوا معها أو يقفوا ضدها. والأصل فى تأييد الفتوى أو الاعتراض عليها هو أن يكون ذلك من حق العلماء المتخصصين فى الدين، ولست منهم. والـذى يـهمنى أن أشير إليه هنا هو ما وراء هذه الفتوى، فنحـن إذا نظرنـا إليـها نظـرة عقليـة موضوعية ووقفنا أمامها بذهن مفتوح وصدر رحب فإننا نجد فيها ما يبعث على التأمل والاعتبار وإمكان الاستفادة الواسعة منها الآن وفى مستقبل الأيام، خاصة إذا قسنا عليها ما يشبهها من الأمور الكثـيرة التـى هـى موضـع الجـدل بيننـا، وموضع الاختلاف.

وفى هذه الفتوى دعوة للتيسير على المسلمين إذا كانوا أقلية فى مجتمع فيـه أغلبية غير مسلمة. وتعتمد الفتوى على فتح الباب أمام الأقليات الإسلامية لكى تعيش حياة طبيعية دون منغصات لا مبرر لهـا ودون صراعـات يمكـن تجنبـها. وأهم من ذلك كلـه أن الفتـوى تقـف وراءهـا دعـوة إلى الابتعـاد عـن الشكليات والغرق فى التفصيلات والأمور الفرعية، فالتفكير الشكلى خطر علينا وهو يعطلنا ويرجع بنا إلى الوراء، فلنحارب التفكير الشكلى السطحى الواقف أمـام المظـاهر الخارجية والأمور الثانوية، ولنوجه جهدنا إلى القضايا الحقيقية الكبـيرة، التـى إن أهملناها وابتعدنا عنها فسوف نغوص فى الرمال أكثر وأبعـد ممـا نحـن فيـه الآن.

الخيانة فى وضح النهار

من المواقف التى تتكرر كثيرا فى تاريخ الإنسانية أن يندفع أشـرار العـالم إلى ارتكاب جرائم كبيرة ويزعمون أنهم يقومون بذلك لتحقيق أهداف نبيلة من أجل خير الناس وسعادتهم، فعندما دخل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ محتلين لهـا، غاصبين لأرضها، مستبدين بأهلـها، أصدر الجـنرال "جـارنت ولسلى" الـذى وصف نفسه بأنه "قومندان عموم الجيش الإنجليزى بالقطر المصرى" بيانا أسماه باسم "إعلان للمصريين" قال فيه بأسلوب عربى ركيك وغير مبين: "إن الجنرال قائد الجيوش يسر جدا من زيـادة العصيـان الـذى هـو ضـد الحضـرة الخديويـة والوالى الشرعى على القطر المصرى".

وحسب ما جاء فى هذا البيان فإن الاحتلال الإنجليزى لمصر كان لـه هـدف نبيل هو حماية الخديـوى توفيـق مـن المصريـين العصـاة الذيـن يمثلـهم عرابـى والبارودى وغيرهما من "المتمردين" على السلطة الشرعية. وقبل دخول الإنجلـيز المحتلين إلى مصر بأربع وثمانين سنة دخلها نابليون سنة ١٧٩٨ قـائدا للحملـة الفرنسية، وحاول نابليون أيضا فى أول منشور له وجهه إلى المصريين أن يخفى نواياه الاستعمارية تحت ستار من الأهداف النبيلة حيث يقول فى هذا المنشور: ".. قولوا للمصريين أننى ما قدمت إليكم إلا لأخلـص حقكـم مـن يـد الظـالمين، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقـرآن العظيـم". وبمثل هذه الكلمات الناعمة قدم نابليون تبريره للحملة الفرنسـية قـائلا أنـه مـا جاء إلى مصر للاحتلال والسيطرة والتحكم فى ثروة البلاد، ولكنه جاء من أجـل خدمة الإنسانية مدفوعا بحب الخير لمصر وشدة الإعجـاب بسـواد عيـون أهلـها الطيبين والرغبة الخالصة فى القضاء على المماليك الجهلة الظالمين.

مثل هذه المواقف تتكرر كثـيرا فـى التـاريخ، فكلمـا أراد الأشرار وأصحـاب النوايا السيئة أن يرتكبوا جريمة فى حق الإنسانية فإنهم يحاولون تغطيـة وجـه

الجريمة بالمساحيق، وهم يضعون فوق رأس هذه الجريمة كثيرا من الورد والريحان، لعلهم بذلك يكونون قادرين على تزييف الحقيقة وإخفائها عن العيون.

ومن بين أشد صفحات التاريخ قسوة ومرارة ما حدث لمدينة "ليون" الفرنسية، وهى مدينة عريقة يعود تاريخها إلى أكثر من ألفى سنة، وقد تعرضت هذه المدينة للتدمير، وتعرض أهلها لمأساة كبرى سنة ١٧٩٣، أى بعد قيام الثورة الفرنسية بخمس سنوات وما حدث لمدينة "ليون" من أهوال وقع على يد سفاح كبير اسمه "جوزيف فوشيه" وباسم الثورة الفرنسية ومبادئها الإنسانية العالية فى "الحرية والإخاء والمساواة" قام "فوشيه" هذا بتدمير مدينة "ليون" وذبح من أهلها حوالى ألفين ، وتم ذلك كله خلال عدة أسابيع قليلة، وكانت الحجة التى تم على أساسها ارتكاب هذه الجريمة التاريخية هى حجة الدفاع عن الجمهورية ونشر مبادئ الثورة الفرنسية، والوقوف ضد مدينة "متمردة" ينبغى تأديبها حتى تكون عبرة لغيرها، فلا يفكر أحد بعد ذلك فى العصيان والتمرد.

وقبل أن نتعرض بإيجاز لما فعله "فوشيه" فى مدينة "ليون" من تدمير وقتل وإسالة للدماء بأعصاب باردة، نتوقف أمام وصف بديع لشخصية فوشيه كتبه المؤرخ والفنان النمساوى ستيفان زفايج "١٨٨١ - ١٩٤٢" فى كتابه الرائع عن "فوشيه" من ترجمة الأستاذ أحمد الصاوى محمد، وهذا الكتاب هو المرجع الأساسى الذى نعتمد عليه فى هذا المقال يقول "زفايج": "إن "فوشيه" يكشف لنا عن صفة أخلاقية مهمة فيه ونعنى بها: الجرأة. فعندما يخون حزبا من الأحزاب فإنه لا يخونه بطريقة بطيئة مترددة أو يهجر صفوفه سراً. لا. إنه يخونه ويهجره فى وضح النهار، ويفعل ذلك وهو يبتسم ابتسامة باردة تصيب العقول بالذهول، ثم يذهب قدما إلى الحزب الذى كان حتى ذلك الحين خصمه ويتخذه حزبا له ويعتنق جميع آرائه ويدافع عنه بكل قوة، أما ما سوف يظنه

أصحابه فيه، أو يقولونه عنه.. أما رأى الناس فيه من عامة وخاصة، فسواء لديه، لا يكترث له، وكأنه لا يعنيه شئ منه. إن شيئا واحدا هو الذى يهمه ويعنيه وهو أن يكون دائما فى جانب الغالب، ولا يكون أبدا فى جانب المغلوب، وهو فى سرعة تلونه التى تفوق سرعة البرق، وفى صفقاته المذهلة بتنقله من جهة إلى جهة، نراه ثابتا مطمئنا كما لو كان يأتى شيئا طبيعيا لا عيب فيه ولا غبار عليه. إن أربعا وعشرين ساعة، بل كثيرا ما تكون ساعة واحدة، إن لم تكن دقيقة واحدة، تكفيه ليلقى على الأرض راية عقيدته ويرفع راية أخرى سواها".

تلك هى بعض جوانب شخصية "فوشية" كما رسمها فى إبداع ودقة قلم "ستيفان زفايج"، وقد تقلب "فوشية" هذا بين الكثير من المواقع الحساسة فى فرنسا منذ قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حتى وفاته سنة ١٨٢٠ عن واحد وستين عاما، حيث أنه من مواليد ١٧٥٩. وقد نجح هذا الرجل العجيب فى جميع مراحل حياته وأفلت من أزمات كانت كفيلة بقطع رقبته، وكانت لديه دائما قدرة كبيرة على التنقل بين الأحزاب والقوى السياسية والإجتماعية المختلفة دون أن يصيبه أى سوء. وقد وقع الاختيار على فوشيه سنة ١٧٩٣ من جانب قيادة الثورية الفرنسية للقضاء على ما يسمى بالتمرد فى مدينة "ليون". وكانت " ليون " هى المدينة الصناعية الكبرى فى فرنسا فى ذلك الوقت، ومعنى ذلك أنها كانت مسرحا للصراع بين قوتين كبيرتين الأولى هى قوة العمال من أنصار الثورة، والثانية هى قوة أصحاب المصانع من الرأسماليين الذين ينظرون إلى الثورة فى حذر ويتمنون القضاء عليها والتخلص منها. وقد وقع أصحاب المصانع الرأسماليون فى خطيئة كبيرة عندما حاكموا أحد الرجال المتحمسين للثورة والذى أصبح قائدا للجماهير الشعبية فى المدينة، وقد اعتبره أصحاب المصالح والرأسماليون محرضا على الفوضى، مما جعلهم يحكمون عليه بالإعدام. وكان هذا الزعيم الشعبى اسمه "شالييه"، وقد تم إعدامه بالفعل،

ولكن إعدامه كان عملية تعذيب وحشية قاسية، فلم يكن الجلاد "متدربا بما فيه الكفاية على استخدام أداة القتل التى ابتكرتها الثورة الفرنسية وهى المقصلة، وقد نزل السلاح على عنق "شالييه" ثلاث مرات دون أن يفصل رأسه عن جسده، وكانت جماهير الشعب تنظر برعب إلى جسد "شالييه" وهو ينتفض من الألم، وقد ظل حيا يئن من ذلك العذاب الشنيع، إلى أن تمكن الجلاد من أن يدق عنق الرجل الشقى فى آخر الأمر بضربة سيف قاطعة".

كان إعدام "شالييه" فى مدينة "ليون" عملا عدائيا ضد الثورة وأنصارها، وبدلا من أن يتم التحقيق العادل الدقيق فى هذه الجريمة وتحديد المسئولين عنها تم توقيع العقاب على الذين يدينهم هذا التحقيق وحدهم... بدلا من ذلك فقد تم اعتبار "ليون" كلها مدينة متمردة وخارجة على السيطرة ومستحقة للعقاب الشديد، من أجل القضاء على النظام الجديد، وهو نظام الثورة الفرنسية التى قضت على الملكية وأعلنت الجمهورية ووقع اختيار باريس على "فوشيه" لتأديب مدينة "ليون" وتوقيع العقاب على أبنائها المتمردين. ولم يكن "فوشيه" عادلا أو صاحب ضمير ولكنه كان وحشا مفترسا لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة من أى نوع مادام فى ذلك تأمين له وتثبيت لأقدامه فى السلطة التى كان يعشقها ولا يطيق أن يفارقها أو تفارقه فى أى لحظة وتحت قيادة هذا الوحش الآدمى "فوشيه" وبتوجيه منه وأوامر واضحة مشددة ومحددة قام الجنود باقتحام الكنائس ونهبها وتدميرها وسرقة كل ما فيها من أشياء ثمينة. والناس فى العادة حتى فى أسوأ حالاتهم يحاولون ـ ولو شكليا ـ إظهار احترامهم للمشاعر الدينية والمعابد والكتب المقدسة، أما "فوشيه" فقد كان سافلا مجرما يسئ استخدام ما فى يديه من سلطات إلى أبعد الحدود، ولذلك تجرأ على اقتحام الكنائس وأمر بقتل الناس فيها دون رحمة، ووصل إلى أعلى درجات الانحطاط وانعدام الضمير والاستهتار بحق الله وحق الإنسان فقام بتعليق نسخة من "الكتاب المقدس" بذيل حمار، وهكذا ـ كما يقول ستيفان

زفايج - "رأى سكان مدينة ليون - مذهولين مفجوعين - الكتاب المقدس وهو يهتز على ذيل الحمار ويتم جره فى الوحل والتراب"، فهل يوجد أبشع أو أحط من هذه الجريمة؟. لا أظن.

وتتوالى جرائم فوشيه ضد المدينة المتمردة التى جاء إليها من باريس لإخضاعها وتأديبها، فقد أمر بإطلاق الرصاص على مجموعة من أبناء المدينة يزيد عددهم على مائتين، وأباح للجنود أن يأخذوا ما يشاءون من ثياب القتلى وممتلكاتهم الأخرى، ثم أمر بتعرية أجساد هؤلاء القتلى بصورة كاملة وإلقائهم عرايا فى نهر "الرون" الذى يمر بمدينة "ليون" ، وأخذ يتغنى بهذا الانتصار حيث قال: "إن هذه الجثث العارية الدامية تقدم البرهان الناصع على قوة الشعب العزيز القادر، فإذا وصلت هذه الجثث إلى مصب نهر "طولون" رآها أعداؤنا الأوغاد المتوحشون فيخافون منا ويعرفون كم نحن أقوياء".

وقد جاء إلى "فوشيه" بعض النساء يتوسلن له ويتضرعن إليه للعفو عن "أزواجهن" فكان جواب "فوشيه" على هؤلاء المتوسلات هو قطع رؤوسهن بالمقصلة وكان هذا السفاح يقول إنه لا يمكن سحق مدينة "ليون" المتمردة فى يوم واحد، ولذلك كان يقوم يوميا بإعدام عدد يتراوح بين خمسين ومائة رجل وكان يهدم البيوت ويصادر الأموال والممتلكات، كما اتجه إلى قتل جميع الذين تم سجنهم ، فأصبحت سجون المدينة خالية تماما ممن كانوا فيها، وقد تم ذلك كله دون تحقيق أو محاكمة، وأحيانا كانت تقام محكمة شكلية سريعة لا علاقة لها بالقانون أو العدالة، فلم تكن هذه المحكمة تعرف سوى حكم واحد للجميع هو الإعدام، مع تنفيذ الحكم فورا بعد النطق به. وكان فوشيه يفخر بأنه استطاع أن يقتل مائتى شخص بالرصاص فى ملحمة عين، وكان يعتبر هذا دليلا على "رقة الإحساس" لأنه لو استخدم المقصلة وقطع رقاب عشرين شخصا فإن الشخص العشرين يكون قد مات وهو يشهد رفاقه عشرين مرة، فى حين أن

قتل مائتى متآمر بالرصاص يؤدى بهم إلى الموت فى وقت واحد جميعا وبذلك يكون القتل بهذا الأسلوب هو طريقة القتل الإنسانية الرحيمة"!

لقد تم تدمير مدينة "ليون" وقتل حوالى ألفين من أبنائها، وتمت هذه الجريمة المخزية بتفاصيلها المثيرة على يد "فوشيه" الذى أطلق عليه بعض المؤرخين اسم "الحرباء الحمراء" وأطلق عليه آخرون اسم "الدساس الأعظم"، وعلق المؤرخ والفنان الكبير المبدع "زفايج" على تدمير مدينة "ليون" المتمردة بقوله: "وا أسفاه إن تاريخ العالم كما يحاولون تصويره ليس تاريخا للبسالة البشرية فقط بل هو أيضا تاريخ للنذالة البشرية "وقد صدق هذا المؤرخ الكبير، فما حدث لمدينة "ليون" التى قيل عنها إنها مدينة متمردة، كان صفحة لا يمكن نسيانها من تاريخ "النذالة" ، وهى عند كثير من المؤرخين أسوأ ما وقع فى الثورة الفرنسية من سلبيات وأعمال مخزية.

نعم .. أيها الملك !

جاء فى أنباء شهر نوفمبر سنة ٢٠٠٤ أن عددا من أمهات الجنود الروس الذين فقدوا حياتهم فى الحرب ضد الشيشان قررن أن يقمن من جانبهن وحدهن بمفاوضات مع الثوار الشيشان للوصول إلى حل للمشكلة الشيشانية. وهؤلاء الأمهات اللواتى فقدن أبناءهن فى الشيشان يطلبن المفاوضات مع الثوار فى أى عاصمة أوروبية بعيدا عن موسكو وعن روسيا كلها، لأن الحكومة الروسية تعتبر ثوار الشيشان إرهابيين، وترفض التفاوض معهم، ولكن الأمهات الروسيات لهن رأى مختلف، وهن الآن ينتقلن من عاصمة أوروبية إلى أخرى فى وفد كبير منهن يريد الإلتقاء بوفد من ثوار الشيشان لعقد أعجب معاهدة فى التاريخ، بين أمهات فقدن أبناءهن وبين المهتمين بقتل هؤلاء الأبناء، والهدف من هذه المعاهدة الإنسانية العجيبة الرائعة هو الإتفاق على حل يتم إعلانه، والدعوة له، واعتباره الوسيلة الوحيدة لإيقاف نهر الدماء الذى يسيل فى الشيشان، ويذهب ضحية له أبناء هؤلاء الأمهات وزملائهم من الجنود الروس.

والحقيقة أنها فكرة عجيبة، وهى أيضا فكرة فى منتهى الشجاعة، فهؤلاء الأمهات لا يعملن بالسياسة، وهن أمهات عادية بسيطات ، ولكنهن صاحبات قلوب محزونة، وقد ألهمتهن قلوبهن أن يقمن بهذا العمل الجرئ الذى لا سابقة له، والذى يتحدى السياسة الروسية الرسمية، وهو مفاوضة الثوار من أجل العمل على صيانة الحياة الإنسانية، فالأمهات هن صانعات الحياة، ومن حقهن أن يدافعن عنها بهذه الطريقة الشجاعة التى ترتفع كثيرا فوق حسابات السياسة والسياسيين.

هذا التصرف القوى من جانب الأمهات الروسيات يلفت النظر إلى أن الثقافة الروسية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد عرفت أديبا إنسانيا كبيرا هو مكسيم جوركى "١٨٦٨-١٩٣٦"، وأدب جوركى السهل النبيل الممتع ملئ بالحديث عن الأمهات وعظمة الأمهات وفضلهن على كل

مظاهر الحياة. وهذا الأديب الإنسانى النبيل له رواية كبرى مشهورة فى العالم كله اسمها "الأم" ، ولكنه لم يقتصر عليها فى حديثه المستمر عن الأم والأمومة، فأدبه ملئ بهذا الحديث الشاعرى الجميل، وأظن أن الأمهات الروسيات اللواتى قررن التفاوض مع الثوار الشيشان بدون إذن الحكومة الروسية متأثرات أشد التأثر بهذه الثقافة الروسية الإنسانية التى احتفلت بالأم أعظم الاحتفال، وجعلت لها على يد جوركى صاحب القلب الشاعرى الكبير مكانا فريدا جدا فى أدب العالم كله. وأدب جوركى ليس أدبا ارستقراطيا معزولا عن عامة الناس أو خاصا بطبقة من أصحاب الثقافة العالية المتخصصة، بل هو أدب شعبى إنسانى سهل واسع الانتشار بين الملايين من الناس جيلا بعد جيل، ولابد أن هذا الأدب الجميل الذى تهضمه النفوس بسهولة شديدة قد ترك تأثيره العميق على الشعب الروسى كله. وليس من الغريب بعد ذلك أن يكون الشعب الذى أنجب جوركى هو الذى ينجب أمهات قادرات على تحدى الحكومة الروسية والتحرك وحدهن كقوة إنسانية "أمومية" جبارة لوقف إسالة الدماء فى تلك الحرب التى لا مبرر لها على أرض الشيشان.

وهذه وقفة مع الأمومة عند جوركى.. هذا العاشق العظيم للأمومة والإنسان، والذى قال فى بعض كتاباته "..إننا كلنا جائعون لحب رفاقنا من بنى الإنسان، وحينما يكون الإنسان جائعا، فإنه حتى الرغيف غير الناضج يكون حلو المذاق". وهذه العبارة تمثل جوركى خير تمثيل، لأن جوركى فى أدبه لديه عبقرية اكتشاف الحب والجمال حتى فى أسوأ ظروف الإنسان وأتعس لحظات الحياة.

الأمومة عند جوركى شعر وموسيقى وحب صوفى رفيع المقام لا يعلو عليه أى حب آخر. وفى قصة من قصصه القصيرة العجيبة تحمل اسم "الأم" وهى بالطبع غير روايته الشهيرة المعروفة بهذا الاسم، يحدثنا جوركى عن أم ضاع منها إبنها وهو فى السادسة، حيث تقول هذه الأم والترجمة للأستاذ فوزى

جرجس: "كان أبى صيادا للسمك، وكذلك كان زوجى الذى كان جميلا مثل السعداء، وأنا التى وهبته السعادة. وكان لى ابن كذلك، هو أجمل ابن فى العالم. هبط علينا القراصنة وقتلوا أبى وزوجى وكثيرين غيرهما ، وخطفوا ابنى، وكان فى السادسة من عمره، ومنذ أربع سنوات وحتى الآن وأنا أبحث عنه فى كل بقعة من بقاع العالم".

والغريب فى أمر هذه الأم أن قصتها ـ كما يتخيلها ويرويها جوركى ـ قد وقعت فى عصر الطاغية الدموى الشهير ملك ملوك الأعرج – تيمور لنك "١٣٣٦– ١٤٠٥ " ، وقد خاضت هذه الأم الأهوال حتى وصلت إلى معسكر الطاغية "تيمور لنك" الذى سمع صراخها فأمر رجاله بعدم المساس بها وإحضارها أمامه، وقال لها عندما رآها: ".. يا امرأة كيف جئت إلى هنا من تلك الأرض المجهولة عبر البحار والأنهار والجبال والغابات؟. كيف لم يعترض طريقك الوحوش والناس، وكثيرا ما يكون الناس أكثر همجية وقسوة من أكثر الحيوانات وحشية؟ كيف ـ يا امرأة ـ سرت فى الطرقات وحدك وأنت عزلاء بغير سلاح، والسلاح هو الصديق الوحيد لمن ليس هناك من يحميه ويدافع عنه، والسلاح صديق لا يخون طالما كان عند الإنسان من القوة ما يساعده على استخدامه".

وبعد أن ينتهى "تيمور لنك" من كلماته فإننا لا نسمع رداً سريعا من المرأة، ولكننا نقرأ تعليقا غنائيا بالغ العذوبة من جانب الطاغية "تيمور لنك" حيث يقول وكأنه يعزف على آلة موسيقية حساسة: "هيا بنا نتغنى بمرح المرأة الأم .. التى لا يعرف حبها أية عقبات، والتى أطعم صدرها العالم بأكمله. إن كل ما هو جميل فى الإنسان مستمد من أشعة الشمس، ومن لبن الأم".

بعد هذا الفاصل الغنائى تتحدث المرأة التى هى بلا اسم، لأنها رمز لجميع الأمهات فى العالم كله، وتروى بعض قصتها، وتجيب عن سؤال "تيمور لنك" لها كيف وصلت إليه قالت المرأة الأم: ".. فى ترحالى إليك قابلت بحرا واحدا

فقط، وشاهدت جزائر كثيرة، وعندما يبحث الإنسان عن شخص يحبه تصبح الرياح دائما مواتية، وبالنسبة لمن ولد وتربى على شاطئ البحر مثلى، ليس من الصعب عليه أن يسبح فى الأنهار. أما الجبال فإننى لم ألحظها. ولقد قابلت فى طريقى حيوانات مفترسة، وحدث أن نظر إلى نمر بعينين مثل عينيك يا أيها الملك، لكن كل حيوان له قلب، ولقد تحدثت مع هذه الحيوانات كما أتحدث معك . وعندما كنت أقول للحيوانات إنى "أم" كانت تسير بعد ذلك فى طريقها وهى تتنهد، لأنها كانت تشعر نحوى بالشفقة. ألا تعلم أن الحيوانات أيضا تحب أولادها، وتعرف كيف تحارب من أجل حياتها وحريتها مثل الآدميين؟".

ويتأثر ملك الملوك "تيمور لنك" بكلام المرأة ويعلق عليه بقوله: ".. لقد نطقت بالصواب يا امرأة، فهذه الوحوش على ما أعرف تحب بقوة أكبر، وهى تحارب بعناد أشد من عناد الآدميين".

وهنا ينطلق صوت "كرمانى" الشاعر الذى يتخيل جوركى نفسه مرافق دائم للملك من أجل أن يقول له الحق دون أن يخشاه، ويقول الشاعر الجميل ".. يصبح الجبل سهلا أمام الذى يحب. لن تكون هناك سعادة بدون حب، ولا حب بدون امرأة، وبدون الأمهات لن يوجد أبطال ولا شعراء".

وبعد أن ألقى الشاعر بكلماته التى هى شعر يفوق كل شعر آخر، عادت المرأة تقول للملك: "أيها الملك أريدك أن تقوم بإعادة طفلى إلى، فأنا أمه، وأنا أحبه وأنت تملك ابنى الآن، لأن القراصنة الذين خطفوا ابنى قد قبض عليهم "بايزيد"، وأنت حاربت "بايزيد" وقهرته، وانتصرت عليه وحصلت على كل ممتلكاته، ولابد أنك تعلم مكان ابنى ولابد أن تعطينى إياه".

ويهتز ملك الملوك أمام كلمات المرأة، ويتذكر الحادث الخاص الأليم، وهو أنه فقد ابنه الوحيد "جيجا"، ولعل تيمور لنك قد ملأ الأرض شقاء وموتا وإسالة لدماء الناس انتقاما من الموت.. الذى أفقده نور عينه، أى ابنه الوحيد.

وبعد أن سمع ملك الملوك كلام المرأة التى تطالبه بإعادة ابنها إليها قال: "..
أنا تيمور خادم الله، أقول ما يجب قوله: لقد عشت سنوات طويلة والأرض تئن تحت وطأة قدمى، وقد ثابرت على تدمير العالم طوال ثلاثين سنة انتقاما لموت ابنى "جيجا"، هذا الموت الذى أطفأ شمس الحياة فى قلبى، ولقد حاربنى الرجال من أجل الممالك والمدن، ولكن أحدا لم يحاربنى من أجل الإنسان، ولم يكن للإنسان فى نظرى أى قيمة قبل الآن، أى قبل أن أستمع إلى هذه المرأة "الأم". لم أعرف من قبل ما هو الإنسان، ولم أعرف لماذا يعترض سبيلى، أنا الذى قلت للملك "بايزيد" عندما انتصرت عليه وهزمته: ..يا "بايزيد"، لابد أن هذه الأقطار وهؤلاء الآدميين لا يساوون شيئا عند الله، وإلا لما جعلنا حكاما عليهم.. أنت "الأعور" وأنا "الأعرج".. لقد قلت له ذلك حينما جئ إلى به مقيدا فى الأغلال، وهو لا يستطيع النهوض تحت الأثقال".

ثم يواصل ملك الملوك كلامه فيقول: "..أنا تيمور خادم الله، أقول ما يجب قوله. أمامى هنا تجلس امرأة.. إحدى الآلاف المؤلفة.. وقد أيقظت فى نفسى مشاعر لم أعرف لها مثيلا أبدا، وهى تحدثنى كما تتحدث مع ندلها، وهى لا تسأل بل تطالب، وأنا الآن أرى وأفهم لماذا هذه المرأة قوية، لقد أحبت، وعلمها الحب أن طفلها هو شعلة الحياة، والتى يمكن أن تظل مشتعلة لقرون وقرون إلى مالا نهاية".

بعد ذلك أمر تيمور لنك ثلاثمائة من فرسانه بأن يرحلوا فى الحال إلى جميع أركان العالم "وسوف يجدون ابن هذه المرأة، وسوف تنتظر هى هنا، وسوف أنتظر معها، والذى يرجع بالطفل فوق ظهر حصانه سوف تكون له ثروة عظيمة.. هذه الثروة هى أنا.. تيمور الذى يتكلم .. سوف أكون مملوكا لمن يأتى بالطفل".

ثم يتوجه تيمور لنك إلى المرأة ويسألها : .. هل كلامى سديد وصائب أيها المرأة؟. وأزاحت المرأة شعرها الأسود إلى الخلف، بعيدا عن وجهها، وابتسمت له وقالت:

- نعم .. أيها الملك..

وينهى جوركى النبيل قصته بكلام عجيب يقول فيه "..وابتسمت المرأة وابتسم جميع الملوك والأمراء، وابتسم الزعماء كانوا جميعا أطفالا وهم ينظرون إليها.. إلى الأم. كل هذا حقيقى. كل كلمة هنا هى الحقيقة، فأمهاتنا يعلمن هذا . اسألهن. وسوف يقلن لك: نعم كل هذا حقيقة خالدة.

نحن أقوى من الموت. نحن اللواتى نأتى إلى العالم بحكماء وشعراء وأبطال. نحن اللواتى نرضع الرجال بكل ما يجعلهم عظماء".

فى هذه الأرض، ومن خلال هذه الثقافة القوية التى تقدس الأمومة، خرجت الأمهات الروسيات ليطلبن التفاوض مع ثوار الشيشان ويقلن للعالم: لقد فقدنا أبناءنا بسبب هذه الحرب، ومن الوفاء لدماء الأبناء أن نعمل على وقف هذه الحرب ووضع حد لها. وما أقوى الأمهات حين يقررن قرارا لا رجعة فيه.

الجميل الذى لا قلب له

يقول الأديب الروسى الإنسانى الكبير مكسيم جوركى ١٨٦٨ - ١٩٣٦ فى أول سطر من إحدى قصصه القصيرة: إن الإنسان يستطيع أن يتحدث بلا انقطاع عن الأمهات. وفى قصة قصيرة أخرى يتوقف جوركى قليلا عن تقديم أحداث قصته ليكتب أنشودة شعرية عذبة عن الأم. ونحن بصورة عامة - لا نجد عند هذا الكاتب صاحب القلب الكبير فرقا بين الشعر والنثر، وكثيرا ما تمتلئ قصصه بأشعار تعبر عن موقف من المواقف، وخاصة عندما يكون هذا الموقف مليئا بالعاطفة، أى أنه موقف غنائى، وفى مثل هذه المواقف لا يكون هناك تعبير عن مشاعر الإنسان أفضل من الشعر والغناء. وفى أنشودة جوركى التى كتبها فى إحدى قصصه القصيرة يقول هذا الفنان الجميل: أهناك ما هو أجمل من أغنية الأزهار والنجوم؟. الجميع يعرفون الجواب. إن هذه الأغنية الأجمل هى أغنية الحب. ولكن هناك أغنية أخرى هى أجمل من كل أغنيات العالم على الإطلاق. إنها أغنية لتلك التى نسميها باسم: الأم. لا أعرف فى أدب الدنيا كلها أديبا فنانا عبقريا موهوبا جعل من الأم والأمومة نبعا لا ينتهى للفن الجميل والمشاعر الطيبة النبيلة مثلما فعل جوركى ، فلا يوجد أبدا من يشبه جوركى العظيم أو يقترب منه فى هذا المجال، فهو شاعر الأمومة الأول فى أدب العالم كله، والجميل الرائع فى نظره جوركى للأمومة وتعبيره عنها وتصويره لها أنه لم يتخذ أبدا موقف الواعظ الأخلاقى من قريب أو من بعيد، بل إن موقفه من الأمومة هو موقف الشاعر والموسيقار والصوفى، فهو يرى فى الأمومة أصل الحياة ونبع الجمال ومصدر الحب، ولذلك فهو يحمل كل ادواته الموسيقية التى يملكها، أى قلمه وقلبه، لينشر على الأرض ألحان الأمومة ويغنى أغانيها ويملأ بعطرها كل أركان الوجود.

تعرض جوركى للأمومة فى صورها المختلفة وجوانبها المتعددة، ولكن أصعب المواقف هى - ولا شك - أن تكون الأم هى أم لابن خان وطنه واعتدى عليه،

هنا يمكن أن يقف قلب جوركى النبيل الحساس عاجزا عن التعبير والتحليل، فهل يمكن لهذه الأم أن تنساق وراء مشاعرها الفطرية وتتقبل خيانة الابن وتلتمس لها الأسباب والمبررات؟. إن هذا الموقف يكون لونا من الضعف، ويكون شرا لا شك فيه، والأمومة عند جوركى هى الكمال والجمال والخير المطلق. أما الشر فهو متناقض فى طبيعته مع الأمومة كما يفهمها جوركى ويعشقها، وكما يقدمها إلى الناس فى أدبه البسيط الجميل.

هذا ما يعالجه جوركى فى قصة بديعة له عنوانها "أم الخائن" والترجمة للأستاذ فوزى جرجس.

ماذا تفعل الأم، واسمها ماريانا فى ابنها الخائن الذى هو فى القصة بلا اسم، ولكنه موجود فى القصة بصفته كمستبد طاغية عدوانى سكران بخمرة قوته العسكرية، مصمم على الخيانة وعلى تدمير مدينته لأنها تقاومه ولا تدين له بالطاعة ولا ترضى أن تحنى رأسها لطغيانه واستبداده واستهانته بالناس وانفراده بكل الأمور فى غطرسة وغرور.

وهكذا وجدت الأم ماريانا نفسها بين نارين، فمدينتها مدينة لها قضية عادلة ومطلب مشروع فى الأمن والعدل والمحافظة على كرامة الناس وكرامة الحياة. وفى المقابل فإن هناك ابنها الوحيد الذى تعشقه، ولكنه هو قائد جيش العدوان الذى يهدد المدينة ويحاصرها ويدمر بيوتها ويقتل أهلها ويقضى على كل ما فى حقولها وبساتينها من قمح وزهور.

وفى الظلام الذى يشمل المدينة المحاصرة التعيسة كانت ماريانا أم الخائن ملتفة بالسواد من الرأس إلى القدم، وكانت تتحرك بلا صوت، كأنها سمكة تهتز فى قاع النهر، وبوصفها مواطنة وأما، أخذت تفكر فى ابنها وفى بلدها، فعلى رأس الجيش الذى يسعى لإهلاك مدينتها يقف ابنها.. ذلك الجميل الذى لا قلب له.

وتفكر الأم كثيرا وهى تتجول فى طرقات المدينة، فتعود بها الذاكرة إلى وقت ليس ببعيد، حيث كانت تنظر إلى ابنها فى فخر ونشوة، وكانت تعتبره هويتها الرائعة إلى بلدها، وتتصور أنه قوة تعمل على الخير وتسعى لمساعدة سكان المدينة التى ولدت هى فيها مثلما ولد فيها ابنها وترعرع.

وأخذت تحسب فى قلبها حبها لمدينتها، ولم تستطع أن تتبين أيهما كان الأرجح.

وأخيرا استقر قلب الأم على قرار كتمته مثل السر العميق فى داخل صدرها، وذهبت بعد ذلك إلى رجال المقاومة الذين يدافعون عن المدينة وقالت لهم فى وضوح وشجاعة: ..لقد أصبح ابنى عدوكم، فإما أن تقتلونى أو تفتحوا لى الطريق حتى أذهب إليه. ويرد عليها رجال المقاومة قائلين: أنت إنسانة ويجب أن يكون وطنك عزيزا عليك. ابنك عدو لك، كما هو عدو لنا وترد الأم قائلة: أنا أمه، وأنا أحبه، وأحس أننى مسئولة عما أنحدر إليه.

وتشاور رجال المقاومة فيما بينهم ثم قالوا لهذه الأم: ليس من الشرف أن نقتلك من أجل خطأ ابنك. نحن نعلم أنه ليس لك ذنب فى ارتكابه لهذا الإثم العظيم، ونستطيع أن نفهم حزنك. لكن المدينة ليست بحاجة إليك حتى كرهينة، وابنك لا يهتم بك مقدار ذرة، ونحن نعتقد أنه قد نسيك، فهو لا إنسانية عنده. وقد نلت أنت عقابك، فقد كنت تظنين أنه جدير بك، وها نحن نرى أنه أكثر سوءا حتى من الموت نفسه.

وترك رجال المقاومة تلك المرأة تخرج من المدينة، فذهبت إلى المعسكر الذى يقوده ابنها، وبعد جهد، وجدت نفسها وجها لوجه أمام ابنها...

أخيرا، وقفت أما الشخص الذى حملته تسعة أشهر قبل ولادته، وهو الشخص الذى لم يفارق قلبها أبدا. وجدته أمامها يرفل فى ثياب من الحرير. أما أسلحته فهى مرصعة بالأحجار الكريمة. كل شئ كان كما تخيلته، فقد

رأت ابنها مئات المرات فى أحلامها بهذا المظهر.. غنيا ذائع الصيت وحائزا على إعجاب الناس.

قال لها وهو يقبل يديها: أمى لقد جئتنى. إنك معى. وغدا سوف أغزو تلك المدينة اللعينة. وترد عليه أمه قائلة: إنها مدينتك التى ولدت فيها فأجابها بعناد أملته الشباب، وقد أسكره سلطانه، وأطاح بعقله تعطشه لمزيد من القوة والمجد.. قال: لقد ولدت فى العالم، ومن أجل العالم، وفى نيتى أن اجعل الدنيا تهتز إعجابا بى لقد تركت هذه المدينة لفترة من أجل خاطرك يا أماه، ولكنها أصبحت الآن شوكة فى جنبى، وأصبحت عائقا يؤخر تقدمى السريع نحو القوة والمجد. وفى الغد سوف أقوم بتحطيم هذه المدينة العنيدة.

ويستمر الحوار بين الأم وابنها فيقول الابن: إنه لا يبقى فى ذاكرة الناس إلا الأبطال الخالدون فتقول له أمه: إن البطل هو الذى يخلق حياة تتحدى الموت.. البطل هو الذى يخلق حياة تتحدى الموت.. البطل هو الذى يهزم الموت. وفى عناد شديد يقول الابن: كلا. إن مخرب المدينة عظيم مثل بانيها. انظرى. نحن لا نعرف من الذى بنى روما، ولكننا نعرف جيدا اسم الروك والأبطال الآخرين الذين هدموا هذه المدينة.

ونترك جوركى ليعلق على هذا كله بأسلوبه الموسيقى وألحانه العذبة العجيبة فى تمجيد الأم والأمومة وفى اعتبارها القوة الأولى التى لا تعلو عليها قوة أخرى فى هذه الأرض. يقول جوركى: الأم تخلق وتحمى، وإذا تحدثت معها عن الموت فإن هذا يعنى إن الحديث ضدها. لكن إبنها لم يكن يدرك ذلك، ولم يكن فى حديثه مع أمه يفهم أنه إنما يلغى سبب وجودها وسبب وجوده. الأم دائما تتناقض مع الموت، واليد التى تأتى بالموت إلى بيوت الناس كريهة بغيضة عند الأمهات، لكن الابن لم يلحظ هذا كله لأن عيونه قد أعماها بريق المجد البارد الذى يقتل القلب. وما كان هذا الابن ليعلم أن الأم يمكن أن تكون ذكية وفيها جسارة عندما تكون الحياة التى تخلقها فى الميزان.

ثم يأتى المشهد الأخير فى هذه القصة الإنسانية البديعة حيث يقول الابن لأمه: قد نهاجم الليلة، إذا كان الليل مظلما بما فيه الكفاية، فالقتل صعب إذا أشرقت الشمس فى عينيك، وأعماك بريق السيوف، وعندها تذهب كثير من الضربات هباء بلا جدوى. وتقول له الأم: تعال يا بنى. ضع رأسك على صدرى واسترح. تذكر كيف كنت مرحا وعطوفا عندما كنت طفلا، وكان كل إنسان يحبك.

أطاعها ابنها ورقد على حجرها وأقفل عينيه قائلا: أحب المجد فقط. وأحبك يا أمى، لأنك صنعتنى كما أنا وسألته أمه ألا تحب النساء؟ فقال: إنهن كثيرات، والإنسان يشعر نحوهن بالملل، كما يشعر بالملل من كل شئ وافر الحلاوة. وأخيرا وجهت الأم إلى ابنها الجميل الذى لا قلب له آخر سؤال فكرت فيه فقالت: ألا تشتهى أن يكون لك أولاد فأجابها: ..ولماذا؟.. حتى يتعرضوا للقتل؟! سوف يقتلهم شخص مثلى، وهذا سوف يسبب لى ألما، وسأكون عجوزا وضعيفا فلا أستطيع أن أنتقم لهم فقالت الأم وهى تتنهد: إنك ـ يا ابنى ـ لبديع الحسن.. لكنك مثل البرق.. مجدب وعقيم.

.. وأخذه النعاس على صدر أمه، كما يفعل النعاس بالطفل دائما. وبعد أن غطته أمه بمعطفها الأسود، غرست فى قلبه سكينا، فأصابته رعشة، ثم مات على الفور. فمن الذى يعلم أكثر من الأم إن كان قلب ابنها ينبض أم لا وبعد أن ألقت الأم جثة ابنها عند أقدام الحراس المذهولين.

قالت وهى تخاطب المدينة: ..كمواطنة قد فعلت كل ما استطعت من أجل وطنى، وكأم.. فإننى سأظل مع ابنى.. لقد فات الأوان، ولن ألد إبنا آخر، فحياتى لم يعد منها جدوى لأى إنسان. وأمسكت بالسكين الذى مازال دافئا بدم ابنها الذى هو دمها ... وبيد ثابتة غرست السكين فى صدرها، ثم وجهت إلى قلبها طعنة أخرى أصابتها فى الصميم.. لأنه ليس من الصعب إصابة قلب ينبض بالألم.

تلك صورة للأمومة كما يرسمها جوركى عاشق الأمومة وشاعرها وعازف ألحانها والذى يتغنى بها كما لم يتغن بها أديب من قبله أو من بعده.

والأمومة هنا هى أمومة فى محنة صعبة جدا، لأنها تعانى من الصراع بين حب الوطن وحب الابن، وتريد أن تجمع بين حبين كبيرين لا يجتمعان أبدا معا، أى حب الوطن وحب الابن الخائن لهذا الوطن، وأمام هذا الاختبار الصعب العسير تصرفت الأم ماريانا كما رأيناها، فقتلت ابنها وهى تحتضنه، وبنفس السكين قتلت نفسها وأدخلت بعض دماء ابنها إلى داخل قلبها قبل أن تلفظ آخر الأنفاس.

إنها عبقرية الأمومة، وإصرارها الذى لا رجعة فيه ولا تردد على أن تجعل الحياة طاهرة وشريفة.

ثم.. ما رأيك فى بطيخة؟!

هل يمكننا أن نضع أيدينا فى وضوح وسهولة على الأسباب الحقيقية التى تمنح الإنسان شعورا كاملا بالراحة والأمان؟ هل يمكننا أن نعرف الطرق التى توصلنا إلى ذلك الشىء الغامض والجميل فى الوقت نفسه والذى نسميه باسم "السعادة" ونسميه أحيانا باسم "الفرح بالحياة"؟. مثل هذه الأسئلة ليس لها إجابات حاسمة، ولا أحد يستطيع أن يضع يده على كلام نهائى فى هذه الموضوعات، وكل ما هنالك هو محاولات للوصول إلى ما نسعى إليه من راحة ويقين. ومن بين تلك المحاولات جميعا تقف فى المقدمة محاولة الأديب الروسى الإنسانى العظيم مكسيم جوركى "١٨٦٨ - ١٩٣٦" فى كتاباته المختلفة، فجوركى يبحث فى كل خطوة يخطوها، ومع كل إنسان يلقاه، عن شىء جميل وبسيط ونبيل يجعلنا نتعلق بالحياة ولا نلعنها، ونحب الناس ولا نأخذ منهم موقف الخصومة والعداء.

جوركى فى معظم كتاباته يتحدث عن نفسه، وعن تجاربه الشخصية، وعن أشخاص عرفهم وعرفوه وشاركهم فى بعض الأعمال، وأقام معهم أحيانا فى مكان واحد، وكثير مما كتبه جوركى هو أشبه باليوميات أو المذكرات، ولكن موهبة جوركى العالية جعلت من ذلك كله فنا بالغ العذوبة والجمال، وإن أردت أن تسمى ما يكتبه جوركى باسم القصة أو الرواية وجدت ما يساند رأيك ويؤيده، وإن أردت أن تسميه شعرا خالصا صافيا متدفقا بعيدا عن كل القيود المعروفة فى الشعر فأنت واجد على قولك هذا ألف دليل ودليل، فجوركى فى نثره هو واحد من كبار الشعراء الذين عرفتهم الإنسانية فى كل العصور، وإن أردت ان تعتبر كتابات جوركى تعبيرا دينيا عن حب الحياة والإيمان بالإنسان والاعتراف بنعمة الله علينا جميعا لأنه وهبنا هذا الوجود الجميل الرائع فإنك

سوف تجد فى كتابات جوركى ما يساعدك على وصف كتاباته، بأنـها صادرة عن قلب متدين متبتل يتغنى بنعمة الحياة وعظمة الإنسان.

وفى جميع كتابات جوركى سوف تجد راية عاليـة ترتفـع مـن بـين جميـع الهموم والأحزان، هى راية الأمل والتفاؤل، بحيث يستحق جوركـى ان نسميه باسم "أمير المتفائلين" فـى الأدب والحيـاة، وتفـاؤل جوركـى ليـس ناتجـا عـن سذاجة أو عبط أو نظرة سطحية إلى الأمور.

فأمير المتفائلين هذا لم يصل إلى تفاؤله إلا من خلال التعب والألم والتجـارب القاسية المريرة، فـهو صـادق فـى تفاؤلـه، وهـو واثـق مـن صحـة هـذا التفـاؤل وإمكانية الوصول إليه إذا كنا قادرين على أن نفتح عقولنا وقلوبنـا للحيـاة، وأن نرى النور والجمال وقدرة الإنسان على احتمال المصاعب وسعيه الدائـم للتغلـب على المتاعب والمنغصات.

ما هى "الروشتة" التى يكتبها لنـا هـذا الطبيـب الإنسـانى العبقـرى مكسـيم جوركى لكى نطرق بها أبواب السعادة وندخل إليها ونحن آمنون؟

فى معظم كتابات جوركى نرى أن السعادة لا تتحقق أبدا بدون مشاركة، اى أنك لا تستطيع بسهولة أن تكون سـعيدا وأنـت وحيـد، لابـد أن يشـاركك فـى إحساسك بالرضا والفرح آخرون ممن يرتاح إليهم قلبك. وفـى قصـة مـن قصـص جوركى يقدم إلينا صورة حية للمتشرد "كونافولوف" وهو رجل قوى الجسـم، لا يعرف القراءة والكتابة، ينتقل من عمل إلى عمل ومن مكان إلى مكان ويعيش كما نقول "علـى بـاب الله" ولكنـه مـع ذلـك حكيـم وصـادق وصـاحب تجربـة فـى الحياة، وقد علمته التجارب أكثر مما تعلم غيره فى الجامعات، وهو يقول عـن نفسه: "قد لا أستطيع تنميق الكلام ولكنى أعرف دائما ما أقوله" ..هذا المتشدد الفيلسوف يدخل فى حوار طويل مع مكسـيم جوركـى، وعندمـا يشـعر بـالتعب فإنه يدعوه إلى المشاركة فى حفلة.. على الأرض وفى الهواء الطلق، وهى حفلـة بسيطة رخيصة لا تكلف شيئا، ولكنها قادرة على أن تبعث الفرح والبهجة فـى

النفوس، فالمشاركة هى المصدر الكبير لكل ما يسعد الإنسان .. وكانت هذه الحفلة على شاطئ البحر ولنسمع ما يقوله جوركى على لسانه:

"عندما تهبط الشمس وراء الأفق نشعل نارا ونعد الشاى، ولدينا أيضا بعض الخبز واللحم ..ثم ..ما رأيك فى بطيخة؟.. ودحرج بطيخة برجله من أحد الثقوب، وأخرج مطواة من جيبه وقال وهو يشقها: ..فى كل مرة أجد نفسى إلى جوار البحر أعجب لماذا لا يستقر إلى جانبه إلا هذه القلة من الناس. من الأفضل أن يتمتع البشر بالبحر، طالما هو رقيق معهم إلى هذا الحد ..إنه يوحى إليك بالأفكار الجيدة..

وفى هذا الجو، وفى هذه الحفلة البسيطة، وبالشاى والخبز والبطيخة، استطاع "كونوفالوف" المتشدد أن يوجد لنفسه ولزميله فى العلم والتعب مكسيم جوركى شعورا غامرا بالابتهاج والفرحة بالحياة.

فالمشاركة هى الأصل فى هذه السعادة التى لم تكن بحاجة إلى أموال كثيرة أو طعام فاخر .. ولكنها بحاجة ـ أولا وقبل أى شئ ـ إلى قلب عامر بالعاطفة، راغب فى مشاركة الآخرين له. خاصة إذا كان يحبهم ويحبونه.

ثم ماذا نجده بعد فكرة "المشاركة" فى برنامج جوركى للحصول على البهجة والاستمتاع بالحياة؟

إنه يدعونا إلى احترام كل شئ فى هذه الحياة وعدم الاستهانة بما نراه حتى لو بدا صغير الشأن قليل الأهمية ، ولنسمع جوركى يقول: "..يجب علينا أن نحترم حتى "الحجارة" فما عسانا نصنع بدونها؟. بالحجارة نبنى الأرصفة والطرق والبيوت والمعابد.. وعلينا أن نحترم جميع الأشياء المخلوقة، إذ أن الله لم يخلق شيئا عبثا ودون مبرر". من هذه النقطة التى يدعونا فيها جوركى إلى احترام كل المخلوقات حتى لو كانت حجارة، فإنه يدعونا للالتفات إلى الطبيعة وإقامة صداقة عميقة معها، وها هو يحدثنا عن الشمس حديثا شعريا فاتنا فيقول: "..أحب الشمس محبة خاصة.. أحب اسمها العذب الجذاب.. أحب

موسيقاها المنسجمة الساحرة.. أحب أن اعرض وجهى لأشعتها اللاذعة وأنا مغلق العينين.. وأن أقبض عليها حين تمر على راحة يدى كالسيف من خلال شق فى جدار خشبى أو من خلال الأغصان.. وإذا ما أشرقت الشمس على الحقول.. أبتسم لها بصورة غريزية .. ودون إرادة أو قصد".. وهكذا يجعل جوركى للشمس موسيقى ساحرة، ويحس فى اسمها بالعذوبة والجاذبية. لن تكون لنا بهجة فى الحياة إذن دون احترام جميع الأشياء الموجودة على هذه الأرض، ودون أن تكون لنا علاقة عاطفية حميمة مع الطبيعة.. خاصة مع الشمس.

ويصف لنا جوركى صديقه المتشدد الجاهل الفيلسوف القادر على صناعة البهجة من الهواء، أى من لا شئ، فيقول: "..كان كونوفالوف يحب الطبيعة حبا عميقا يجل عن الوصف. وكلما وجد نفسه فى الحقول أو فوق مياه النهر تستولى عليه حالة شاعرية رقيقة تجعل منه أقرب إلى الأطفال، وفى بعض الأحيان كان يقول فى تنهيدة عميقة وهو يحدق فى السماء: "آه .. هذا هو الشئ!". وكنت أرى فى هذه الصيحة الواحدة فكرا وشعورا أكثر مما أجده فى أعمال كثير من الشعراء، ولا سيما هؤلاء الذين يستمدون الوحى من رغبتهم فى أن يظهروا أناسا رقيقى العاطفة أكثر مما يستوحونه من الحب الصادق لمظاهر الجمال فى الطبيعة، فالشعر مثل أى شئ آخر يفقد بساطته المقدسة، إذا تحول إلى صنعة".

هناك بعد البهجة النابعة من حب المشاركة والتعاطف مع الطبيعة دعوة إلى الحركة والعمل والتجربة والبحث عن فن الحياة وثقافة الحياة، مع عدم الاكتفاء بفن الكتب وثقافة الكتب. وهذا المتشرد الجاهل الفيلسوف يلقى تعليماته على مكسيم جوركى نفسه ويقول له: "لقد كان شيئا أن تعيش هكذا يا مكسيم، ما الذى يعجبك فى حياتك؟ إنها حياة جافة لا هواء ولا فضاء، ولا شئ مما يحتاجه الإنسان ..الناس؟ إنهم يوجدون فى كل مكان الكتب؟. كفى

قراءة للكتب. هل هذا هو ما ولدت من أجله؟ ألا يمكنك الاستغناء عن هذه الكتب؟ إذن اشتر لنفسك كتابا، إن كان لا غنى لك عن ذلك، وضع هذا الكتاب فى حقيبتك، وأخرج لتتجول معى، لقد قررت أن أذهب إلى كل مكان، فهذا هو الشئ الوحيد الذى يمكننى عمله وعندئذ ..أى عند الحركة والتجوال ..سترى على الدوام أشياء جديدة، ولن يضيع وقتك فى التفكير .. أمش إلى الأمام .. واترك الريح تهب فوق وجهك وتزيل عن نفسك كل الأشياء السيئة التى فى داخلك ..عندما تكون حرا نظيف القلب.. لا يستطيع أحد أن يضايقك .. وعندئذ سوف ترى شيئا ما فى هذا العالم .. شيئا من جماله وفتنته. ألا تريد أن تشاركنى؟"!

فالبهجة إذن هى ثمرة الحركة والتنوع والتجديد، وليست أبدا ثمرة الخمول والكسل والحياة فى قفص من حديد.

وأخيرا نتوقف عند نقطة أساسية فى التعامل الصحيح مع الحياة عند جوركى وهذه النقطة تتلخص فى أن كل إنسان مسئول عما يصل إليه، ولا أحد غيره يلام على فشله"، وفى هذا المعنى الأساسى يقول المتشرد الفيلسوف صديق جوركى وزميله فى معركة الحياة، والترجمة للأستاذ محمد العزب موسى: "إنكم لا تنظرون إلى الأمور النظرة الصحيحة، فأنتم تتكلمون كما لو لم تكونوا أنتم أنفسكم الذين أوصلتم حياتكم إلى هذا الوضع، إذا كانت قد صادفتكم عقبات فى الحياة، فلماذا سمحتم لها بالتأثير عليكم؟ لماذا لم تعلنوا الحرب عليها؟. إننا دائما نشكو من الآخرين، ولكننا بشر أيضا، ألسنا كذلك؟ ولذا فإن من الممكن أن يوجد من يشكو منا أيضا، فإذا كان أحد قد أعترض طريقنا، فمن المحتمل أن نكون نحن قد اعترضنا طريق شخص ما.. أليس كذلك؟!"

وأخيرا.. "إذا كنا لا نستطيع أن نصلح حياتنا، فمن لنا غيرنا، يهتم بنا؟ ..و.. "تبقى الحياة رائعة من أجل كل ما فيها من مباهج حبيبة".. هكذا يحدثنا جوركى.. وأظن أنه صادق وأنه ليس من الخادعين الكاذبين.

الشيخ الذى أراد أن يكون وزيرا للمالية!

ما قيمة الأفكار إذا لم تؤثر فى الحياة وتنفع الناس؟ إن الأفكار الجيدة هى مثل الشجرة التى تقدم لنا ثمارها وظلالها وتعطينا، عندما يجئ الربيع، إحساسا بالجمال، وبهجة باخضرار الأوراق وتجدد الحياة، والأفكار الحية لا تطيق لنفسها أن تبقى مجرد أفكار نظرية محبوسة فى عقول أصحابها أو محددة الإقامة على الورق، فالفكرة الطيبة لابد أن تخرج إلى الحياة، وإذا وجد أصحابها مالا يرضيهم فى المجتمع أو بين الناس، فإن عليهم أن يكونوا شجعانا وأن يقولوا كلمة الحق التى بها يؤمنون، ولو غضب الغاضبون، والشجاعة بالطبع ليست هى الاندفاع والتهور، وليست هى الانتحار، بل الشجاعة هى حسن الاختيار للموقف الذى يمكن أن يرتفع فيه صوت المفكر بما يعتقد أنه حق وصواب، فإن كانت هناك مخاطر تحتاج إلى تضحيات فإن المفكرين الشجعان لا يقولون فى هذا المقام إلا .. أهلا بالمعارك ورجال الفكر والشجاعة لابد لهم قبل كل شئ أن يكونوا فى علومهم مؤهلين لها على أعلى المستويات، وذلك حتى يتمكنوا من الحصول على احترام الناس لهم، فالناس لا يصدقون إلا من يحترمونهم أولا، ولا احترام لعالم زائف ولا لمن يدعى أنه مفكر وهو ليس كذلك.

لا قيمة للأفكار النظرية المجردة التى تغلق على نفسها الأبواب والنوافذ وتتخاصم مع الحياة وتتعالى على الناس.

ولا قيمة للأفكار المترددة المرتعشة التى تفر هاربة من معارك الحياة عند أول شعور بالخطر، وأول إنذار بأن هناك متاعب وأخطار وصعوبات.

وفى تاريخنا الثقافى صور حية للفكرة المقاتلة، وللمفكرين الشجعان الذين نالوا احترام الناس بالعلم، ثم استدعتهم الحياة إلى قول الحق، فقالوه ... ولم

يقولوا للناس ما قاله اليهود لموسى عليه السلام: "إذهب انت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون"!

هذا هو الوالى التركى حسن الباشا الجزائرى يأتى إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر مزودا بفرمان من السلطان العثمانى يعينه فيه حاكما على مصر.. وكلمة "فرمان" هى كلمة فارسية معناها "أمر السلطان" وربما كانت أقرب ترجمة عربية لها هى كلمة "مرسوم".

بهذا الفرمان أو المرسوم يدخل الوالى التركى على مصر والمصريين دخول الطغاة المغرورين المستبدين الظالمين، وفى ذهنه الذى طمسته قلة التربية السياسية والثقافية والدينية أن مصر وأهلها هما عزبة مملوكة له أهداها إليه السلطان ليرتع فيها و "يبرطع" على هواه ويفعل ما يشاء.

وبدأ الوالى التركى يتصرف منذ اللحظة الأولى على هذا الأساس، فأخذ يصادر الأموال ويسجن الرجال ويقبض على النساء والأطفال، ويحملهم إلى الأسواق ليبيعهم فيها، حيث كانت أسوأ تجارة فى التاريخ الإنسانى لا تزال قائمة ومشروعة، وهى تجارة "الرقيق" أى بيع الإنسان فى الأسواق كما يباع الحصان والحمار والبغل، ولم يكن الوالى "حسن باشا الجزائرلى" يتصور أنه سوف يلقى أى عتاب أو حساب أو معارضة، فمن أين يأتيه شئ من ذلك فى بلد ظن أنه هامد بلا روح، وأن أهله مغلوبون على أمرهم وليس لهم فى مصيرهم إرادة أو قرار أو كلمة مسموعة، ولكن هذا الوالى الباطش القاتل فوجئ بمن يقول له "لا" وجاءت هذه "اللا" من حيث لا يتوقع، أى من علماء الأزهر الذين ظن الوالى أنهم مشغولون بذكر الله، وأن ذكر الله يمنعهم من أن يقولوا "لا" لمن يقال عنه إنه "ولى الأمر" حتى لو كان هذا "الوالى" من كبار الطغاة.

كيف أفعل ذلك؟ وماذا أفعل مع علماء الأرض؟ والشيخ الطويل عالم عالى؟!

ويعلق المفكر الأديب الأستاذ على الطنطاوى على هذه القصة الواقعية التاريخية التى أعتمد فيها على كتاب لم أستطع العثور عليه عنوانه "من

أخلاق العلماء" للشيخ محمد سليمان يقول الأستاذ الطنطاوى عن موقف الشيخ حسن الطويل وأمثاله من العلماء: "كذلك كانوا أى العلماء زهودا فى الدنيا، وهابوا الله، فهابهم الناس".

وتبقى صورة بديعة أخرى تصور لنا مدى إجلال الناس لأمثال هؤلاء المخلصين للعلم، الواقفين بلا تردد مع الحق، السعداء دائما بأن يحملوا هموم الناس ويتصدوا بشجاعة وكرامة لكل من يعتدى على المواطنين ويحاول إلحاق الأذى بهم، فهؤلاء العلماء كانوا يجمعون بين سمو الفكر وصدق الرغبة فى العمل عندما يدعوهم الداعى إلى أن يخرجوا من محراب العلم إلى معركة الحياة، فلا يترددن، ومن هنا كان لهم بين الناس مقام رفيع، ولهم بين زملائهم ورفقائهم مكان لايدانيه أى مكان آخر

هذا هو الشيخ ابراهيم الباجورى أو "البيجورى" شيخ الأزهر فى الفترة ما بين ١٨٤٧ إلى ١٨٦٠، كما جاء فى دراسة الأستاذ على الطنطاوى "كان يجلس بعد المغرب فى صحن الجامع الأزهر فيقبل عليه العلماء والطلبة يقبلون يده، وكان الشيخ "مصطفى المبلط" وهذا هو اسمه - أكبر من الشيخ الباجورى سنا، وكان ينافس الباجورى فى طلب مشيخة الأزهر ولكنه لم ينلها، ومع ذلك كان الشيخ مصطفى "يندس" بين الطلاب ويقبل يد الشيخ الباجورى، فانتبه إليه الباجورى مرة فأمسك به، وبكى، وقال له "حتى أنت يا شيخ مصطفى؟ لا. لا فقال الشيخ مصطفى "نعم وأنا لقد خصك الله وجب علينا إقراره وصرت شيخنا فعلينا توقيرك.

إنها حكايات تشرح الصدر، وترفع الهمة، وتعلى من كرامة المفكرين والعلماء الذين يعملون بما يقولون، ولا يخافون إلا الله، ويرفعون راية العدل والحرية فوق جميع الرايات وجميع القامات، ويتعففون دائما فيرى فيهم الناس منارات، ولا يرون فيهم طامعين متلهفين على صغائر الحياة.

طيب وصالح جدا

كانت مفاجأة سارة أن يقدم "ملتقى الرواية العربية" جائزته هذا العام لحبيبنا وعزيزنا الكاتب الروائى العربى السودانى الكبير الطيب صالح، وقد كانت لجنة التحكيم برئاسة الأديب والمفكر والروائى المبدع إدوارد الخراط فى غاية التوفيق عندما اختارت الطيب صالح لهذه الجائزة.

ولا أظن أبدا أن القيمة المادية العالية للجائزة، وهى مائة ألف جنيه، هى التى تعطى لمثل هذه الجائزة أهميتها، خاصة بالنسبة للطيب صالح الذى لم يعرف أحد عنه اهتمامه بالمال أو سعيه إليه، وقد أتيحت للطيب فرص كثيرة جدا لكى يكون من أثرياء الأدباء، ولكنه كان على الدوام رجلا زاهدا عف اليد والقلب واللسان، لا تغريه مظاهر الحياة، ولو كانت ذات بريق يخطف الأبصار، ولا يرضيه من الدنيا إلا أن يعيش بين الناس محبا ومحبوبا من الجميع.

مجال الحديث عن الطيب صالح واسع ومتنوع وكبير، وهو من اكثر الأدباء العرب المعاصرين الذين تناولتهم دراسات عربية وأجنبية متعددة، وليس أمامنا اليوم إلا أن نشير إلى بعض اللمحات السريعة فى شخصية هذا الأديب العربى الكبير، وأول ما يلفت النظر فى كتابات الطيب صالح أنه كاتب لديه شعور إنسانى غامر ودافئ وأصيل، وهذا الشعور يفيض على السطور وما بين السطور وما وراء السطور فى ظل أعماله الأدبية.

وآخرها كتابه الجديد الرائع الذى يحمل عنوان "المنسى" والذى هو مزيج من الفن الروائى والمذكرات والتجارب الشخصية، ونحن دائما نحس فى أدب الطيب صالح انه ممتلئ بالعطف والحنان على كل شخصياته، وفى هذا الأدب نحس بروح "الغفران" لكل هذه الشخصيات التى يقدمها الطيب فى أدبه حتى لو كانت هذه الشخصيات من الأشرار أو الذين تحالفوا مع الشيطان، فالطيب

يقدمهم دائما وكأنه يلتمس لهم أعذاراً تخفف من سخطنا عليـهم ورفضنـا لهـم. وأدب الطيب ـ على الإجمالى ـ هو أدب إنسانى ملئ بالعاطفة الصادقة والعطف العميق تجاه كل ما يكتبه يقول لنا: إن الإنسان يتألم كثيرا وأن المصير الإنسانى محفوف بالدموع "فن الرحمة" على الجميع ومع الجميع، لأنه لا أحد فى هـذه الدنيا، مهما افـترى وتجـبر، يمكنـه ان يفلـت مـن الحـزن أو ينجـو مـن الألم والعذاب، ولعل الطيب الصالح فى أدبـه ينظـر إلى النـاس كمـا نظـر إليـهم أبـو العلاء عندما قال اكثر من ألف سنة:

نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا

برغمهم، فإذا النعماء بأساء.

هذا الحس الإنسانى الدافئ الصادق لا يخطئه أحد فى كتابة الطيب الصـالح وفى أدبه كله من أوله إلى آخره، ويتصل بهذا الإحســاس أو ينبـع فيـه، نظـرة صوفية إلى الحياة والناس فالعالم الظاهر لنا ليس هو الحقيقة، بل هو جزء يسير منها، والعين التى لا ترى إلا المظاهر فإنها لا ترى شيئا، أما العين التــى تـرى ما تخفيه المظاهر فهى العين التى تعرف الحقيقة، وفـى روايـة الطيـب الرائعـة "عريس الزين" تتزوج أجمل بنت فى القرية من "الزين" الـذى يعتـبره الجميـع "عبيط القرية" وأقل أبنائها أهمية وقيمة، ولذلك فإن هذا العبيط، كما يراه أهل القرية، غير جدير بهذه المكافأة وهى أن يتزوج من أجمل بنت فى القرية، وهذا هو المنطق الظاهر، ولكن المنطق الآخر الذى يرى ما لا تـراه العيـون، يـدرك أن الجمال الذى يختفى فى شخصيته "الزين" هو جمال إنسانى غير محدود، وهذا ما شعرت به وفهمته فتاة القرية الحسناء، فتزوجت "الزين" بين دهشة الجميع وإحساسهم بالصدمة، فالعريس هنا لا يثير بين النـاس سـوى السـخرية منـه أو الإشفاق عليه فى أحسن الأحـوال، أمـا أن يكـون "فـارس الأحـلام" و "حبيـب القلب" والفائز الأكبر بست البنات وأجمل الجميلات فى قريته فهذا شىء يثير

العجب، ولكنه فى أدب الطيب صالح هو تعبير صادق عن عبقرية الحياة التى لا تتوقف عند المظاهر الخادعة، ولكنها ترى ما هو أبعد وأعمق.

ثم ماذا؟

الطيب صالح لديه "رؤية حضارية قوية ونافذة، فهو واحد من الكبار أصحاب هذه الرؤية، والذين يمكن أن نقول عنهم إنهم أدباء "يدهم فى النار" فهم يشعرون شعورا عميقا بأحوال شعوبهم ويحملون فى أمانة وإخلاص هموم هذه الشعوب فى قلوبهم وكأنها هموم شخصية خاصة،ويمكننا هنا أن نضع اسم الطيب صالح فى هذا المجال بين أسماء كبيرة أخرى لها فى القلب العربى والتاريخ العربى مكان عزيز مثل: توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى ويوسف إدريس، وهؤلاء الأدباء الكبار جميعا كانت لهم رؤية حضارية أصيلة وعميقة، ورؤية الطيب صالح تلخصها لنا قصته القصيرة البديعة "دومة ود جامد" والدومة هى شجرة . وكلمة ود أصلها ولد" أى ابن، والفكرة الحضارية الشعرية فى هذه القصة تقوم على أن بعض الذين يريدون إدخال الآلات الحديثة إلى القرية يعملون فى الوقت نفسه على أن يقطعوا الشجرة الكبيرة القديمة الموجودة فى القرية، لأنهم يرون فى هذه الشجرة عائقا يقف فى وجه مشروعهم لإدخال الآلات الحديثة، ويدور صراع عنيف بين من يريدون اقتلاع الشجرة وبين من يدافعون عنها ويريدون المحافظة عليها، وتنتهى القصة فى جمال وعذوبة بالإشارة الحضارية العظيمة إلى أن بقاء الشجرة لا يمنع ادخال الآلات الحديثة وفى هذه الرؤية الحضارية للطيب صالح ما يذكرنا بالقول الشهير للزعيم القديس غاندى من أنه يفتح نوافذه لكى تهب عليه كل رياح الشرق والغرب، ولكنه لا يسمح لأى ريح أن تقتلعه من جذوره الممتدة فى أرض وطنه وتراثه وتقاليده، فغاندى يدعو إلى الثبات فى الأرض مع الترحيب بكل ما يقدمه الآخرون من خير وإضافة ومعرفة جديدة، وتلك هى نفسها رؤية الطيب صالح التى نحس بها فى كل أعماله الأدبية المتنوعة.

يبقى أن نشير إشارة سريعة إلى لغة الطيب صالح فالطيب كاتب رواية وقصة ومقالة، ولكنه فى هذه الفنون جميعا شاعر كبير، وكثيرا ما أنتهى من قراءة ما يكتبه الطيب صالح وأغلق صفحات الكتاب أو المجلة، فأحس أننى "أستمع" إلى ما كنت اقرأه منذ قليل، وذلك بسبب الشعر الذى يملأ نثر الطيب صالح وهو شعر حقا، بل هو موسيقى والطيب صالح عازف ماهر موهوب، فهو يعرف جيدا كيف يستخدم إمكاناته الشعرية، فلا تغرق فيها كتاباته ولا تكون هذه الكتابة محرومة من هذه الشاعرية العذبة الجميلة فلا يستخدم شاعريته بمقادير محسوبة مما يحقق لها قيمتها وتأثيرها ويجعل منها نورا خفيفا رقيقا يضئ ادبه كله، ونحن نعرف أن الطيب صالح عاشق للغة العربية، وأنه من أكثر الأدباء العرب الذين عرفتهم أو قرأت لهم وعنهم حرصا على تلاوة القرآن تلاوة فهم روحانى وتذوق فنى جمالى فى الوقت نفسه، والطيب صالح أيضا هو قارئ للشعر العربى القديم، وهو مفتون بهذا الشعر، عارف بأسراره، ولذلك كله فليس من المدهش أن يكون للطيب صالح لغته الشعرية الجميلة الحساسة المليئة بالموسيقى والروحانية الصوفية العجيبة.

الطيب صالح كاتب مؤثر، فيه حيوية وقوة وعنفوان، وما من مرة قرأت له إلا وشعرت أن حرارة هذا الكاتب والفنان الكبير تنتقل إلى داخلى، فتجعلنى أقوى وأشد عزما على مواجهة الحياة فليس فى أدب الطيب صالح كسالى ولا خاملون، فالكل أقوياء أشداء يريدون أن يؤثروا فى الدنيا، وأن يحبوا بعنف، ويكرهوا بعنف ويخوضوا أيامهم بحرارة وإرادة قوية، فأدب الطيب هو أدب العافية والصحة والرغبة القوية فى مواجهة الحياة، وخوض معاركها، والتأثير فيها وليس أدب الخمول واليأس والرضا بالحياة على الهامش أو على الرف.

شكرا للذين قدموا الجائزة - باسمنا جميعا - لهذا "الطيب والصالح جدا" فى الأدب والحياة والأخلاق الإنسانية المتحضرة العالية الرفيعة.

ولىٌّ صالح .. بدون عمامة!

في يوم من الأيام ذهب أحد المعلمين إلى لقاء مع الأديب العظيم "أنطون تشيكوف" ١٨٦٠ – ١٩٠٤ وقد استعد هذا المعلم ليوم اللقاء استعدادا كبيرا، وظن أن عليه، مادام سوف يلتقى بأديب كبير مشهور، أن يقول كلاما مهما جدا، وذلك حتى يبدو أمام "تشيكوف" مثقفا كبيراً، قرأ الكثير من الكتب، وعرف العديد من المصطلحات التى تجعل تشيكوف يحترمه وينظر إليه على أنه شخصية لها قيمة واعتبار، ولكن المعلم فوجئ بعد لقائه مع تشيكوف حين وجد نفسه أمام إنسان بسيط متواضع يتكلم فى أمور الحياة العادية كما يتكلم غيره من الناس، وفى نهاية اللقاء، قال المعلم وهو يوجه حديثه إلى تشيكوف:

لقد أتيت لرؤيتك، وأنا أتصور أننى مقبل على رؤية إنسان مترفع عن الناس، ولهذا كنت أرتعش، وصممت على أن أظهر أمامك على أننى رجل له قيمته، ولكننى أتركك الآن، وأشعر بأننى عندما أودعك إنما أودع صديقا حميما يتفهم كل شئ، شكرا لك، إننى ذاهب بعد لقائك وأنا أحمل فكرة ثمينة جدا، وهى أن الناس العظماء هم أكثر بساطة فى حياتهم وسلوكهم مما يتصور الكثيرون، وهؤلاء العظماء البسطاء هم أكثر فهما للأمور، وهم أقرب إلى الفقراء وإلى بنى البشر العاديين، وداعا، أنا لن أنساك بعد لقائنا أبداً".

تلك هى القصة التى يرويها مكسيم جوركى "١٨٦٨ - ١٩٣٦" عن تشيكوف فى مقدمته لكتاب الناقد الفرنسى "هنرى تروبا" عن "تشيكوف" وهو كتاب جميل ومهم، وقد ترجمته إلى العربية الأستاذة "حصة منيف" ونشره المجلس الأعلى للثقافة فى مصر ضمن سلسلة "المشروع القومى للترجمة".

تذكرت صورة "تشيكوف" التى رسمها "جوكى" وأنا أفكر فى الكتابة عن الجانب الإنسانى فى شخصية أديبنا العربى السودانى الكبير الطيب صالح بعد أن فاز بجائزة الرواية العربية من "ملتقى الرواية" الذى انعقد أخيرا فى المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، فالطيب صالح هو أيضا من هذه المدرسة

الجميلة النبيلة التى يمثلها "تشيكوف" وهى مدرسة الانسانية والبساطة واحترام الناس وعدم التعالى عليهم، ومدرسة الرفض الكامل للافتعال والتزويق والزخارف الكاذبة والتظاهر غير الكريم بالعلم والمعرفة، وقد عدت إلى الكتاب الضخم الذى أصدره أصدقاء الطيب صالح سنة ١٩٩٩ بمناسبة عيد ميلاده السبعين، فالطيب من مواليد ١٩٢٩، وقد اشترك الكثيرون من أصدقاء الطيب فى كتابة فصول هذا الكتاب القيم، وساهم الجميع فى إلقاء الضوء على أدب الطيب صالح وشخصيته الإنسانية، وعند الجانب الإنسانى أحب أن أتوقف فى هذا الفصل، وقد أشرف على إصدار هذا الكتاب الأديب والعالم والوزير السودانى السابق "الدكتور حسن أبشر الطيب" الذى كتب مقدمة جميلة ومهمة للكتاب، وفى هذه المقدمة يشير الكاتب الفاضل إلى تعريف نظرى بديع للمثقف، ويرى أن هذا التعريف ينطبق تماما على الطيب صالح فيقول: "الطيب صالح مثقف بأعظم ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولعل "السير دوجلاس ليوبولد" صاحب المحاضرة الشهيرة التى تحمل عنوان "الوجه الإنسانى للثقافة" والتى قدمها فى حفل افتتاح دار الثقافة بالخرطوم فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٠ لو عاش إلى الآن لوجد فى شخصية الطيب صالح ذلك النموذج الرفيع للمثقف الذى تحدث عنه فى محاضرته، يقول "ليوبولد" أن أهم المكونات الضرورية لشخصية الإنسان المثقف هى صفة "الإنسانية" إذ لا أستطيع أن أصف إنسانا بأنه مثقف إذا لم تكن لديه هذه الصفة، أى صفة "الإنسانية" والإنسانية نفسها تتمثل فى أربع صفات أخرى هى: رحابة الخيال، والتسامح، والبساطة، وروح الدعابة، فالخيال هو الصفة التى يضيفها الإنسان الذكى إلى ما يقرأ أو ما يكتب لكى يزداد فهما له، ولكى يجعله أقرب إلى الحياة والواقع، أما عن التسامح فإن المثقف يرى أن الحقيقة هى أمر نسبى، وأن الجمال يشبه "قوس قزح" فى تعدد ألوانه، وأن الموسيقى هى عملية تأليف بين نغمات مختلفة، وأن العالم هو ألوان شتى من البشر، وهذا التعدد والتنوع فى الحياة والطبيعة يخلق فى النفس إحساسا بالنشوة ولا يترك فيها أى إحساس بالضيق، أو الملل، ومن البديهيات بعد ذلك أن البساطة فى العيش

والتفكير هى أكثر المثاليات صوابا، وهى الهدف الصحيح للحضارة والثقافة، لأن الحضارة حين تفقد البساطة لابد أن ترتبك ثم تصيبها حالة من التخبط والضياع، أما الصفة الرابعة التى يحتاج إليها المثقف فهى "الدعابة" والدعابة قادرة بصورة كيميائية على أحداث تحول فى أفكارنا وتجاربنا، كما أن الدعابة تقترن بالمنطق السليم، وبالخضوع للعقل، كذلك فإن "الدعابة" تمنحنا القوة الذهنية الماكرة والقادرة على الكشف عن التناقضات والحماقات والمنطق الفاسد، وتلك هى أسمى صورة للذكاء البشرى".

هذا هو تعريف المفكر الإنجليزى للمثقف، ولا شك أنه تعريف متميز واضح، وفيه قدر كبير من الصدق والعمق، مع البعد التام عن الغموض والتعقيد وتعليقا على هذا التعريف للمثقف يقول الدكتور "حسن أبشر الطيب" إن هذا التعريف ينطبق تماما على شخصية الطيب صالح، ففى شخصيته تتجلى بوضوح الصفات الأربع الضرورية لكل مثقف مثالى جميل ونبيل وهى: رحابة الخيال، والتسامح، والبساطة وروح الدعابة".

ونستكمل صورة الجانب الإنسانى فى شخصية الطيب صالح من أصدقاء آخرين له، عرفوه عن قرب وأحبوه، وارتبطوا معه بعلاقة قوية، وفى مقدمة هؤلاء السيد محمد بن عيسى الأديب الفنان ووزير خارجية المغرب الآن، وله عن الطيب فصل جميل يقول فيه "أسميه سيدى الطيب" كما نسمى فى المغرب الأولياء الصالحين.

أجالسه كلما التقيت به مجالسة المريدين، نتحدث عن أنفسنا وعن الحياة والناس فى حميمية ولطف وحنان"، ثم يقول الوزير الأديب محمد بن عيسى: الطيب صالح لا يعادى ولا يحاسب ولا يلوم، وهو قنوع لدرجة إهمال حقوقه، كل شئ لدى الطيب ملفوف بالحشمة والتقشف ونكران الذات، إنه ولى صالح حتى بدون عمامته".

هذه الصورة للطيب صالح يؤكدها بعبارات مختلفة صديق آخر من أصدقاء الطيب، هو الدبلوماسى والأديب السودانى صلاح أحمد صالح سفير السودان

السابق فى واشنطن حيث يقول: "لن أعرف فى حياتى قط شخصا فى مثل "طول بال" الطيب صالح وفى مثل تسامحه ومروءته، رجل لا يغضب ولا يغضب، وبقدر ما يكون الشخص أمامه "ثقيلا" يكون هو متسامحا واسع الصدر، لا تستطيع أن تستفزه وإن حاولت، فهو يجردك بردود فعله الهادئة من كل مسببات اللوم، والغضب، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يوقع أحد بين الطيب وبين صديق له، وحتى أحد معارفه فهو لا ينصت للنميمة ويلتمس المبررات لتصرفات الآخرين، وإن أساءوا إليه، ويدير دفة الحديث دائما إلى جوانب الخير فى الإنسان، وبقدر ما كان تسامحه يفوق الحدود كان يحيرنى كرمه وأريحيته وعطاؤه المبالغ فيه، وأنا أعرف أن إمكاناته المالية كانت محدودة وقد لا تفى بسد حاجاته الشخصية الضرورية".

أما الإعلامى المثقف الأديب عبد الرحيم الرفاعى، المصرى "المنصورى" المقيم فى سويسرا الآن فيقول: الطيب صالح لديه قدرة عجيبة على أن يغلق أبواب دماغه إن لم يعجبه الحديث أو رأى فيه سخفا، فتراه ينظر إليك ولا يراك، ويستمع إليك ولا يسمع، أما حينما يستهويه الحديث فإنك ترى كل الأبواب تفتحت عنده وتستمتع منه إلى الدر الثمين، والطيب صالح يذكرنى دائما بما كان يقوله أحد المتصوفين فى وصف أهل التصوف: "لا يملكون شيئا ولا شئ يملكهم".

فى رواية "مريود" للطيب صالح يقول أحد أشخاص الرواية لصديق له - بالعامية السودانية: "الحياة ما فيها غير حاجتين اثنين: الصداقة والمحبة، ما تقول لى لها حسب ولا نسب ولا مال ابن آدم لو كان ترك الدنيا وعنده ثقة إنسان واحد يكون كسبان.." وذلك هو الطيب صالح. صداقة للحياة ومحبة للناس وقلب نبيل عامر بالخير والصفاء.

فى وداع أستاذ عظيم

فى يوم الخميس العاشر من مـارس سـنة ٢٠٠٥ توفـى إلى رحمـة الله أسـتاذ الأساتذة وسيد علماء الأدب واللغة العربيـة فـى العصـر الحـالى الدكتـور شـوقى ضيف "١٩١٠ – ٢٠٠٥" ، وجاء رحيل هذا الأستاذ العظيم بعد أن تـرك وراءه مجموعة فريدة من الدراسات الخصبة المتنوعة، وقد أقترب عدد هذه الدراسـات من الخمسين، ولكن أهميتها ليست فى عددها الكبير، وإنما تعود هذه الأهميـة إلى القيمة العلمية التى تتميز بها هذه الدراسـات، فـالدكتور شـوقى ضيـف فـى دراساته جميعا هو مثل أعلى للعالم المخلص الأمين الـذى لا يدخـر جـهدا فـى البحث عن الحقائق الصحيحة الدقيقة أينما كانت، وهو واحد من كبار العلمـاء الذين يفرقون بين المعلومات والرأى والتحليل، ولذلك فـإن الذيـن قـد يختلفـون مع الدكتور شوقى ضيف فى أرائه وتحليلاته لا يفوتهم أن ينتفعوا أعظم الانتفاع بما يقدمه من معلومات، وقد وفـق الله هـذا الأسـتاذ العظيـم إلى أن يكتـب كـل دراساته بأسلوب واضح مشرق لا تعقيد فيه، بحيـث يلتقـى المتخصصـون وغـير المتخصصين على محبته والاستمتاع به والانتفاع بما يقدمه من أفكار ومعلومات.

من بين كتب الدكتور شوقى ضيف كتاب عنوانـه "مـع العقـاد" انتـهى مـن كتاباته فى أول يونيو سنة ١٩٦٤، أى بعد وفاة العقاد فى ١٢ مارس ١٩٦٤ بما لا يزيد على شهرين ونصف الشهر، وهذا الكتاب هو مـن اجمـل كتـب شـوقى ضيف وأكثرها تركيزا ومتابعة علميـة لحيـاة العقـاد وأدبـه، وفـى هـذا الكتـاب معنى مهم وكبير، فشوقى ضيف هو من التلاميذ المقربين جـدا إلى طـه حسـين، وقد كان بين العقاد وطه حسين ما يشبه المنافسة حول المكانة والقيمة والتأثـير، وهى منافسة لم تكن ظاهرة، ولم تتحول إلى حرب أدبية معلنة، ولكنـها كـانت منافسة موجودة، وكانت الحياة الثقافية تشعر بها شعورا واضحا، فى الجامعـة وخارج الجامعة. وبرغم هذه المنافسة، فإن موضوعية شوقى ضيف وارتفاعه التام فوق أى تعصب أو حزبية أدبية دفعه إلى أن يكون أول من يقـدم دراسـة شـاملة

عن العقاد بعد رحيله، وهذه الدراسة لا تزال حتى اليوم من أفضل ما ظهر عن العقاد منذ رحيله قبل أربعين سنة حتى الآن، وهكذا يرتفع شوقى ضيف فى دراسته للعقاد عن أى خصومات ظاهرة أو خفية، ويهتم بالحقيقة وحدها شأن العالم المخلص الذى لا يعرف الظلم للآخرين ولا يستسلم أبدا للأهواء الشخصية.

وفى السطور الأولى من كتاب مع العقاد يقول شوقى ضيف: "لم يكتسب العقاد مكانته الأدبية الرفيعة من جاه ولا من وظيفة ولا من لقب علمى، وإنما اكتسبها بكفاحه المتصل العنيف الذى يعد به أعجوبة من أعاجيب عصرنا النادرة".

ولو أننا درسنا حياة شوقى ضيف وجهاده الأدبى والعلمى دراسة دقيقة لوجدنا أن ما كتبه عن العقاد فى السطور السابقة يكاد ينطبق عليه نفسه، فقد اكتسب شوقى ضيف مكانته العلمية والأدبية بكفاحه المتصل الذى لم يتوقف ولم يهدأ ولم يلتفت فيه إلى شئ أخر خلال سبعين سنة متصلة، وفى كتابه الجميل الذى جعل عنوانه "معى" يروى لنا شوقى ضيف قصة حياته ويصل فى هذا الكتاب إلى قمة الوعى والموضوعية، فنجد ان قصة حياته الشخصية مرتبطة أشد الارتباط بتاريخ الحركة الوطنية فى مصر، خاصة فى مرحلة ثورة ١٩١٩ وما بعدها، وهذه الحياة الشخصية مرتبطة كذلك أشد الارتباط بتاريخ التطور الثقافى فى مصر فى نفس الفترة، فالحياة الشخصية والحياة الوطنية والتطور الثقافى ترتبط كلها ببعضها البعض ارتباطا وثيقا سهلا طبيعيا ليس فيه أى افتعال، وهذا دليل حى قوى على أن شوقى ضيف كان ينظر إلى نفسه وإلى عمله وتطوره الشخصى على إنه جزء من إطار كبير يضم تاريخنا الوطنى وتطورنا الثقافى فى الوقت نفسه، ولا أكاد اعرف بين كتب السيرة الذاتية المهمة فى تاريخنا الأدبى المعاصر من كان حريصا كل هذا الحرص على الجمع بين العناصر الثلاثة، أى الشخص والوطن والثقافة، كما فعل شوقى ضيف فى

كتابه "معى"، وفى هذا كله دليل على الموضوعية الشديدة، وفيه دليل على الموضوعية الشديدة، وفيه دليل على التواضع وعلى أصالة الجانب الإنسانى فى شخصية شوقى ضيف، فهو لم يكن فى سيرته الذاتية يقدم صورته الشخصية الخاصة على أنها صورة للنبوغ الفردى، بقدر ما يقدمها للناس أجمعين على أن هذه الشخصية كانت ثمرة للحركة الوطنية والتطور الثقافى فى مصر.

ومن خلال هذه السيرة الذاتية لشوقى ضيف كما صورها لنا هذا الأستاذ العظيم فى كتابه "معى" سوف نجد صورة واضحة بديعة لعالم مجتهد مثابر صبور على البحث الجاد والدراسة العميقة منذ فجر شبابه، فهو رجل لم يلتفت أبدا إلى المناصب الإدارية فى الجامعة أو خارج الجامعة، وأعلى منصب وصل إليه داخل الجامعة هو منصب رئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، أما أعلى منصب وصل إليه خارج الجامعة فهو المنصب الذى وصل بالانتخاب، وأعنى به منصب رئيس مجمع اللغة العربية، وكان شوقى ضيف - لو أراد - جديرا بأن يصل فى الجامعة وخارج الجامعة إلى أعلى المناصب، فزملاؤه بل وتلاميذه قد أصبحوا عمداء للكليات ورؤساء للجامعات، بل وصل البعض منهم إلى مناصب الوزارة، لكن شوقى ضيف لم يسع إلى شئ من ذلك، وأختار دون تردد أن يكون عالما وباحثا وأستاذا للأدب فى الجامعة، وقد ظل وفيا لذلك لا يحيد عنه، ولا يرضى لنفسه أن يخرجه أحد عن هذا التركيز التام على العمل العلمى والإخلاص له والتفانى فيه، وبرغم ما نجده فى كتابه "معى" من وعى سياسى كبير ومتابعة دقيقة لتطور الحركة الوطنية فى مصر، وبرغم اقتناعه وميله الواضح إلى حزب "الوفد القديم" إلا أن شوقى ضيف لم ينضم إلى حزب، ولم يشتغل بالسياسة العملية، ولم يدخل إلى ميدانها الصاخب الملئ بالصراعات، ولعل ذلك يعود إلى طبيعته الهادئة ونفسيته التى لا تطيق الدخول فى معارك وحروب مختلفة، فقد كان يريد أن يتفرغ للعلم وحده، ولا يريد أن ينصرف عن ذلك تحت أى نوع من الإغراء، خاصة إغراء

السياسة العملية التى هى فى العالم الثالث على الخصوص مليئة بالأزمات والصعوبات والتقلبات، ونحن مازلنا جزءا من هذا العالم الثالث والسياسة العملية هى عبء شديد وثقيل على العلم والعلماء، وكثيرا ما تعرض العلماء الذين يسمحون لأنفسهم بأن يشتغلوا بالسياسة العملية إلى مشاكل تعصف بهم وتربكهم وتحرمهم من التفرغ للبحث والدراسة، ولعل هذا الإخلاص الشديد للعلم، مع عدم الاستجابة لأى إغراء،أو التطلع لأى شئ أخر بعيد عن العمل العلمى، هو الذى أعطى لشوقى ضيف ما كان معروفا عنه من هدوء ونفس راضية وحياة خالية من أى اضطرابات أو إرتباكات.

ولقد بدأ شوقى ضيف حياته العلمية والعملية معا نحو سنة ١٩٣٧ حينما اختاره طه حسين ليكون معيدا فى كلية الآداب فى جامعة القاهرة التى كان اسمها فى ذلك الوقت "جامعة فؤاد الأول" وقد أنهى شوقى ضيف حياته وهو حريص على موقعه كأستاذ فى نفس الجامعة، إذ انه - فيما اعلم - لم يتخل عن عمله الجامعى حتى بعد أن أصبح رئيسا للمجمع اللغوى، ومعنى ذلك أن شوقى ضيف قد قضى نحو سبعين سنة متصلة فى موقعه العلمى دون أن يلتفت إلى شئ سواه، وعندما كان يضطر إلى الابتعاد عن الجامعة لسبب من الأسباب فإنه كان لا يتوقف عن عمله العلمى الذى أخلص له وأعطاه حياته كلها، وهذا هو سر من أكبر أسرار تفوق هذا الأستاذ العظيم وهو الذى يفسر لنا انتاجه الغزير والمنظم والمهم الذى لا مثيل له فى المكتبة العربية الحديثة، فكتابات شوقى ضيف هى مرجع أساسى متكامل موثوق به لتاريخ الأدب العربى فى عصوره المختلفة وهى: العصر الجاهلى والعصر الإسلامى والعصر الأموى والعصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى وعصر الدول الإمارات وبدايات العصر الأدبى العربى الحديث فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

على أننا نجد فى سيرة شوقى ضيف الشخصية جانبا مهما هو علاقته الوثيقة بأساتذته الكبار مثل طه حسين وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد

الوهاب عزام فقد كان شوقى ضيف ينظر إلى هؤلاء الأساتذة الكبـار فـى احـترام شديد، ويعرف ما كان عليه هؤلاء الأساتذة من فضـل، ومـا كـانوا يمثلونـه مـن قيمة علمية وأخلاقية عالية، وعلاقة شوقى ضيف بأساتذته الكبـار هـى نمـوذج حى للعلاقة المثمرة بين كبار العلماء وبين تلاميذهم المتعطشـين للفـهم والمعرفـة، والذين لا يعانون من الرغبة المريضة فى هدم السابقين والتقليل من شأنهم وإنكار فضلهم والنظر إليهم نظرة متعالية وغير منصفة.

وحديث شوقى ضيف عن أساتذته الكبار فيه وفاء جميـل وفيـه فـهم عميـق ومحبة غامرة وتفسير دقيق لجوانب العظمة فى هؤلاء الأساتذة السابقين، ولعلنا نعود إلى علاقة شوقى ضيف بأساتذته فـى حديـث آخـر، فـهى علاقـة أستاذ عظيم بأساتذة عظماء أيضاً.

حدثنا شوقى ضيف فقال

غاب عنا منذ اليوم العاشر من شهر مارس سنة ٢٠٠٥ أستاذ أساتذة الأدب واللغة ورئيس المجمع اللغوى الدكتور شوقى ضيف "١٩١٠ - ٢٠٠٥ " وقد تعودنا أن نقول عن الذى يغيب عنا ويترك وراءه آثارا كثيرة تنفع الناس وتبقى فى الأرض أنه "الغائب الحاضر"، وهذا الوصف هو أصدق الأوصاف وأقربها إلى الصواب عندما نتحدث عن شوقى ضيف، فقد ترك وراءه ما يقرب من خمسين كتابا فى اللغة والدين وتاريخ الأدب والنقد، وهى كلها كتب لا غنى عن الرجوع إليها والاعتماد عليها عند أى باحث متخصص وعند القارئ غير المتخصص أيضا، بفضل ما تقدمه هذه الكتب من علم ومعرفة وبحث دقيق، بالإضافة إلى ما كان بملكه هذا الأستاذ الكبير من أسلوب واضح سهل جميل، وبهذه الأعمال الكثيرة العامرة بالمعرفة والمتعة الأدبية سوف يبقى شوقى ضيف حيا متألقا فى هذا الجيل وفى كل الأجيال القادمة، فهو حقا "غائب وحاضر" على الدوام.

سوف أتوقف اليوم مع جانب إنسانى فى شخصية شوقى ضيف، وهو الجانب الذى يتصل بعلاقته مع بعض أساتذته الكبار الذين تعلم على أيديهم، ولا شك أن من أجمل ما كتبه شوقى ضيف هو حديثه عن أساتذته الكبار، وهو فى هذا الكتاب الجميل يشير إلى نفسه دائما باسم "الفتى" وذلك على طريقة طه حسين فى كتابه "الأيام" وفى غيره من الكتب، حيث إن طه حسين لم يكن يستخدم كلمة "أنا" فى معظم كتاباته، وكان يستخدم بدلا منها كلمة "الفتى" أو الضمير "هو" أو كلمة "صاحبنا" وذلك عندما يريد أن يتحدث عن نفسه، وهو نوع من التأدب والذوق والتواضع فى مخاطبة الناس. وعلى هذه الطريقة سار شوقى ضيف فى كتاباته عن نفسه فلم يقل "أنا" قال "الفتى" وهو يعنى بذلك الإشارة إلى شخصه.

يتحدث شوقى ضيف عن أحد أساتذته الكبار فى الجامعة، وهو أحمد أمين فيقول: "كان من أساتذة الفتى المحببين إليه وهو فى السنة الثالثة بكلية

الآداب "سنة ١٩٣٣" أحمد أمين أستاذ الحياة العقلية الإسلامية، وكان من خريجى مدرسة القضاء الشرعى، وحين تخرج فى هذه المدرسة اختاره ناظرها عاطف بركات ليكون معيدا له فيما يدرسه للطلاب من "علم الأخلاق" وكان يوضع لأحمد أمين كرسى لكى يستمع مع الطلاب إلى عاطف بركات وهو يلقى دروسه فى علم الأخلاق، وكان مما درسه معهم رسالة عن مذهب "المنفعة" للفيلسوف الإنجليزى "جون ستيوارت ميل" جاء فى مقدمتها "منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم على الشيخ فيثاغورس... الخ" فأطلق الطلاب على المعيد الشاب أحمد أمين اسم "الشاب سقراط" .. وكان أحمد أمين قد عكف على اللغة الإنجليزية فتعلمها، وأصبح أستاذا فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب سنة ١٩٢٦ ، ورأى أن يغير زيه، وكان قد انتقل من القضاء الشرعى فغير عمامته إلى الطربوش وخلع الجبة والقفطان ولبس البدلة انسجاما مع بيئته الجامعية الجديدة". ثم يقول شوقى ضيف: "كان أحمد أمين فى طليعة من جمعوا بين الثقافتين القديمة والحديثة جمعا رائعا، يعينه عقل بصير ونظر دقيق ودأب لا يماثله دأب فى البحث، واستيعاب لا يداينه استيعاب لكنوز الفكر الإسلامى وذخائره. وكان يحاضرنا فى الحياة العقلية الإسلامية، ولم تكن صورة هذه الحياة واضحة فى نفوس المثقفين، فأكب عليها يدرسها ويذلل صعابها، فإذا كل ما كان يحجبها عن الأعين ينزاح، لا يفترق فى ذلك جانب عن جانب، بل استطاع أن يسلط أضواء قوية على كل الجوانب، وساعدته فى ذلك ثقافته القديمة فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وثقافته الغربية الحديثة وما قرأه من آراء المستشرقين. وكان الفتى يعجب إعجابا شديدا بكل ما يعرضه أستاذه أحمد أمين حين يراه يتعمق فى وصف الظواهر العقلية للأمة العربية، وما وضعته من العلوم وصاغته من الأفكار. وكان أحمد أمين ينهى طلابه أشد النهى عن الجدل العقيم وما يحمل من مغالطات، ويكرر أن طريقة الجدل اللفظى عند القدماء حلت محلها فى العصر الحديث طريق التحليل والاعتماد على المنطق العقلى، ولعل هذا ما جعل الفتى فيما بعد يحرص على ألا ينزلق فى أى مجادلة عقيمة لا تجدى نفعا. وهناك جانب مهم آخر فى شخصية

أحمد أمين هو حسن انتقائه للنصوص التى تصور الفكر العربى الإسلامى، وكأنما كانت لديه حاسة يلتقط بها أدق ما يقرؤه وأروعه".

ومن أساتذة شوقى ضيف أيضا الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب فى ثلاثينات القرن الماضى، ووزير الأوقاف سنة ١٩٣٨ وشيخ الأزهر سنة ١٩٤٥ وحتى وفاته سنة ١٩٤٧. والشيخ مصطفى عبد الرازق تخرج فى الأزهر وتتلمذ على الإمام محمد عبده الذى كان يعتبره ابنا له "بسبب ما رآه فيه من فرط الذكاء والدأب على الدرس". وبعد إتمام مصطفى عبد الرازق لتعليمه الأزهرى ذهب إلى باريس ودرس فى السوربون، وعندما عاد إلى مصر قام بتدريس الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب، حيث يقول عنه تلميذه شوقى ضيف: "إنه ظل يحتفظ بزيه الأزهرى فى صورة أنيقة دون بهرجة، وكان يحف به وقار ومهابة وجلال، كما كان يحف به طلابه لسماحة نفسه وكريم شمائله، إذ كان يفتح قلبه، وكان غاية فى التواضع وأدب الحديث دون أى ترفع، وكأنه أب رؤف وصديق عطوف".

ثم يحدثنا شوقى ضيف بعد ذلك عن أستاذ ثالث من أساتذته هو امين الخولى فيقول عنه: "كان قد تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى وعين إماما فى سفارة مصر بإيطاليا وألمانيا، فرأى الغرب، ووقف على جوانب الحضارة والفكر فيه، وعندما عاد إلى مصر رجع إلى زيه الأزهرى، وهو مع ذلك يكره الجمود ويحب التجديد، وكان يدفع تلاميذه إلى نقد كل ما يقرأون، وأيضا إلى نقد آرائه هو نفسه، وكان يتقبل أفكار تلاميذه بصدر رحب وسعة أفق، غير مظهر لأى طالب تبرما أو ضيقا مهما أطال التلميذ فى حواره وفى مناقشته وجداله".

ثم يحدثنا شوقى ضيف عن أستاذه الأكبر والأقرب إليه وهو طه حسين فيقول عنه: "لم يعرف الفتى محاضرا شد إليه الأسماع وجذب إليه القلوب كما عرف ذلك عند أستاذه طه حسين، فقد كانت محاضراته مهوى الأفئدة، وكان أحيانا يلقيها بالجمعية الجغرافية أو بقاعة إيوارت فى الجامعة الأمريكية، فكنت لا تجد مكانا، لا للجلوس فقط، بل أيضا للوقوف. وكل ذلك، أو كثير

منه بفضل صوته المحبب الرائع الذى اكتسبه لنفسه خلال تعلمه تجويد القرآن الكريم، وكان قد أتقن هذا التجويد صبيا، وكثيرون مثله فى أيامه أتقنوه، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يلائم بينه وبين محاضراته ومخارج كلامه وصورة إلقائه كما فعل طه حسين".

ويروى شوقى ضيف عن أستاذه طه حسين أن الأستاذ قد سأله يوما عن رأيه فى محاضرة له، كان قد ألقاها فى الجامعة الأمريكية، قال له شوقى ضيف إنها محاضرة طيبة. "فاستغرق طه حسين فى الضحك ووضع إحدى يديه على الأخرى وقال: طيبة فقط؟!" ثم قال طه حسين بعد ذلك: "ما رأيك أننى ظللت أعد هذه المحاضرة فى نحو شهر، أقرأ لها كتبا مختلفة، حتى استوعبت موضوعها والقيت فيه المحاضرة التى سمعتها ويعلن شوقى ضيف على ذلك فيقول: "خجل - التلميذ - أى شوقى ضيف نفسه" من أستاذه طه حسين لأنه لم يكن يطرأ على باله إنه يعنى بإعداد محاضراته كل هذه العناية، وخاصة أنه كان يمتاز ببراعة فائقة فى الأداء وهى براعة لم تتح لأى محاضر فى أيامه. وكان ذلك درساً رائعا للتلميذ ليتعلم؛ بل وتستقر فى نفسه أنه لا يوجد عمل أدبى - محاضرة أو غير محاضرة جدير بالتقدير مهما يصغر حجمه دون أن يكلف صاحبه جهدا كبيرا ومشقة متعبة. حتى طه حسين صاحب البيان الساحر الذى كان يخلب به مستمعيه يتحمل جهدا مضنيا، لا فى بحوثه الطويلة وكتبه فحسب، بل أيضا فى محاضراته العامة".

تلك صورة حية يرسمها شوقى ضيف لأساتذته، وهى صورة تقدم لنا ملامح عصر كان فيه الأساتذة كبارا، وكانت فيه صلة الأساتذة بطلابهم أشبه بالعلاقة بين الآباء والأبناء"، أى أنها علاقة قائمة على الحب والرحمة والحنان والرعاية والقدوة الرائعة، ولذلك كان من الطبيعى أن يكون شوقى ضيف نفسه أستاذا عظيما لأساتذة عظماء.

الفهرس